الخطايا العشر

للتفكير اللاعقلاني



د. عزيز إفزارن

دليلك العملي
لكشف المغالطات المنطقية
وتحفيز التفكير النقدي

الخطايا العشر

للتفكير اللاعقلاني

دليلك العملي لكشف المغالطات المنطقية

وتحفيز التفكير النقدي

د. عزيز إفزارن

الخطايا العشر للتفكير اللّاعقلاني

تأليف : د. عزيز إفزارن

للتواصل مع المؤلف : azizifzarne@gmail.com

رقم الإيداع القانوني : 2025MO571

ردمك ISBN : 978-9920-24-983-6

دار النشر : إفزارن بريس، طنجة، المغرب.

الطبعة الأولى: فبراير 2026

تحذير

هذا الكتاب لن يساعدك على الاسترخاء،

بل على الأرجح سيستفزّ عقلك،

وربما لن يضيف إلى رصيدك المعرفي، بل ينقص منه،

بعد أن ينقّي بعض ما علق به من شوائب وأوهام.

فإن خرجتَ منه بأفكار أقلّ، لكنها أوضح وأمتن،

فقد ربحنا الرهان.

إهداء

إلى قمريّ الصغيرين "ليندا" و"إليان"،

اللَّذين أشرقا في سماء عمري،

ونثرا على أيامه ضحكات الطفولة،

وعَطَّرا روحي بنكهة المتعة والمرح.

لولاكما، لخرج هذا الكتاب إلى النور منذ أعوام،

لكنني آثرتُ أن أُحَضِّر سطوره على نار هادئة،

وأنسج حروفه على إيقاع لَعبكُما،

وأنفاس براءتكما، وبريق عينيكما.

إليكما، وإلى كل أطفال جيلكما،

أهدي هذا الكتاب... زهرة حبّ في يد الغد.

شكر

أخصَّ أسرتي الصغيرة بفيضِ الشكر،
فقد وهبتني من صبرها ووقتها
ما جعلني أسمح لسطور هذا الكتاب باختطافي.
ليتقبلوا اعتذاري على هذا الاختطاف الطوعي.

ولـصديقي العزيز الأستاذ إدريس البوشاري
امتناني العميق على مراجعته وملاحظاته.

وأخيراَ، الشكر الجزيل لكل الأصدقاء والأحباء
الذين جمعتني بهم جلسات حوار ألهمتني،
ما جعل هذا الكتاب أكثر ثراءَ وحياةً.
أنتم، من حيث تدرون أو لا تدرون،
شركاء في هذه الجريمة الفكرية،
حتى لو أنكرتم التهمة !

المحتويات

مقدّمة 1

مفاهيم أساسية : الادِّعَاء – الحُجّة – المغالطة 6

1. ما الفائدة من معرفة المغالطات المنطقية؟ 7
2. الكثير من المعلومات: هل هذا يكفي؟ 12
3. ما المطلُوب في الكلام كي يكون ادِّعَاء؟ 17
4. الادّعاءات الذّاتية والموضوعيّة 19
5. الادّعاءات الوصفيّة والإرشاديّة 20
6. احذر من الغموض! 23
7. كيف تبني حُجّة؟ 26
8. إشكالية إثبات المقدمات 27
9. الشكل الصّوري للحجة 29
10. ما الفرق بين الرأي والحُجة؟ 31
11. درجات اليقين: الاستنباط والاستقراء 34
12. ما هي الحجة القويّة؟ 40
13. كيف تُبسَط الحُجج المعقدة؟ 43
14. ما هي المغالطة المنطقية؟ 45

15. المنطق الصوري وغير الصوري 47
16. المغالطات الصورية 49
17. المغالطات غير الصورية 50
18. ما الفرق بين المغالطات المنطقية والانحيازات المعرفية؟ 53
19. هل يكون الرأي باطلا إذا بُنِي على مغالطة؟ 55

الخطايا العشر للتفكير اللَّاعقلاني

1. كُلُّهم سَواء! (التعميم المتسرع) 58
2. مَعَنَا أو ضِدَّنا! (الثنائية الزائفة) 79
3. كيف تَرجُو فكرة جيِّدة مِن شخص سيِّء؟ (الشَّخْصَنَة) 100
4. مستحيل... كل هؤلاء مخطئون؟ (الاحتكام إلى عامة الناس) 116
5. لن تَعرف أكثر من هؤلاء! (الاحتِكَام إلى السُّلطَة) 133
6. هذا مَا أوصَانا بِه أجدادُنا! (الاحتكام إلى القديم) 147
7. إِحسَاسِي لَا يُخطِئ! (الاحتِكام إلى المشاعر) 161
8. صَدِّقْ وَإِلَّا! (الاحتِكام إلى القُوّة والخَوف) 182
9. مَن يُثبت العكس؟ (الاحتكام إلى الجهل) 197
10. هذه الوقائع تُثبت ما أقول (الانحياز التأكيدي) 215

مُلحق المغالطات المنطقية والانحيازات المعرفية 241

مغالطات صورية 242

مغالطات غير صورية

1. حيل ماكرة في الحوار 247
2. احتكامات باطلة 252
3. مغالطات الدليل المفقود 260
4. مغالطات التعميم والاستثناء 264
5. مغالطات الشخصنة 270
6. مغالطات عدم الارتباط 274
7. مغالطات الافتراضات غير المبررة 283
8. مغالطات التفسير والسببية 290
9. مغالطات الغموض 296
10. مغالطات لغوية 302
11. مغالطات التعريف 307
12. مغالطات التشبيه والمقارنة 310
13. انحيازات معرفية 315
14. مغالطات متنوعة 320

المراجع 325

مقدّمة

بدأ اهتمامي بموضوع المغالطات المنطقية قبل أكثر من عشرين عامًا. ولعلّي أعترف اليوم، بعد أعوام من البحث، أن هذا الموضوع أعاد ترتيب أثاث عقلي بالكامل. اتَّضح لي أن كثيراً من الحُجج، التي كانت تبدو لي في الماضي صلبة قوية، هي في الواقع بالُونات هشّة تفرغ من الهواء عند أول وخزة منطقية. منذ ذلك الحين، صارت لديّ هواية ممتعة – أو ربما عادة سيئة – بملاحقة هذه الفقاعات الفكرية أينما وُجدت، وتتبّع مشهد انفجارها.

هذا الكتاب هو خلاصة تلك الرحلة.. كتاب مطهوّ على نار هادئة.. بعض أفكاره وُلدت في القطار، وأخرى في صخب الشارع، وكثير منها جاءني ليلاً، فانتزعني من دفء الفراش إلى برودة المكتب لأدوّنها قبل أن تهرب وتتركني مُعلَّقا بين النوم واليقظة.

"الخطايا العشر للتفكير اللّاعقلاني".. هو كتاب يستعرض عشر مغالطات كبرى في التفكير، كل واحدة منها أشبه بِبوّابة تُؤدي إلى ممرات فرعية تقبع فيها مغالطات أخرى كثيرة، وكأنها تُلوِّح من بعيد وتقول: "مرحبًا أيها الأذكياء، لقد وقعتم في الفخ!"

الكتاب هو أشبه بسوقٍ فكريٍّ، تتجوّل فيه كما تشاء: تبدأ من حيث يستهويك العطر أو يلفت انتباهك الصخب.. اقرأه بطريقتك. لستَ ملزَماً أن تقرأ المغالطات بترتيبها في الكتاب؛ افتح أيّة صفحةٍ تُغريك، وستجد المغالطات تنتظرك مستعدّة لإثارة دهشتك.. وربما سخريتك!

أردتُه كتاباً لعموم الناس، لا حكراً على نخبة معينة، فالمُفترض أن يكون التفكير السليم مُبتغى كل إنسان عاقل. حاولتُ أن أقدّم الموضوع بأسلوب مبسّط لا يُفقده عمقه العلمي، مع إثرائه بالكثير من الأمثلة والحكايات والصور التوضيحية، وإضافة لمسة ساخرة من النكات الخفيفة والرسوم الكاريكاتورية، لعلّ في هذا ما يُلطّف جفاف المنطق في نظر كثيرين.

ولإحاطةِ القارئِ بأفقٍ رحبٍ ونظرةٍ وافيةٍ على أكثرِ المغالطاتِ شيوعًا، ختمتُ الكتابَ بملحقٍ يضمّ أزيد من 100 مغالطة، مقرونةً بأمثلةٍ تكشفُ الخللَ، ليكونَ زادًا يعينُ القارئَ في رحلته نحو التفكيرِ الرشيد. بعض المغالطات هي على حدّ علمي جديدة، إذ لم أجد لها ذكرًا في المراجع التي بين يدي، فرأيت أن أصُوغها وأقترح لها أسماءَ. هذه المغالطات جُمِعت في خاتمة الملحق، في فئة تحمل اسم "مغالطات متنوَعة".

قد يعتقد البعض أن تَعَلُّم المغالطات المنطقية هو مجرد ترف فكري يمارسه بعض هواة المنطق من المثاليين البعيدين عن منطق الحياة. في الواقع، القضية أكثر جدية وخطورة. تخيّل أن تترك عقلك، وهو أثمن ما تملك، مفتوحًا لكل طارقٍ عابر، كما يترك بعض الطيبين باب بيوتهم للصوص. لك أن تتخيل النتيجة! ثمن المغالطات قد يكون باهظا جدا، يكفي أن تعرف أن الكثير من الحجج المسكونة بالمغالطة تجعل مُصدقيها لقمة سائغة للخرافات والمعلومات المضللة، أو لأفكار متشددة عنيفة ترفض المساءلة كما لو أن السؤال تهديد للأمن القومي. لعل في هذا الأمر إذن ما يُبرر اختيار كلمة "خطايا" في عنوان الكتاب.

التَّسلُّح بأدوات التفكير النقدي ليس هواية للنخبويين ولا رفاهية للمثقفين، بل أشبه بارتداء حذاء متين قبل الخروج إلى شوارع مليئة بالوحل. بدون هذا الحذاء الفكري، قد

تغرق قدماك في أول مستنقع منطق مغلوط، وتكتشف متأخرًا أنك لم تكن تسير نحو الحقيقة، بل كنت تركض وراء سراب يبيع الوهم!

علَّمونا في المدرسة أن ننتبه لأخطاء النحو والحساب، فحذَّرونا من نصب الفاعل ومن القسمة على الصفر، ولكنهم لم ينبِّهونا إلى أخطاء المنطق والتفكير.. هذه الكائنات الشبحية التي تتسلل بِخِفة إلى نقاشاتنا وتوجّه أفكارنا في الخفاء.

الشيءُ المثيرُ في المغالطاتِ المنطقيةِ هو أنَّها ليست ضيفًا يزورُك أحيانًا، بل هي جارٌ ملازمٌ لك. إنها تُحيطُ بك من كلِّ جانبٍ، ستجدُها تتسلَّلُ إليك من عناوينِ الأخبار والإعلاناتِ التجاريةِ، وتُمُدُّ لك يدها من عالمِ المعتقداتِ الشعبية، وتجلسُ بثقةٍ في مقاهي النقاشاتِ القانونيةِ والأخلاقيةِ والاقتصاديةِ والاجتماعية والعلمية، لِتَضَع بصمتَها على قراراتِك الصغيرةِ قبل الكبيرة، من اختيارِ معجون أسنانك إلى اختيار شريك حياتك.

تَعَلُّم المغالطات المنطقية أشبه بامتلاك عدسة سحرية تكشف الزيف المخبّأ في بريق الكلمات التي يُروّج لها على أنها لآلئ فكرية. إنها مهارة تمنحك مناعة عقلية؛ فلا تبتلع الهراء المُغلَّف بجُمل فخمة بليغة. المغالطةُ ليست وحشًا يَقفز من بينِ السطورِ ملوِّحًا بلافتةٍ تقول: «ها أنا ذا!»؛ بل كثيراً ما تتخفّى في ثوبِ الوقار والاستدلالِ ذي المظهر الرصين.

ثَمَّةَ نقطةٌ بالغةُ الأهمية. أرى – ولا سيما على منصّاتِ التواصل الاجتماعي– مغالطاتِ في فهمِ المغالطات! التعميمُ مثلًا ليس أغلوطة في كل الأحوال، وإلا لوجب أن نلقي بالعلومِ قاطبةً في سلّةِ المهملات، والاحتكام إلى السلطة لا يكون دائما مُغالطا، خصوصا إذا تم الاحتكام إلى خبير مؤهل في موضوع النقاش. قبل أن تُشهِرَ سيفَ الحُكمِ على حُجّة، لابد أن تتفقّد جيّدًا سياقها. لهذا، تمت إضافة تمهيد للكتاب يُذكر بمفاهيم أساسية، من قبيل

الادّعاء والحُجّة والمغالطة. فالمعركة الفكرية لا تُخاض بالسيوف بل بالمفاهيم، ومن دخلها بدون استعداد مُسبق قد يُشبه فارساً يُلوّح بعصا وهو يظنّها رمحاً!

نقطة أخرى مهمة جدا ضَعها في حساباتك. المغالطة تُفنّد الحُجة وليس الرأي. وكما قد تَخسر القضيةُ العادلة بِسبب ضُعف دفاع أحد المُحامين، كذلك قد تتحول الفكرة الجيدة إلى سخيفة بسبب ضُعف حُجج أحد المدافعين عنها. لهذا، وأنت تهاجم حجة خصمك، إيّاك أن تظنّ أنّ وجود مغالطة في حجته يعني تلقائيًا القضاء على الرأي نفسه؛ فلعلّ صاحبها يُخرج من جيبه حجّةً أخرى أصلب من الأولى، ويُعيد الكرة عليك وأنت تحسب أنّك قد حسمت الأمر.

إذا نسيتَ كل ما سبق، تذكر هذا الأمر جيدا: هذا الكتاب ليس فقط عن الأخطاء التي يرتكبها الآخرون، بل عن تلك التي ترتكبها أنت... نعم أنت، حتى وأنت الآن تهمس في داخلك: "أكيد يقصد الناس الأغبياء، وليس أنا!" إتقان فن كشف المغالطات لن يُقلل فقط من انخداعك بمغالطات الاخرين، بل على الأرجح سيَقلل أيضا من انقيادك وراء تحيزاتك اللَّاعقلانية.

لهذا، من المهم أن تدرك أن هذا الكتاب لن يساعدك على الاسترخاء، بل على الأرجح سيستفزّ عقلك، ويهزّ بعض قناعاتك كما تُهَزّ الشجرة لتسقط أوراقها اليابسة. وربما لن يضيف إلى رصيدك المعرفي، بل ينقص منه، بعد أن ينقّي بعض ما علق به من شوائب وأوهام. فإن خرجتَ منه بأفكار أقلّ، لكنها أوضح وأمتن، فقد ربحنا الرهان.

عزيز إفزارن – غشت 2025

5 أمور هامة

قبل أن تتهم الآخرين بالمغالطة

1. اللباقة:

إذا أردت إخبار خصمك بارتكابه مغالطة، فليكن أسلوبك لبقا مهذبا بعيدا عن السخرية أو الغطرسة.

2. الدقة:

لا يكفي أن تُخبر خصمك بأنه قد وقع في مغالطة، يجب تحديد ماهية المغالطة.

3. الاستثناء:

الانتباه إلى كون بعض المغالطات تقبل استثناءات في سياقات معينة.

مثلا "الاحتكام للسلطة" قد لا يكون مغالطة إذا كانت السلطة المعرفية غير متحيزة وذات خبرة في موضوع النقاش.

4. التمييز:

المغالطة تُفنّد الحُجة وليس الرأي. وجود مغالطة في حجة خصمك لا يعني فساد رأيه، فربما يجد لنفس الرأي حجة أخرى قوية.

5. النقد الذاتي:

لا تستخدم مهارة كشف المغالطات فقط في نقد آراء الآخرين، بل اجعلها أيضا أداة لفحص آرائك وحججك الشخصية.


0
مفاهيم أساسية
الادعاء - الحجة - المغالطة

ما الفائدة من معرفة المغالطات المنطقية؟

الخطر ليس في ما نجهله،

بل في ما نعتبره يقينا، بينما هو ليس كذلك.

مارك توابن

تَخيّلْ أنَّكَ زُرت مدينةً لأول مرة. وأنتَ تتجوّل في شوارعها، سألتَ أحد المارّة عن أقرب مطعم، فإذا به يبتعد عنك مُتجهما كما لو أن لِصّاً قطع طريقه، فهاجَت نفسك غاضبة: "لم أكن أعلم أنّ سكان هذه المدينة عنصريون وقليلو الأدب إلى هذا الحد!" لكن بعد لحظات، تسأل شخصًا آخر، فإذا به يفيض لطفًا ويُرشدك إلى مطعمٍ أثمنتُه معقولة وجودة الأكل فيه ممتازة. هنا تتذكّر – على استحياء – أن حكمك الأول لم يكن سوى تعميم متسرّع كاد أن يُحوّل مدينة كاملة إلى نسخة كربونية من ذلك الرجل المتجهّم.

قد تظنّ أن الحسّ المنطقي السليم ملكة فطرية، كالشهيق والزفير، لا تحتاج إلى تدريب. حسبَنا أن نشغّل عقولنا فننطق بالحكمة. لكن الواقع – ويا للأسف – أعقد بكثير. فقد أثبتت دراسات علم النفس الاجتماعي أنّ أدمغتنا حافلة بالانحيازات المعرفية[1] التي تُعوجّ التفكير، وأن كشف المغالطات ليس دومًا بالبساطة التي نُوهِم أنفسنا بها.

[1] الانحياز المعرفي (بالإنجليزية Cognitive bias) هو نمط من الانحراف في اتخاذ الأحكام بصورة لاعقلانية، وهو جزء من مبحث العلوم المعرفية (Cognitive science).

وكما تنخدع العين بخدع بصرية، يتعرض الفكر بسهولة لخدع منطقية لا يُكشف سترها إلا بمهارات نقدية يقظة.

ومعظم الناس – دعنا نكن صرحاء – لا يُقيمون اعتقاداتهم على حجج وأدلة، بل هم يستكينون عادة للثقافة السائدة وتراث الأجداد وتوجّه الأغلبية. هذا يمنحهم راحة التفكير بالوكالة: يُفوّضون غيرهم ليَفكّر عنهم فيَعفون أنفسهم من تعب التساؤل والشك. وحتى حين يقرّرون ممارسة التفكير، يترصّدهم الانحياز التأكيدي، فينساقون إلى جمع الأدلة التي تُرضي قناعاتهم المسبقة، متغافلين عمّا سواها. ثم يزداد البلاء سوءًا حين يدخلون في نقاش: فبدل أن يبحثوا عن الحق، ينصرفون لإثبات أنهم على حق. وحتى إن لاحت لهم الحقيقة بين جدران عقولهم، فإن كبرياءهم يأبى أن يعلنها أمام خصومهم خوفًا من لحظة إذلال أمام الملأ.

باختصار، كثيرة هي الأمور التي تُشوّش على الرزانة المنطقية والتفكير العقلاني.

من هنا تتجلّى أهمية كشف المغالطات المنطقية. قد يبدو للبعض أن هذه المهمة سلبية، كمن يتربّص فقط بأخطاء الآخرين ليهدم بناءهم. لكن انظر إلى المصانع: هل يُقلّل أحد من شأن فحص الجودة؟ بل كلما اشتدّت المراقبة، ارتفعت جودة وقيمة المنتج. والأفكار منتوج بشري: إن لم تُمحّص، تراها في السوق مغشوشة تُغري السذّج.

وأنت، عزيزي القارئ، بالتأكيد لا ترغب في أن يتم التلاعب بعقلك بسهولة، هذا وضع مُرعب يستحق أن تبذل جهدا كبيرا لِتَجنُّبه. ولعل فولتير قد أصاب حين حذّر قائلًا: "أولئك الذين يمكنهم جعلُك تُصدّق السخافات، بإمكانهم أيضًا أن يدفعوك إلى ارتكاب الفظائع".

الشيء المثير في المغالطات المنطقية هو أنها تُحيط بك من كل جانب. تندسّ في حياتك اليومية كما يندسّ الملح في الطعام: لا تراه، لكنك لا تستطيع أن تتجاهل أثره. هي موجودة

في وسائل الإعلام ومواقع التواصل الاجتماعي، في الإعلانات الدعائية، في الخطابات السياسية والنقاشات القانونية والأخلاقية والاقتصادية والعلمية، في الخرافات والاعتقادات الشعبية، بل وحتى في قراراتك البسيطة: أيّ قهوة ستشرب، وأيّ حذاء ستشتري. المغالطات المنطقية كثيرة ومتشعبة، وقد وصل عددها في بعض المؤلفات إلى أزيد من 300 مغالطة[2].

تذكَّر هذا جيدا: كَشْف الباطل جزءَ لا يَتجَزَّأ من رحلة استكشاف الحقّ. كشف المغالطات المنطقية سيساعدك في تطوير مهارات التفكير النقدي. ولا غرابة في أن حركة التفكير النقدي[3] خرجت، في بداية سبعينيات القرن العشرين، من رحم المنطق غير الصوري، والذي كان في بدايته مُنصبّا على دراسة المغالطات المنطقية قبل أن يؤدي تطوره إلى توسيع مجال أبحاثه والتقائه بفروع بحثية أخرى مثل اللِّسَانِيات وعلم النفس المعرفي[4].

في أيامنا، يُشكل مبحث المغالطات المنطقية مادة أساسية في التفكير النقدي. فإتقان بناء الحُجج وحده لا يكفي، بل يجب أن نتقن أيضًا فنّ هدم الأوهام. إذ لا يكفي من أجل إظهار الحق أن نتعلم مبادئ التفكير السليم، بل ينبغي أيضا أن نُبين أين هو الغلط حتى يبدو الحق أكثر وضوحا. وعندما نُدرك اسم المغالطة، فهذا يساعد على نقد الحجة من خلال كشف مكمن الخطأ فيها بصورة دقيقة. تسمية المغالطة تُشبه وضع علامة ضوئية حمراء على موضع العطب، تجعل الخطأ واضحا بحيث لا يُمكن تجاهله.

[2] Bo Bennett, Logically Fallacious: The Ultimate Collection of over 300 Logical Fallacies, Academic Ed. 2012.
[3] Critical thinking movement
[4] Cognitive psychology

الاستقلالية في التفكير من أهم أهداف التفكير النقدي. إلا أن هذه الاستقلالية الفكرية وحدها لا تكفي من دون تواضع معرفي. فمن توهّم أنّه بلغ الكمال العقلي تحوّل إلى تمثال فكري عديم الحركة. أما من يُدرك أنّ أفكاره نسبية وأن عقله محدود، فإنه يبقى في نموّ دائم مثل شجرة لا تكفّ عن الإثمار.

خصائص وأهداف التفكير النقدي

1. **التساؤل والشك**: القدرة على مُساءلة كل الأفكار، بما فيها أفكارنا.
2. **وضوح الفهم**: التأكد من أن الأفكار والمصطلحات المطروحة مُحدّدة بوضوح.
3. **تقييم المعلومات**: تقييم مصداقية المصادر ومدى صحة المعلومات.
4. **بناء حجج عقلانية**: قوة الرأي من قوة حجته، وبدونها يُفضّل تعليق الحكم.
5. **تجنب المغالطات**: كشف التحيزات والمغالطات المنطقية والافتراضات الخاطئة.
6. **الواقعية والبراغماتية**: الاعتماد على التجارب والدراسات القابلة للاختبار.
7. **الموضوعية**: تجنب الاندفاع وراء الرغبات والاعتقادات المُسبقة غير المبررة.
8. **الإبداع**: تجاوز الأفكار والحلول التقليدية مقابل البحث عن حلول جديدة ومبتكرة.
9. **التواصل الفعّال**: التعبير عن الأفكار بشكل واضح ومُنظّم ومُقنِع.
10. **الانفتاح**: الاستعداد للاستماع إلى وجهات نظر مختلفة وتعديل الرأي عند الضرورة.

وللأسف، مدارسنا تعلّم التلاميذ أن يصطادوا أخطاء النحو كما يصطاد القطّ الفئران، لكنها نادراً ما تُدرّبهم على اصطياد أخطاء المنطق، رغم أنّها تسرح وتمرح في نقاشاتنا. وبدون درع منطقيّ، يصبح المرء لقمة سائغة للخرافة أو فريسة للفكر المتشدّد. لهذا من

المهم أن تكون دراسة المغالطات المنطقية جزءا من المناهج التعليمية والبرامج الثقافية والإعلامية. بناء المواطن الصالح لا يكون فقط من خلال تلقين كمّ كبير من المعلومات، ولا يكون فقط من خلال تحسين الظروف المعيشية، لأن كل هذه الأمور غير كافية لمنع تفشّي التفكير الضيق أو المتشدد. هذا الفكر يفقد جاذبيته أمام عقول ناقدة قادرة على كشف مغالطاته. وما الذي يمكنه أن يواجه الفكر أفضل من الفكر؟

يقول المثل الصيني "لا تعطني سمكة، ولكن علمني كيف أصطاد السمك". دراسة المغالطات المنطقية من أهم الوصفات المساعدة على توفير مناعة فكرية وأمن منطقي يجعل الناس أكثر عقلانية وتواضعا... وربما أكثر وانفتاحا تسامحا.

الكثير من المعلومات: هل هذا يكفي؟

يمكن لأي أحمق أن يعرف. المهم هو الفهم!

ألبرت إينشتين

كُلَّ يومٍ ينهالُ عليك وَابِلٌ من المعلومات، بعضُها صحيح وبعضها زائف. دماغُك المسكين يلتقطها من كل صوب: من ثرثرة الأصدقاء، ومن صفحات الكُتب، ومن المقالات والمواقع الإلكترونية. وغالبا ما تكون تلك المعلومات غير بريئة كما تبدو، بل مُنقَّاة ومُنتقاة، هدفها الأخير أن تجرّك جَرّا نحو رأي صاحبها.

هُناك طريقتان للتعامل مع هذا الطوفان من المعلومات:

- **طريقة الإسفنجة** :كما تتشرّب الإسفنجة الماء، يتشرّب دماغُك المعلومات من غير مساءلة ولا اعتراض. إنَّها طريقة مُريحة تُغنيك برصيدٍ معرفيّ وفير، لكنها لا تتطلّب منكَ إلا جُهدًا يُشبه جُهدَ الكسلان المُمدَّد على سريره يتأمّل برنامجا وثائقيا وهو يُفكِّر في عشاء المساء أكثر مما يُفكِّر في مضمون الوثائقي.
- **طريقة المِصفاة** :هنا يتحوّل دماغك إلى أداة فرزٍ مُحترفة، تُصفِّي المعلومات كما تُصفِّي المِصفاةُ الماءَ من الشوائب. إنَّها طريقة مُرهقة، تتطلَّب تركيزاً وتفكيراً ناقدًا، إذ لا يكفي أن تفتح فمك كالعصفور بانتظار أن يُلقِّمك الآخرون ما شاؤوا، بل ينبغي أن تفتِّش في صِحّة المعلومة، وتختبر حججها، وتَسبر أعماقها قبل أن تمنحها مقعدًا في عقلك.



والحقّ أنَّ كِلتا الطريقتين ضروريّ، فالمصفاةُ لا تعمل في فراغ، بل تحتاج مادّةً خامًا من المعلومات تُمارس عليها فنون التصفية والغربلة، وهذه المادة الخام لا يوفّرها سوى دور الإسفنجة. وبذلك تظلّ الإسفنجة والمصفاة وجهين لعُملةٍ واحدة: عُملة العقل الذي يعرف متى يُخزِّن ومتى يُمحَص.

لِنأخذ مثالًا حيًّا من هذا النقاش في موضوع اللقاح:

- ندى" :الكثير من الدراسات أثبتت أن اللقاحات لا تنفع، بل تُلحق أضراراً جسيمة. أذكّرك بمأساة لقاح السّل سنة 1929 في ألمانيا حين مات عشرات الأطفال. ثم إننا

باستهلاك اللقاحات لا نفعل سوى مضاعفة أرباح الشركات الكبرى لصناعة الأدوية والتي تُقدَّر بمئات الملايير من الدولارات. أليس من الحكمة أن نقاطعهم؟ فهم يُخططون في مختبراتهم لصناعة فيروسات ثم يبيعوننا الترياق على شكل لقاح، ليستعبدونا وربما ليفنونا! وأزيدك: لم يستطع أحد إثبات عكس هذا الكلام"!

- سارة" : اللقاح آمن مئة بالمئة. كل الذين أعرفهم يُؤكدون ذلك، وهل يُعقل أن يُخطئوا جميعًا؟ ثم بصراحة يا ندى، أعرف أنك تعانين من كثرة الوساوس، وبالتالي فأنت آخر من يحق له الكلام عن اللقاح"!

الآن، لكي تكون موضوعيا قدر الامكان، حاول عدم الوقوع في فخ قبول المعلومات والحجج لمجرد أن الرأي يعجبك، أو رفضها لمجرد أنه لا يعجبك. حاول أن تخلع عن عينيك نظارات الانحياز لهذا الرأي أو ذاك، وانظر فقط في الحجج بغض النظر عن ميولك .

1. عبارة "الكثير من الدراسات "غامضة كسحابة صيف؛ لم تُذكر عناوينها ولا مراجعها (مغالطة المصدر المجهول).
2. ذكرت ندى حادثة تتعلق بلقاح مرض السل سنة 1929، والتي أودت بحياة عشرات الاطفال. هذا صحيح. غير أنها لم تذكر في المقابل أن اللقاحات أنقذت ملايين الأرواح من الجدري والكزاز والحصبة وشلل الأطفال؟ (انحياز تأكيدي)
3. الادّعاء بأن مقاطعة اللقاح ضرورة لأنه يُدرّ أرباحًا على الشركات، يُشبه القول: لن نشتري التفاح كي لا يغتني بائع التفاح! الأهمّ أن يكون المنتوج – دواءً أو لقاحًا – فعّالًا وآمنًا (مغالطة الشخصنة الظرفيّة).

4. عبارة "لا أحد يستطيع إثبات عكس ذلك" لا تثبت شيئا. العجز عن إثبات خطأ فكرة ما لا يعني صوابها (مغالطة الاحتكام إلى الجهل). ثم إن عبء الإثبات يقع على المصدق وليس على غير المصدق (مغالطة عبء الإثبات).
5. استشهاد سارة برأي "الكثير من الناس" لا يجعل المعلومة العلمية صادقة، فالإجماع الشعبي ليس شهادة بحث علمي (مغالطة الاحتكام إلى عامة الناس).
6. وختامًا، حين قررت سارة مهاجمة صديقتها باتهامها بالوساوس كَردٌّ على كلامها، فقد ارتكبت جريمة منطقية كاملة الأركان تُدعى مغالطة الشخصنة.

وهكذا ترى أن الحوار بين ندى وسارة لم يكن سجالًا حول اللقاح بقدر ما كان مسرحًا لمهرجان من المغالطات المنطقيّة.

أمرٌ بالغ الأهميّة: هذه المغالطات لا تعني بطلان هذا الرأي أو ذاك. كل ما تعنيه هو أن حُججَ صاحب الرأي كانت ضعيفة، وربما لو أعاد الكَرّة لصار موقفه أقوى وأرسخ.

لاحظ أنّ كل هذه التساؤلات والملاحظات لم تكن لتخطر لنا لو اكتفينا بمنهج "الإسفنجة". فالمعلومات الغزيرة لا تُساوي شيئًا إذا كانت باطلة، وأصحاب المعارف الذين يعُطون انطباعا بغزارة علمهم ليسوا دائما جديرين بالثقة. بدون "مصفاة" نقدية، ستشرب الماء بشوائبه، وبدون تفكير ناقد، سيتسرب إلى عقلك سيلٌ من الأباطيل والمغالطات.

كان أسلافُنا يفتخرون بموسوعية المعرفة، أمّا في عصر الضغطة الواحدة على محرّك البحث، فالفخر صار من نصيب من يُحسن التحليل، ويُفتّش في صحّة ما يُلقى إليه، ويُدقّق حتى لا يُخدع ببريقٍ زائف. هو ذاك العاقل الذي لا يكتفي بملء الذاكرة، بل يجرؤ على مساءلة المعلومة، يَفكّكها، ثم يُعيد تركيبها ليُخرج رأيًا يستند إلى حججٍ عقلانيةٍ متينة.

وإذا كانت البراهين في الرياضيات تأتي بمستوى عال من الصرامة والوضوح، فإن الحُجج المتعلقة بالآراء الشخصية ألَين وأقلّ يقينًا .لهذا يصعب في الكثير من الأحيان تحديد الصواب من الخطأ.. والأبيض من الأسود. وبدلا من ذلك، يتم الحديث عن رأي جيد أو سيئ، حجة قوية أو ضعيفة.

أحيانًا، وفي غياب اليقين، سيتوجّب عليك اتخاذ بعض القرارات. قد لا تظفر بالصواب المُطلق في القضايا الخلافية، لكن امتلاك أدوات التفكير النقدي يتيح لك أن تخرج بقرار جيّد "بما يكفي"، ريثما تكتمل الصورة. فالشكّ والتساؤل هما الشرارة الأولى... محطّة الانطلاق، واليقين هو محطّة الوصول، وبينهما رحلة شاقّة من البحث والتنقيب.

رحلة المعرفة تُشبه دخول كهفٍ مظلم. كلما تقدّمت خطوة حاملاً مصباحك، تكشّفت لك معالم جديدة. هي مغامرة يختلط فيها الظلام بالنور، واليقين بالشكّ .ومع تقدم النور، يبدأ الظلام في التراجع، فتتضح الأمور أكثر.



ما المطلُوب في الكلام كي يكون ادِّعَاءً؟

التربية الحقيقية هي التي تدفع الناس لكي يفكروا بأنفسهم.

نعوم تشومسكي

هل كل ما يخرج من فمك من العبارات هو إمّا صحيح أو خاطئ؟

لو أمعنتَ النظر، لاكتشفت أنَّ معظم كلامنا البشري اليومي هو مزيج من أوامر ونواه، وأسئلة وتعجبات، وأماني وآهات، ومجازات وغموضات، لا سبيل لحصرها. فكيف لمثل هذا الخليط أن يخضع لمسطرة المنطق وقانونه الصارم؟

لكي يكون بمقدور الآخرين الحكم على رأيك إن كان صائبًا أو زائفًا، عليك أن تُقدّمه في هيئة ادِّعاء.

ما هو الادّعاء؟ إنّه باختصار كلام يلتزم بثلاثة شروط:

1. أن يأتي في صيغة جملة تأكيدية.
2. أن يكون واضح المعنى، فلا يترك القارئ تائهًا في متاهات الغموض.
3. أن يحتمل الصواب أوالخطأ.

حسب هذا التعريف، تخرج الأسئلة والأوامر والأماني من دائرة الادّعاءات.

لاحظ أنه ليس مطلوبا أن نعرف إن كان الادعاء صحيحا بالفعل أوْ لا، يكفي أن يكون من الناحية النظرية قابلًا لأن يُصنَّف في خانة الصواب أو الخطأ. فلو قال لك أحدهم بثقة

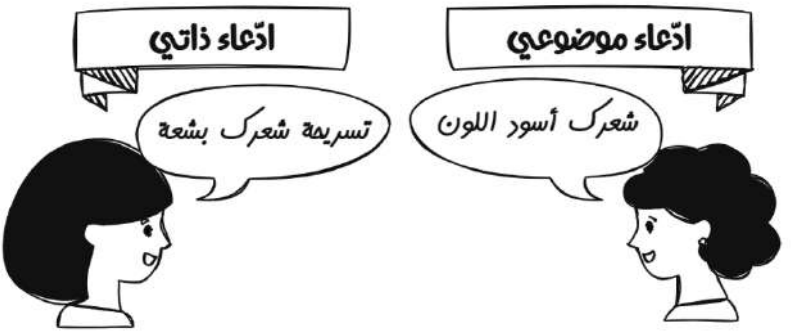
عجيبة إنَّ عدد شعرات رأسك عدد زوجي، فهذا قول يظلّ ادِّعاءَ، حتى وإن وقف عُلماء الدنيا عاجزين عن إثباته أو نفيه.

ادِّعاء	ليس ادِّعاء
الأرض مسطحة أو غير مسطحة (ادِّعاء صحيح منطقيا. لا توجد إمكانية ثالثة)	هل الأشباح موجودة؟ (الأسئلة ليست ادعاءات)
جميع الطيور تطير (ادعاء خاطئ. طائر البطريق لا يطير)	اِعتذِر لِمَن أسأتَ إليه! (الأوامر ليست ادعاءات)
الخفافيش تعرف أنها ستموت (ادِّعاء حتى وإن كنا نجهل إن كان صحيحا أو خاطئا)	لَيتَنِي كنتُ دارسا للتفكير النقدي. (الأماني ليست ادعاءات)
يجب السماح للأمهات بالحق في الإجهاض (يبقى ادعاء بغض النظر عن اتفاقنا أو اختلافنا معه)	الناس أنانيون. (عبارة غامضة. هل المقصود كل الناس أو بعضهم؟ ينبغي رفع اللبس لتصبح العبارة ادعاء)

الادّعاءات الذّاتية والموضوعيّة

من البديهي أنّك لا تُريد أن تحبسَ كلّ آرائك في صدرك كما تُحبَس الطيور في أقفاصها، بل تميل عادةً إلى تصديرها للآخرين وإقناعهم بها. وهذا أمر مشروع، ما دُمت لا تُلوّح بها كعصا فوق رؤوسهم. الادّعاءات التي تُشارك بها الآخرين إمّا أن تكون ذاتيّة أو موضوعيّة[5]. فلو صرحتَ لصديقك بأنّك غارق في الحبّ حتى أذنيك، فهذا ادّعاء ذاتي، إذْ إنّ صدقه مرهون فقط بما تشعر به أو تعتقده أنت. لكن لو قلت له إنّ الحب موجود، أو إنّ بعض الناس يقعون فيه بين الفينة والأخرى، فقد انتقلتَ إلى خانة الادّعاء الموضوعي.

الخلط بين الادعاءات الموضوعية والادعاءات الذاتية قد يفضي إلى خلافات لا مبرّر لها. فعندما يُبدي أحدهم رأيه في هندامك فيراه قبيحًا، أو يصف أغنيةً بأنها جميلة، أو يعتبر مادة الرياضيات صعبةً جدًّا، فإنّ هذه الأحكام كلّها أقوال ذاتية تنبع من الذوق والميول الشخصية، ولا يصحّ لك التعامل معها بمنطق الصواب والخطأ، لأنها لا تُمثل حقيقةً عن العالم، بل تعبّر عن إحساسٍ فرديّ لا غير.



[5] Subjective claims, objective claims.

الادّعاءات الوصفيّة والإرشاديّة

لِننظر في هذا الحوار:

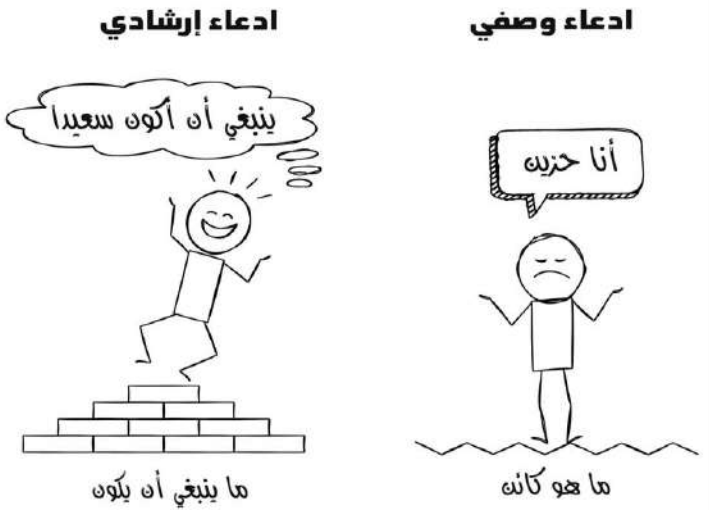
- فارس : أرى أنّ على الدولة أن تُحارب الفساد والتهرّب الضريبي عند بعض كبار الأثرياء ورجال السلطة.
- وليد :كلامك هراء يا صديقي! الواقع يُثبت أنّ السلطة والمال هما السّيد الحقيقي في هذا العالم.

في الظاهر يبدو ردّ وليد مُفحِما وقويا كالقذيفة القاصمة، لكن عند الفحص يتبيّن أنّها طلقة فارغة. كيف ذلك؟ لأنّ فارس قدّم ادّعاءَ إرشاديّا عن "ما ينبغي أن يكون"، بينما ردّ عليه وليد بادّعاء وصفيّ عمّا "هو كائن". إنّهما خطّان لا يلتقيان، ولا يتصادمان.

حين نقول إنّ العالم محكوم بالمال والسّلطة فهذا ادّعاء وصفي[6]، يصف واقعًا أو يتنبّأ بمستقبل، وقد يكون صائبًا أو خاطئًا. أما حين نقول إنّ على الدولة أن تواجه فساد بعض أصحاب المال والنفوذ، فهذا ادّعاء إرشادي[7]، يتعلّق بما ينبغي فعله... بما هو جيد أو سيء... ما نصفه عادة بالخير و الشرّ. هذا النوع من الادّعاءات يكثر في مجال الأخلاق والسياسة والاقتصاد والعلوم الإنسانيّة عموما .

الخلط بين الادعاءات الوصفية والإرشادية كثيرا ما يكون سببا في جدالات عقيمة، عُقم سببه "الخلط بين "ما هو كائن" و"ما ينبغي أن يكون.

[6] Descriptive claim
[7] Prescriptive claim



ادعاءات وصفية	ادعاءات إرشادية
كثير من الأطفال يجدون أنفسهم مشردين في الشارع.	من اللازم توفير ملاجىء لإيواء الأطفال المشردين.
تعلم الموسيقى يساعد الأطفال في مادة الرياضيات.	لا بد من إدراج الموسيقى في المناهج الدراسية.
الكثير من الفتيات يتم تزويجهن في سن مبكرة.	ينبغي تجريم زواج القاصرات.

الآن، تأمّل هذه العبارات واحدةً واحدة. في رأيك، هل تُعَدّ ادّعاءات؟ وإن كانت كذلك، فهل هي وصفيّة تُخبر بما هو كائن، أم إرشاديّة تُشير إلى ما ينبغي أن يكون؟

- لماذا تبسيط الأمور مادام من الممكن تعقيدها؟
- كل شيء ممتع في الحياة هو إما غير قانوني أو غير أخلاقي أو يسبب السمنة.
- لكل جواب سؤال.
- ابتسم.. فالغد أسوأ!
- لا ينبغي السماح لكبار الأثرياء بخوض الانتخابات السياسية.
- مهما كان عدد الأدلة التي تثبت سخافة فكرة ما، ستجد على الأقل شخصا واحدا في العالم مستعدا لقبول تلك الفكرة!
- دائما يسقط الخبز على الجانب الذي دهنته بالزبدة.
- حاول أن تتعلم شيئا ما عن كل شيء.. وكل شيء عن شيء ما!

احذر من الغموض!



من أهمّ شروط الادّعاء أن يكون واضح المعنى، فالجُمل الغامضة الضبابية لا يُمكن الحكم عليها صوابًا أو خطأ، وبالتالي لا يحقّ لها أن تُمنح بطاقة "ادّعاء" أصلًا.

لنختبر مثلا هذا الإعلان التجاري: "هذا المنتوج طبيعي وستُحسّ معه بالاختلاف." جميل! ولكن ما معنى "طبيعي"؟ أليس لفظًا مطّاطًا يمكن أن يُغطّي ما يشاء المُسوّق؟ ثم عن أيّ اختلاف يتحدّث؟ لعلّه اختلاف إلى الأسوأ، أو مجرّد فرق طفيف لا يستحقّ كُلفة المنتوج.

الغموض سلعة رابحة، سواء في إعلانات الصابون، أو خُطب الساسة، أو نبوءات العرّافين.

في الواقع، جلّ ما تقوله يكون غامضا إلى حد ما: "وقت متأخّر"، "قلق زائد"، "حياة سعيدة"، "نقد جارح"، "كلام فاحش"، "لباس محتشم"... تعبيرات يختلف معناها باختلاف

آذان السامعين، لتُنتج خلافات زائفة وصراعات كلامية مجانية. لذا ينبغي دوماً أن نتأكّد أنّ الكلمات والأفكار المطروحة للنقاش واضحة بما يكفي.

والحقيقة أنّ كثيراً من الألفاظ التي نظنّها بيّنة، هي في العمق غامضة. وأمام هذا الغموض، أقصى ما يمكن أن تفترضه كتأويل لا يتجاوز سقف التخمينات. لهذا، فالأجدر في هذه الحالة التخلي عن الاعتقاد بقدرتك على قراءة أفكار الآخر. ينبغي التعوّد على طرح السؤال "ما الذي تعنيه؟" بدلا من الادعاء المتكرر "أعرف جيدا ما تعنيه".

هذه بعض أهم أسباب الغموض اللغوي:

- **الاشتراك (Equivocation):** اللغة كائن معقد... وحش متعدّد الرؤوس، فالكلمة الواحدة تحمل أكثر من معنى. فإذا شكت امرأة زوجها قائلة أمام القاضي: "إنّه ليس برجل"، فهل تقصد نقصًا في رجولته البيولوجية أم في شهامته الأخلاقية؟
- **التشابه (Amphiboly):** حتى وإن كانت الكلمات واضحة، فإنّ تركيبها قد يُنتج غموضًا. حين يقول أحدهم: "أنا ضدّ الزواج الذي يأتي بالأطفال"، فهل يقصد رفض الزواج كلّه، أم فقط رفض الزواج الذي يأتي بالأطفال؟
- **التجريد :** كلّما ارتفعت الكلمة إلى سماء التجريد، زاد غموضها. عبارة "الحق في الشغل" مثلًا: هل تعني أنّ الدولة مُلزمة بتوفير العمل لكلّ مواطن؟ أم أنّها تَعِد فقط بعدم عرقلة من يريد العمل؟ الأمر نفسه مع شعارات من قبيل "المساواة" أو "العدالة الاجتماعية" أو "زعزعة النظام العام". في النصوص القانونية، يُحوّل التجريد القوانين إلى مطاط يمكن شده في أكثر من اتجاه. خذ مثلًا عبارة: "يجب تجريم كل ما من شأنه التحريض على المسّ بالنظام العام"... عبارة تصلح لأن تكون شبكة صيد تُمسك بكل شيء.

- **غياب الدقّة العددية** :حين ينصحك الطبيب ألّا تُكثر من اللحوم، فكم بالضبط يقصد؟ 100 غرام أسبوعيًا؟ 500؟ كيلو كامل؟ الأمر نفسه مع "كمية معقولة من الماء" أو "التقليل من الهاتف". ألفاظ مثل "الإكثار" و"التقليل" و"الاعتدال" تظلّ مُعلّقة في الهواء ما لم تُقيّد بأرقام، ولو على سبيل التقريب.

الآن، انظر إلى العبارات التالية. أيّها في رأيك تتضمّن غموضا؟ وما هو سبب الغموض؟

- لا ينبغي أن تُكثر من تناول القهوة.
- المجرمون الذين يعتدون على الأطفال هم لاإنسانيون، وبالتالي لا يمكن أن يكونوا بشرا.
- لا يُدرك جوهر العلم إلا العلماء والذين يتابعون الأخبار العلمية تكون لديهم ثقافة علمية رصينة.
- يجب أن يكون جميع موظفي الشركة على قدم المساواة.

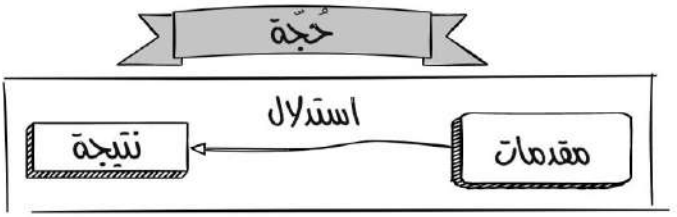
كيف تبني حُجَّة؟



الأمر الأهمّ في التفكير العقلاني ليس أن تُمسك برأي وتلوّح به، بل أن تقدر على الدفاع عنه بحُجّة متينة .

ما المقصود بالحجة؟

لِنُسلِّم بدايةً بأنّ الانطلاق من الفراغ لا يوصل إلا إلى فراغ. لا بدّ إذن من قبول بعض الأمور لإثبات أخرى. تلك التي نقبلها تُسمّى مقدّمات[8]، وما نسعى إلى إثباته يُدعى نتيجة[9]. تتشكّل الحُجّة إذن من مقدّمات ونتيجة، وما بينهما هو الاستدلال[10]. فإذا كانت المقدّمات صحيحة، والاستدلال سليمًا، وصلت النتيجة إلى برّ الأمان وصارت صحيحة.



[8] تحمل المقدمات Premises تسميات أخرى: افتراضات، مبررات، فرضيات.

[9] Conclusion

[10] Inference

إشكالية إثبات المقدمات

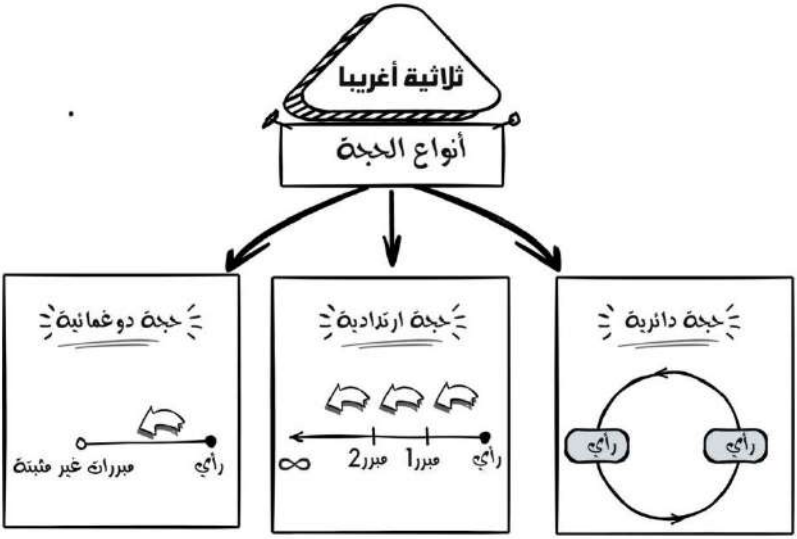
لكن لحظة! إذا كانت كل حُجّة تحتاج إلى مقدّمات، فكيف نُثبت أنّ هذه المقدّمات نفسها صحيحة؟ هل سنحتاج إلى مقدّمات أخرى، ثم أخرى بعدها، فنظلّ في دوّامة لا نهاية لها؟ هذه المعضلة قديمة. الفيلسوف "أغريبا"[11] في القرن الأوّل الميلادي لَخّصها في ما عُرف لاحقًا بـ"ثُلاثية أغريبا"[12]، التي تُعلن استحالة اكتمال أي حُجّة.

خذ أي رأي. إما أنك ستدعمه بمبررات (مقدمات)، أو لن تدعمه. إذا لم تُقدم أي تبرير، فهذا يعني أن الرأي يستند إلى ذاته (حجة دائرية). أما إذا قدمت له بعض المبررات، فهناك حالتان: إما أن تسعى لإثبات هذه المبررات من خلال مبررات جديدة، وهذه الأخيرة تُثبتها أيضا بمبررات أخرى، وهكذا إلى مالانهاية (حجة ارتدادية)، أو ستتوقف عند إحدى المبررات وتقبلها كمسلمات (حجة دوغمائية).

في النهاية، وحسب "ثُلاثية أغريبا"، كل حجة هي واحدة من ثلاث:

1. حجة دائرية[13] : حيث يتم من البداية افتراض صحة الرأي الذي ينبغي إثباته.
2. حجة ارتدادية[14]: حيث المبرر الداعم للرأي يحتاج إلى مبرر ثان، والمبرر الثاني يحتاج إلى ثالث، وهكذا إلى ما لا نهاية.
3. حجة دوغمائية[15]: حيث يتم التسليم بمبررات (مقدمات) غير مثبتة.

[11] Agrippa
[12] Agrippa's trilemma
[13] Circular argument
[14] Regressive argument
[15] Dogmatic argument



هي خيارات أحلاها مر ... طرق ثلاثة لا يُبهجك أيّها. الأولى مغالطة، والثانية متاهة، والثالثة أهون الشرور، إذ تُتيح على الأقلّ أن ننطلق من بعض المسلَّمات لنُشيّد ما فوقها. وهذا في الواقع ما نعتمده في حياتنا اليوميّة وفي المجالات العلمية.

عندما نقول إنّ المقدّمات صحيحة، فنحن في الغالب نعني أنّها مقبولة، أي أنّنا نقبلها نحن ويقبلها من نُخاطبهم. لهذا، فالحديث عن "مقدمات صحيحة" إنما يُقصد به عموما "مقدمات مقبولة."

في الرياضيات تُبنى كل نظرية على مجموعة من المُسَلَّمات. في علوم الطبيعة، على نتائج التجربة والملاحظة وبعض الفرضيّات. وفي الآراء الشخصيّة، على خليط من معلومات واعتقادات نعتبرها مقبولة.

لا مفرّ إذن من أن نقبل بعض الأمور لإثبات أخرى، وهذا ما يمنح المعرفة الإنسانيّة طابعها النسبي.

الشكل الصُّورِي للحجة

الآن، كيف نُميّز بين المقدّمات والنتيجة في الحُجّة؟ هذه مهارة تستحقّ التعلّم، لأنّها ليست دومًا بالسهولة التي نتمناها. فلنأخذ المثال التالي:

"أمر لا يُصدَّق ! إنّها بالتأكيد مركبات فضائية لكائنات من عوالم أخرى،
لأنّ الضوء الذي رأيته في السماء لا يمكن تفسيره".

لنحاول استخراج المقدمات والنتيجة. المتحدّث أراد أن يُثبت أنّ الضوء الذي رآه في السماء هو لمركبات تقودها كائنات فضائية. وعلى أي أساس؟ على أساس أنّه رأى ضوءًا غامضًا ولم يجد له تفسيرًا!

إذا جرّدنا هذه الحُجّة من الزينة البلاغيّة والانفعالات، يمكن صياغتها هكذا:

المقدّمات

رأيتُ ضوءًا في السماء.

لا أستطيع تفسير ماهيّة هذا الضوء.

النتيجة

إذن هذا الضوء هو لمركبات فضائية.

هذه الصيغة تُسمّى "الشكل الصوري"[16] للحُجّة. في حياتنا اليوميّة، نادرًا ما تأتي الحجج بهذا النقاء؛ فهي تكون عادةً مُمزوجة ببهارات الانفعال والتحيّز ومُغَلَّفة بأطنان من الحشو

[16] Standard form

اللغوي، فيضيع جوهرها وسط الضجيج. مهمّة تنقية الحُجّة من هذه الشوائب تُشبه أخذ صورة بالأشعة السينيّة لكشف الهيكل العظمي.

ليس من السهل دائمًا تحديد المقدمات والنتيجة، فالنتيجة مثلا قد تأتي في نهاية الحُجّة، أو تتسلّل في البداية، أو تختبئ في الوسط. ومع ذلك، توجد بعض الإشارات اللفظيّة التي تدل على النتيجة، وأخرى تدل على المقدمات.

تعابير تدل على المقدمات	تعابير تدل على النتيجة
بما أنه - بسبب - لأن - نظرا لأن - مادام - يرجع ذلك إلى - إذا افترضنا أن	إذن - بالتالي - لذا - لذلك - بناءا عليه - نستنتج أن - يترتب على ذلك - نتيجة لذلك

لتمرين خلايا دماغك على هذه المهارة، حاول أن تستخرج الشكل الصوري (مقدمات ونتيجة) للحجج التالية:

- لا يجوز أن يحاسبني أحد على شيء لم أقم به. لم أقم بواجباتي الدراسية، وبالتالي أنا لم أخطئ في شيء!
- هذا سعر باهظ جدا لإصلاح سيارتي. مادامت قطع الغيار التي ستحتاجها رخيصة وطريقة التركيب سهلة، لماذا كل هذا الغلاء؟
- لا أ نصحك بالقيام بهذه العملية الجراحية، فما يَهُم المستشفيات هو المال وليس صحة البشر.
- لكل إنسان الحق في اتخاذ القرارات الكبرى في حياته. ومادام إنهاء الحياة قرارا كبيرا، فإن لكل شخص الحق في إنهاء حياته.

ما الفرق بين الرأي والحُجة؟

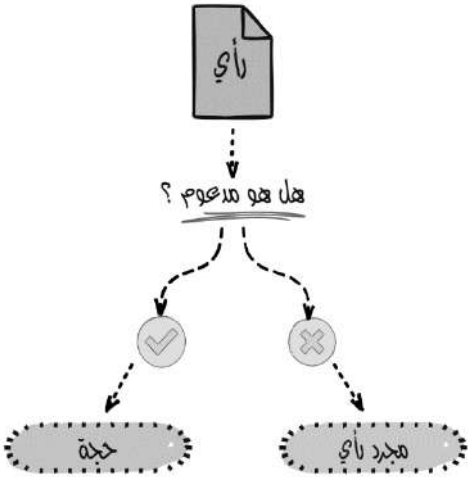
الحكيم هو من يُفَصّلُ اعتقاده على مَقاس البيّنة.

(دِيفِيد هْيُوم)

- لينا: ما الذي يجعلكِ تظنّين أن الأبراج تتحكّم في مصائر البشر؟
- سارة: سأوضّح لكِ. الأبراج تُحدّد شخصيّتك وميولك، وتُرشدك في اختيار مهنتك وشريك حياتك.
- لينا: وما الدليل على ذلك؟
- سارة: من حقي أن أعتقد ما أشاء. هذا رأيي، وكل إنسان حرّ في رأيه.

ما رأيك في هذا الحوار القصير؟ سارة أعلنت منذ البداية أنها ستكشف أسباب اعتقادها، لكنّها لم تُقدّم سوى نسخة من نفس الاعتقاد مع إضافة بعض البهارات. هل من حقها أن تؤمن بما تشاء؟ طبعًا، لا أحد يُصادر حرّيتها. لكن السؤال المطروح لم يكن عن "حرية الاعتقاد" بل عن الدليل الذي يسند هذا الاعتقاد.

كثير من الناس يخلطون بين الرأي والحُجّة. فإذا سألتهم عن سببٍ لتصديق رأيهم، وبدلا من تقديم مبررات تدعمه، تجدهم يكتَفُون بتكرار الرأي، وكأنّ التكرار وحده يُحوّله إلى برهان. لكن المفكّر الناقد يسأل: هل الرأي مدعوم أم لا؟ فالرأي المدعوم يستحق لقب "حُجّة"، أمّا غير المدعوم فيبقى مجرد رأي.

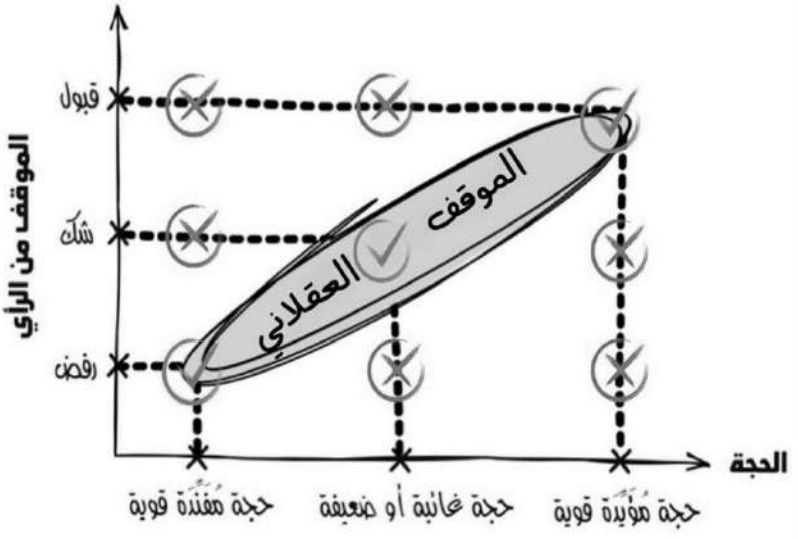


والحقيقة أنّ الآراء ليست سواء. الرأي الذي بلا سند لا يساوي في ميزان العقل رأيًا آخر مدعومًا ببراهين. الأوّل يمكن التعرف عليه من باب الفضول، ولكن الأمور تقف عند هذا الحد . لهذا، ينبغي أن يكون فضولك أقل تجاه الآراء، وأقوى تجاه الحُجج التي بُنيت عليها تلك الآراء.

"العقول الكبيرة تناقش الأفكار، العقول المتوسطة تناقش الأحداث، العقول الصغيرة تناقش الأشخاص." هذه من المقولات الشهيرة المنسوبة لإيلينور روزفلت، زوجة الرئيس الأمريكى السابق فرانكلين روزفلت. ويمكن القول أيضا إن بين العقول التي تناقش الآراء، تبقى أجدرها بالاهتمام هي تلك التي تغوص في الأعماق لتناقش الحجج الداعمة لتلك الآراء.

الحجة إذن هي الخيط الأساسي الذي يفصل بين الاعتقاد[17] والمعرفة[18]. الاعتقاد ذاتي، والمعرفة موضوعية. ولكي يرتفع الاعتقاد الذاتي إلى مرتبة المعرفة الموضوعية، يلزمه أن يكون مدعوما بِحُجة. ليست أية حُجة، ينبغي أن تكون حُجة قوية. اليقين درجات. والمفروض أن يتناسب مستوى التصديق مع قُوة الحُجّة. يُوضح هذا المبيان العلاقة بين الموقف من الرأي ومدى قوة الحجة.

[17] Belief
[18] Knowledge



لاحظ وجود سِتّ مواقف لاعقلانية، اثنان منها شائعان جدّاً. الأول هو قبول الرأي رغم غياب الحُجة أو ضُعفها، والثاني رفْض الرأي رغم وجود حجة قوية مُؤيدة.

الموقف العقلاني يقضي بقبول الرأي إذا توفَّرت حُجّة قوية تؤيده، ورفضه إذا توفرت حجة قوية تُفَنِّدُه. أما في حالة العجز عن التوصل إلى حجة قوية، لا من جهة التأييد ولا من جهة التفنيد، فالعقلانية تقتضي تعليق الحكم والاستمرار في الشك والبحث .هذا الخيار لا يكون عادة مُريحا للنفس، ولكنه يظل الوقاية المُثلى من السقوط في أحضان الوهم.

درجات اليقين: الاستنباط والاستقراء



في كلّ مرّة تُقدّم حُجّة لتُثبت نتيجة، ستجد نفسك مُجبراً على التسليم بصحّة بعض المقدّمات. لكن هل القبول بالمقدّمات يضمن تلقائيّاً صِحّة النتيجة؟ الجواب يتوقّف على نوع الحُجّة: هل هي استنباطيّة[19] أو استقرائيّة[20]؟ في الحجة الاستنباطية، إذا كانت المقدمات صحيحة فإن النتيجة هي بالضرورة صحيحة. أما في الحجة الاستقرائية، فإن

[19] Deductive arguments

[20] Inductive arguments

بعض المراجع تضم نوعا ثالثا من الحجج يعرف باسم الاستبقاء Abduction أو «الاستدلال بأحسن تعليل" Inference to the best explanation. تقوم الحجة الاستبقائية بتجميع المعلومات المتاحة من أجل تقديم التفسير أو الحل الأكثر احتمالا لظاهرة ما.

المقدمات الصحيحة لا تضمن صحة النتيجة. النتيجة تبقى مُحتملة، ولكننا لا نعرف بالتأكيد إن كانت صحيحة أو خاطئة. الحجة الاستقرائية القوية هي تلك التي يكون احتمال صواب نتيجتها قويا.[21]

إذا أخبرتك مثلا أنّ كلّ أهل بلدتي طيّبون، ثم قدّمت لك صديقًا باعتباره واحدًا منهم، ستستنتج أنّه طيّب. هذا الاستدلال صحيح ولا غبار عليه، مادام يعتمد حجة صورية صحيحة:

كل ما هو في المجموعة "أ" ينتمي للمجموعة "ب".

"س" ينتمي للمجموعة "أ".

وبالتالي "س" ينتمي للمجموعة "ب".

لكن لو قلت لك إنّ معظم أهل بلدتي طيّبون، ثم قدّمت لك نفس الصديق، فاستنتاجك أنّه طيّب سيكون مغالطة. ومع ذلك يمكنك القول إنّ الاحتمال كبير أن يكون طيّبًا، وهنا دخلنا أرض الاستقراء.

الخلاصة: في الاستنباط، النتيجة يقينيّة ما دامت المقدّمات صحيحة. وفي الاستقراء، النتيجة محتملة فقط.

[21] يوجد مفهوم شائع مفاده أن الاستنباط هو انتقال من حكم كلي إلى حكم جزئي (من العام إلى الخاص)، وأن الاستقراء هو انتقال من حكم جزئي إلى حكم كلي (من الخاص الى العام). هذا المفهوم محدود، فهو يشير الى حالة خاصة من الاستقراء.

حجج استنباطية	حجج استقرائية
كل الناس معرضون للخطأ. أنت واحد من الناس. إذن أنت معرض للخطأ.	التجربة التي أجريتها على هذه القطعة من الحديد أثبتت أنها تتمدد بالحرارة. النتيجة إذن هي أن الحديد إجمالا يتمدد بالحرارة.
حين تمطر السماء تكون الشوارع مبتلة. السماء تمطر الآن، وبالتالي فالشوارع مبتلة.	حين تمطر السماء تكون الشوارع مبتلة. ما دامت الشوارع مبتلة الآن، فالسماء تمطر.
الطيور أصلها من الزواحف، والزواحف أصلها من الاسماك. وبالتالي فالطيور أصلها من الأسماك.	كل يوم، كنتُ أرى الشمس تشرق في الصباح. وبالتالي، لا بد أن تشرق صباح الغد.
من الخطأ قتل كائن بشري بريء. وبما أن الجنين هو كائن بشري بريء، إذن من الخطأ قتل الجنين البشري.	التكوين البيولوجي للإنسان شبيه بالفئران. وما دام هذا الدواء أثبت فعاليته لدى الفئران، سيكون فعالا أيضا لدى البشر.

معظم تفكيرنا اليومي، بل والعلمي أيضًا، استقرائي أكثر منه استنباطي. البيئة المثاليّة للاستنباط هي الرياضيات، حيث الاستدلالات صارمة ولا علاقة لها بتجارب الحسّ. أمّا في حياتنا العادية، فالاستقراء هو السيّد: ما نطلبه ليس يقينًا مطلقًا، بل رفع الاحتمال لمستوى نعتبره كافيا، بحيث نحصل على حجة استقرائية قوية.

حجة استقرائية	قوية	خلال العشر سنوات الأخيرة، كان إعصار واحد على الأقل يضرب المنطقة كل سنة. من المحتمل جدا أن يضرب الإعصار نفس المنطقة هذه السنة.
	ضعيفة	البارحة فزتُ في لعبة اليانصيب. لهذا لدي حظ كبير أن أربح مرة أخرى اليوم.

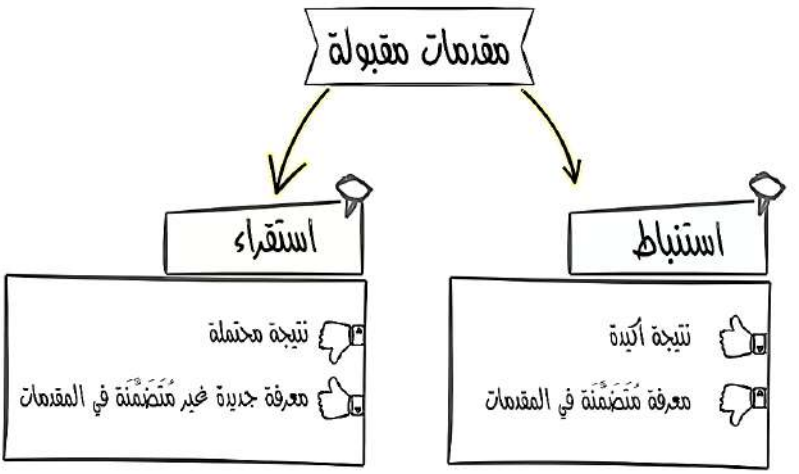
في كتابه الأورجانون الجديد"، انتقد الفيلسوف الإنجليزي "فرانسيس بيكون"[22] منطق أرسطو القائم على الاستنباط باعتباره عقيما. خذ مثلًا الاستدلال الشهير: "كلّ إنسان فان، سقراط إنسان، إذن سقراط فان." هنا النتيجة "سقراط فان" متضمّنة أصلًا في المقدّمة "كلّ إنسان فان"، فلا جديد تحت الشمس! بينما الاستقراء يمنحنا معرفة جديدة عبر ما يُسمّى "القفزة الاستقرائيّة."

[22] Francis Bacon (1626-1561)

هذا الأمر جعل الفيلسوف "جون ستيوارت ميل"[23] يذهب إلى أن الاستنباط ما هو إلا شكل من التفكير الدائري. أكثر من هذا، كيف لنا أن نتأكد من صحة المقدمة "كل إنسان فان"؟ أليس هذا ادعاءَ عاما يتطلب إثباته حجة استقرائية؟

باختصار، الحجة الاستنباطية وإن كانت تَضْمَن صحة النتيجة، إلا أنها لا تصل بنا إلى معرفة جديدة غير مُتَضَمّنَة في المقدمات. بينما الحجة الاستقرائية، وإن كانت تصل بنا إلى معرفة جديدة، إلا أنها معرفة غير مضمونة الصحة.

يبدو كما لو أن الحُجة المثالية كائن أسطوري لم يُعثر عليه بعد!



23 John Stuart Mill (1873-1806): A system of logic

الآن، انظر إلى الحجج التالية. في رأيك، أيّها استنباطي وأيّها استقرائي؟

- طوال خمس سنوات، ظل فريقي المُفضَّل يفوز باللقب. أعتقد أنه سيفوز هذه السنة أيضا.
- إما أن تقبل رأيي، أو ترفضه، أو تشُكّ فيه. أنت لم تَقبله ولم ترفُضه. إذن فأنت تشُكّ فيه.
- بما أن قتل أي كائن حي، لغير الضرورة، هو أمر سيئ. وبما أن قتل الحيوان من أجل أكله ليس أمرا ضروريا، إذن قتل الحيوان من أجل الأكل هو أمر سيئ.
- أغلب الإيطاليين يُتقِنون طبخ المعكرونة. صديقي هو من إيطاليا. لا بد أنه يتقن طبخ المعكرونة.
- عثرت الشرطة العلمية على المسدس الذي استُخدِم في الجريمة، وكانت عليه بصمات زوجة القتيل. وبالتالي فزوجته هي القاتلة.

ما هي الحجة القويّة؟



لا يكفي أن يكون لديك رأي، ينبغي أن تَدعَمَهُ بِحُجة. لا يكفي أن تكون لديك حجة، ينبغي أن تكون الحجة قوية. فكيف تعرف إن كانت حجّتك قوية أم مُجرّد قشّة يتشبّث بها غريق؟

منطقًا، لإثبات صِحَّة رأيك (النتيجة)، يكفي أن تكون المقدّمات مقبولة وأن يكون الاستدلال سليمًا. لكن هنا يظهر الإشكال: في الحجج الاستقرائية، حتى لو كانت المقدّمات ممتازة والاستدلال محكمًا، تظلّ النتيجة محتملة لا يقينيّة. لهذا، بدل أن نصف الحُجّة الاستقرائيّة بالصواب أو الخطأ، نصفها بالقوّة أو الضّعف.

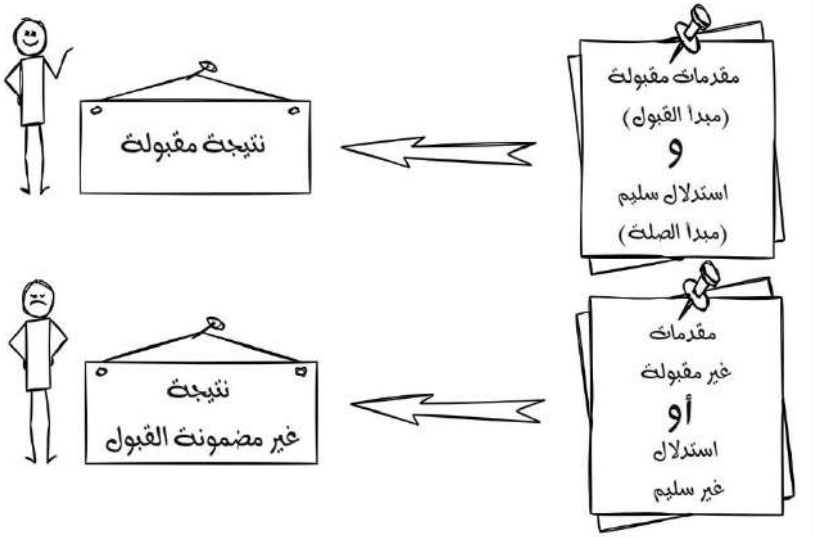
الحُجّة الجيّدة إذن ينبغي أن تُحقّق شرطين أساسيّين:

- ✓ مبدأ القبول[24]: أي التأكد من أن المقدمات مقبولة.

[24] The acceptability principle

✓ مبدأ الصلة[25]: أي التأكد من أن قبول المقدمات سيجعل احتمال تحقق النتيجة أكيدا (حجة استنباطية) أو على الأقل قويا (حجة استقرائية).

فإذا تعثّر أحد هذين الشرطين، سقطت الحُجّة: إمّا لأنّ إحدى المقدّمات غير مقبولة، أو لأنّ الرابط بين المقدّمات والنتيجة هشٌّ كالخيط الرقيق[26].



وهنا، لابد من الإشارة لنقطة مهمة، لا ينبغي الخلط بين فساد الاستدلال وفساد النتيجة. بعبارة أخرى، وجود خطأ في الاستدلال لا يعني أن النتيجة خاطئة، فربما نجد

[25] The relevance principle

[26] يُستخدم أحيانا تعبير "الحجة الاستنباطية الخاطئة" Invalid deductive argument للدلالة على الحجة التي لم تحترم إحدى القواعد الصحيحة للاستنباط. هذا التعبير يثير لُبسا، مادام تعريف "الحجة الاستنباطية" يفترض أن استدلالها سليم لا غبار عليه. لهذا، يُفضِّل الكاتب تعبير "الحجة الخاطئة استنباطيا".

لهذه النتيجة استدلالا آخر صحيحا. لهذا، يتم التمييز في المنطق بين سلامة الاستدلال *Validity* وصحة النتيجة *Truth*. الاستدلال يكون سليما إذا كان الانتقال من المقدمات إلى النتيجة سليما منطقيا. ولكن إذا كانت إحدى المقدمات خاطئة، فقد نصل إلى نتيجة خاطئة حتى وإن كان الاستدلال سليما.

لكن كيف نتحقّق من كون المقدّمات صحيحة أو مقبولة؟

هنا لا توجد وصفة سحريّة، بل بعض الملاحظات العمليّة:

- بينما الآراء تكون عموما مَحَلَّ جدل، تبقى الوقائع من أقوى المقدمات، خصوصا إذا كان عليها إجماع.
- إذا استعنتَ بمصدر أو خبير، فتأكّد أنّ المصدر موثوق، وأن الخبير صاحب معرفة قوية في الموضوع المطروح.
- لا يكفي أن تكون المقدمات مقبولة بالنسبة لك، بل أيضا للأشخاص الذين تُشارك معهم رأيك. تحديد أرضية مشتركة للنقاش أمر مهم. إذا كان الحوار مثلا يجمع أشخاصا مسيحيين، فكل قضايا الإيمان المسيحي التي تجمعهم ستكون مقبولة. إذا تغير السياق، وجمع الحوار مسيحيين ومسلمين مثلا، فإن القضايا المقبولة من الطرفين ستكون مختلفة بشكل كبير. في هذه الحالة، يجب تجنب الاحتكام إلى نصوص أو اعتقادات لا تحظى بقبول الطرف الآخر.

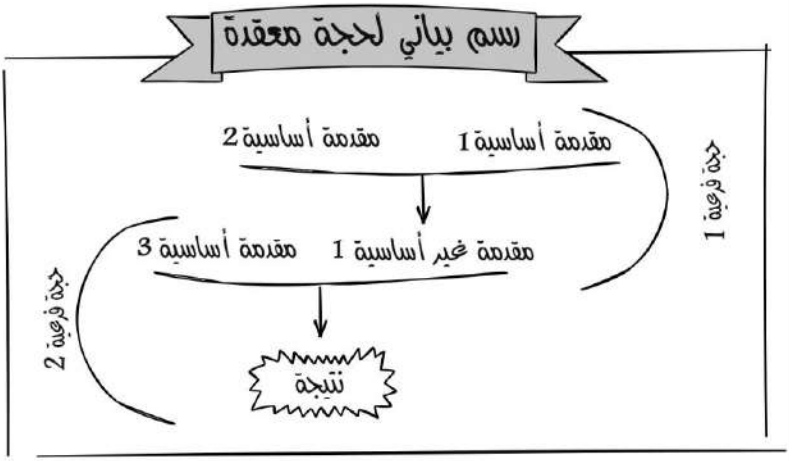
باختصار، قوّة الحجّة لا تُقاس بعلوّ الصوت ولا بزخارف القول، بل بمدى قبول مقدّماتها (مبدأ القبول) وصلابة الصِّلة بينها وبين النتيجة (مبدأ الصلة). وما أكثر الحجج التي تنهار عند أوّل اختبار، لأنّها بُنيت إمّا على رمال من المقدمات الهشة أو على جسور استدلالية متصدّعة.

كيف تُبسِّط الحُجج المعقدة؟

كل شيء ينبغي أن يكون بسيطًا قدر الإمكان،

ولكن ليس أبسط من ذلك.(ألبرت إينشتين)

الحُجج التي عالجناها حتى الآن يمكن وصفها بالـ"بسيطة"، إذ لا تتعدّى مقدّمة أو اثنتين تنتهي إلى نتيجة. ولكن الكثير من الحجج التي نصادفها في الكتب والمقالات والمنشورات الصحفية تكون أكثر تعقيدا. فغالبًا ما تبدأ الحُجّة بمقدّمات تُفضي إلى نتيجة أولى، لتُستعمل هذه النتيجة بدورها كمقدّمة لحُجّة أخرى، وربما تُضاف إليها مقدّمات جديدة، فنحصل في النهاية على بناء منطقي متشابك: حُجّة كبرى تحتوي في أحشائها على حجج فرعية. هذه الحجة الكبرى تسمى حجة مُعقَّدة[27].



[27] Complex argument

لكن الحُجّة المعقّدة، كي تقف على قدميها، تحتاج إلى أن تكون كلّ حججها الفرعيّة سليمة وقويّة. فأيّ كسر في أحد أعمدتها يُحوّل البناء كلّه إلى أطلال.

لكي تكون الحجة المعقدة صحيحة (أو قوية)، ينبغي أن تكون جميع حججها الفرعية صحيحة (أو قوية).

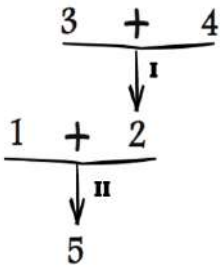
فلنأخذ مثالًا بسيطًا على ذلك:

" اليوم الأحد أو الاثنين. لا يمكن أن يكون الأحد، لأن الصيدلية التي بجوارنا كانت مفتوحة هذا الصباح، وهي تكون مُقفلة يوم الأحد. وبالتالي، اليوم هو الاثنين."

للحصول على الرسم البياني للحجة، سنبدأ بترقيم العبارات الواردة في هذه الحجة، مع وضع خط تحت الروابط الاستدلالية.

[اليوم الأحد أو الاثنين] (1). [لا يمكن أن يكون الأحد](2)، لأن [الصيدلية التي بجوارنا كانت مفتوحة هذا الصباح](3)، و[هي تكون مُقفلة يوم الأحد](4). وبالتالي [اليوم هو الاثنين](5).

يتبين أن العبارة (2) هي نتيجة للمقدمتين (3) و (4)، وأن (5) هي نتيجة للمقدمتين (1) و (2). هكذا نحصل على الرسم البياني لهذه الحجة[28].



من الواضح أن كل الاستدلالات المستخدمة (I - II) هي سليمة. وبالتالي، إذا افترضنا صحة كل المقدمات الأساسية (1-3-4) ستصير الحجة في مجملها صحيحة، وتصبح نتيجتها أيضا صحيحة (اليوم هو الاثنين).

[28] علامة الجمع "+" تعني رابط الوصل "و"، أما السِّهام فتُشير إلى الاستدلالات المنطقية (ربط المقدمات بالنتيجة).

ما هي المغالطة المنطقية؟

من واجب كل إنسان، قدر استطاعته،

أن يكتشف ويكشف الضلال والخطأ. (تُومَاس بِين)



وصلنا الآن إلى صلب موضوع هذا الكتاب. ما هي المُغَالَطَة؟

المغالطة[29]، بمعناها الواسع، هي كل حجة خاطئة. عادة ما تكون المغالطات خادعة لأنها توحي ظاهريا بأنها حجج جيدة .صحيح أنّ الكلمة تُستعمل أحيانًا للدلالة على

[29] Fallacy

في اللاتينية، الفعل "Fallere" يعني الخداع.

الخداع المتعمّد، لكن المصطلح في معناه العام لا يُبالي بالنوايا؛ فالمغالطة مغالطة سواء صدرت عن محتال أو عن بريء حَسَن النيّة[30].

نقطة أخرى في غاية الأهمية. المغالطات المنطقية مثل أخطاء النحو: ليست جملة واحدة خاطئة، بل طريقة خاطئة في تركيب الجمل تتكرر كلما استُعملت. عندما نتحدث عن المغالطات المنطقية، فنحن لا نشير إلى حججٍ بعينها أو عباراتٍ محددة، بل إلى أنماط متكرّرة من الأخطاء في التفكير والاستدلال. فالمغالطة ليست قولًا واحدًا يُردّ عليه ثم يُنسى، وإنما بنية ذهنية معيبة تتكرّر كلما أُعيد استعمالها، مهما اختلف الموضوع أو السياق أو الأشخاص.

على سبيل المثال، لا تقتصر مغالطة الشخصنة على قولٍ فجٍّ من قبيل: «رأيك خاطئ لأنك سيّئ السّمعة"، بل تشمل كل حُجّة تقوم على رفض الفكرة بسبب صاحبها لا بسبب مضمونها.

ولعلّ خطورة المغالطات تكمن في هذا التكرار الخفي؛ إذ تتبدّل الألفاظ وتبقى الآلية واحدة، فينخدع العقل بالشكل بينما يظلّ الخلل قائمًا في الجوهر. ومن هنا، فإن فهم المغالطات لا يقوم على حفظ أمثلة معزولة، بل على تعلّم التعرف على هذه القوالب الفكرية حيثما ظهرت.

الآن، حين نتحدّث عن "المغالطات المنطقيّة"، فإنّ الأمر يتوقّف على أيّ منطق نقصد: هل هو المنطق الصوري أم غير الصوري؟

[30] في اللغة الفرنسية، يتم التمييز بين مصطلح "سفسطة" Sophisme، والذي يعني خطأ في المنطق بِنيّة تضليل الجمهور، مقابل Paralogisme الذي لا يتضمن نوايا سيئة.

المنطق الصوري وغير الصوري

يعود المنطق الصوري[31] إلى الفيلسوف اليوناني أرسطو (384-322 ق.م). في مفهومه الحديث، المنطق الصوري هو المنطق الذي يتناول بالدراسة الحجج الاستنباطية: تلك التي تنطلق من مقدّمات صحيحة لتصل إلى نتائج صحيحة بالضرورة. بيئته المثاليّة هي الرياضيات، بِحُكم أنها علم استنباطي يعتمد على العقل وحيث البراهين المجردة تسكن في برجٍ عاجيّ مُتعال عن الواقع. المنطق الصوري، كما تشير التسمية، يتناول فقط صورة الاستدلال بغض النظر عن مضمونه .

وبما أن معظم الحجج التي نستخدمها في حياتنا هي استقرائية وليست استنباطية، فإن تطبيق صرامة المنطق الصوري التقليدي على كل الحجج كفيل بجعل أغلبها حُطامًا من المغالطات، وكفيل بِنَسْفِ الجزء الأكبر من البناء المعرفي الذي راكمته البشرية عبر قرون! الحجج المستخدمة في معيشنا اليومي لا تأتي صافية مجردة كما هو الحال في البرهان الرياضي، بل تأتي مُغلفة بطبقة كثيفة من المشاعر الإنسانية والبلاغات اللغوية والرغبات والتحيزات. توجد إذن حاجة لمنطق مختلف، منطق أكثر التصاقا بالمعيش اليومي ولغة الناس. وقد خلص الفيلسوفان "رالف جونسون" و "أنطوني بلير" إلى أن الدرس التقليدي للمنطق الصوري وأمثلته المصطنعة لا يُفيد التلاميذ كثيرا في تطوير تفكيرهم المنطقي العملي[32]. لهذا فقد أسّسا في سبعينيات القرن العشرين. "المنطق غير الصوري" لمعالجة هذا الصنف من الحجج اللصيقة بلغتنا اليومية وبواقعنا اليومي المعاش.

---

[31] Formal logic

[32] Johnson, R. H. & Blair, J. A, *Logical self-defense*. Toronto, McGraw-Hill Ryerson, 1977.

ولأن ما لا يُؤخَذ كله لا يُترَك بعضُه، فإنّ المنطق غير الصوري لم يقطع الحبل السرّي مع سلفه، بل ورث عنه بعض المفاهيم الأساسيّة: المقدّمات، النتيجة، والاستدلال. لكنّه في جوهره محاولة لبناء منطق يخرج من أسوار الرياضيات والقياسات المنطقية القديمة ليتعامل مع اللغة العادية، بما تحمله من التواءات ومجازات وغموض.

صحيح أنّ تعريفًا جامعًا مانعًا للمنطق غير الصوري ما يزال موضع خلاف، لكن يكفي القول إنّه يهتم بدراسة الحجج كما يتداولها الناس بلغتهم وفي حياتهم اليومية: على صفحات الجرائد، في نقاشات المقاهي، وفي صخب وسائل التواصل الاجتماعي.

المغالطات الصورية

المغالطات التي تُخِلُّ بقواعد المنطق الصوري تسمى مغالطات صُورِيَة[33]. متى تحدث المغالطة الصورية؟

في كل حجة تُقدمها، المفروض هو أن تَنطلق من مقدمات معينة، ثم تحاول من خلال الاستدلال الوصول إلى النتيجة المَرجُوة. في المنطق الصوري، يتم الاعتماد على الاستنباط. إذا كانت المقدمات صحيحة والاستدلال صحيحا، فإن النتيجة هي بالضرورة صحيحة. هذا يعني أن الحجة تكون خاطئة في واحدة من الحالتين:

- إما أن تكون إحدى المقدمات خاطئة،
- أو يكون الاستدلال خاطئا.

وبما أن المنطق الصوري لا يهتم بالتأكد من صحة أو خطأ المقدمات، بل فقط بصحة الاستدلال، فإن المغالطة الصورية تحدث عندما يكون الاستدلال خاطئا.

مثال. إذا مارست اليوغا، ستحصل على السلام الداخلي، وبالتالي إن لم تمارسها فلن تحصل على أي سلام داخلي.

هذا طبعا استنتاج خاطئ، فَكَوْن اليوغا إحدى الطرق للحصول على السلام الداخلي لا يعني أنها الطريقة الوحيدة[34]، وإلا لكان على كل البشر أن يجلسوا القرفصاء ويتمدّدوا في أوضاع معينة كي ينعموا بالطمأنينة!

---

[33] Formal fallacies

[34] هذه تسمى مغالطة "إنكار المقدمة" Denying the antecedent، وشكلها الصوري العام هو التالي : المقدمة: "أ" صحيحة إذن "ب" صحيحة. النتيجة: "أ" خاطئة إذن "ب" خاطئة.

المغالطات غير الصورية

في المنطق غير الصوري، يتم الاعتماد بشكل كبير على الاستقراء[35]. لهذا، نتحدث غالبا عن مقدمات غير مقبولة أو استدلال ضعيف، بدلًا من ثنائية الصواب والخطأ التي تليق أكثر بالمنطق الصوري المتشدّد.

مغالطات المنطق غير الصوري تسمى مغالطات غير صورية[36].

متى تحدث المغالطة غير الصورية؟ لنأخذ هذا المثال :

ملايين الناس يؤمنون بقراءة الأبراج. هل يُعقل أن يكونوا جميعا على خطأ؟

هيكل الحجة يمكن كتابته كالتالي:

مقدمة 1: ملايين الناس يؤمنون بقراءة الأبراج.

مقدمة 2: الملايين من الناس لا يمكن أن تخطئ.

نتيجة: قراءة الأبراج علم صحيح.

لنلاحظ أن المقدمة الثانية هنا لم تُصرّح علنًا، بل كانت مُتخفّية داخل مقدمات الحجة. والمصيبة أنّها هي موضع الخلل: فملايين الناس قادرون على الخطأ مثلهم مثل الفرد الوحيد. هذا ما يُسمّى بمغالطة *"الاحتكام إلى عامة الناس"*، التي تُفترض فيها الكثرة كبرهان على الصحّة.

من بين أكثر مغالطات المنطق الصوري شيوعا سنجد "الاستنتاج المعكوس" Affirming the consequent، مغالطة المغالطة The fallacy fallacy، ومغالطات القياس Syllogistic fallacies.

[35] أغلب مغالطات المنطق غير الصوري هي استقرائية، ولكن ليس كلها. مغالطة "التفكير الدائري" مثلا هي مغالطة استنباطية، ولكنها تحسب مع المغالطات غير الصورية.

[36] Informal fallacies

المغزى هنا أنّ العيب لا يكمن في الاستدلال ذاته، بل في مضمون إحدى المقدّمات. إذا كانت المغالطات الصورية مرتبطة فقط بالشكل الصوري للحجة عبر استدلال خاطئ، فإن المغالطات غير الصورية تتعلّق أيضًا بالمضمون والسياق.

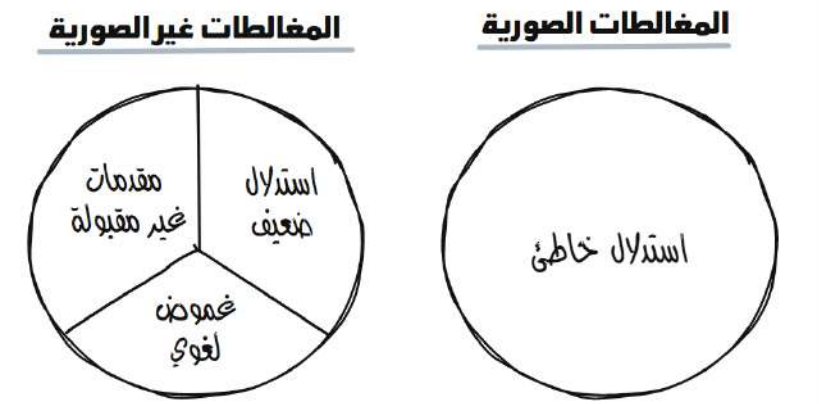
- **مضمون الحجة**[37]: أي كل ما يتعلق بمعاني العبارات الواردة في الحجة. الكثير من المغالطات غير الصورية تقوم على افتراض مقدمات غير صحيحة. في مغالطة "الإحراج الزائف" مثلا، يتم افتراض وجود إمكانيتين فقط، بينما في الواقع توجد إمكانيات أخرى.

- **سياق الحجة**[38]: بعض الحجج تكون قوية في مواقف معينة وضعيفة في مواقف أخرى. فالاستعانة بخبير فيزيائي لإثبات نظرية في الفيزياء مقبولة، لكن استدعاء نفس الخبير لإثبات مسألة طبية يصبح مغالطة صريحة.

باختصار، في المغالطات الصورية، يكون الاهتمام فقط بصحة الاستدلال، وليس بصحة المقدمات. لهذا فالمغالطة الصورية تحدث فقط عندما يكون الاستدلال خاطئا. ولكن مع المغالطات غير الصورية، يصبح المضمون والسياق مُهِمّين أيضا، وبالتالي تحدث المغالطة

[37] Content
[38] Context

أيضا عندما تكون إحدى المقدمات غير مقبولة[39]. وبسبب استخدام اللغة اليومية، تُضاف حالة ثالثة لارتكاب المغالطة هي الغُموض اللغوي[40].



[39] لهذا السبب، لا ينبغي الخلط بين المغالطات الاستقرائية Inductive fallacies والمغالطات غير الصورية. تحدث المغالطة الاستقرائية عندما تكون الحجة الاستقرائية ضعيفة، أي عندما تكون إمكانية تحقق النتيجة ضعيفة رغم قبول المقدمات. المغالطة الاستقرائية تحدث إذن على مستوى الاستدلال، بينما المغالطة غير الصورية قد تحدث أيضا على مستوى مضمون أو سياق الحجة.

[40] Ambiguity

ما الفرق بين المغالطات المنطقية والانحيازات المعرفية؟

وَلا تُصَدِّقْ بِما البُرهانُ يُبطِلُهُ
فَتَستَفيدُ مِنَ التَصديقِ تَكذيبا

أبو العلاء المعري

في كثيرٍ من المؤلفات والمقالات التي تُعنى بالمغالطات المنطقية، يتم إدراج الانحيازات المعرفية[41] في قائمة المغالطات المنطقية. هل هناك فارق حقيقي بين المغالطة المنطقية والانحياز المعرفي؟

في الواقع، الاثنان يتعلقان عموما بأخطاء التفكير، وأحيانًا نجد المغالطة المنطقية وقد وُجد لها توأم أو شقيق شبيه في لائحة الانحيازات المعرفية. ومع ذلك، يظل هناك اختلاف بين المفهومين. كيف ذلك؟

خذ مثلًا مغالطة "الاحتكام إلى عامة الناس"، التي تقوم على الصيغة التالية: "هذه الفكرة شائعة بين جمهور عريض، إذن فهي صحيحة بالضرورة"!

[41] Cognitive biases

مفهوم الانحيازات المعرفية قدمه الباحثان في علم النفس دانيال كانمان Daniel Kahneman وأموس تفرسكي Amos Tversky سنة 1972. أبحاث كانمان في مجال الاقتصاد السلوكي Behavioral economics تكلّلت بحصوله على جائزة نوبل في الاقتصاد سنة 2002. الانحيازات المعرفية خرجت من رحم علم النفس لتمتد تطبيقاتها إلى مجالات الاقتصاد والطب والسياسة وغيرها.

هذه المغالطة لها قرين نفسي يُسمّى "تأثير العربة"[42]؛ وهو الميل النفسي لتصديق فكرة أو تقليد عادة لمجرّد أنّ كثيرا من الناس يلهثون وراءها.

الفرق أنّ المغالطة المنطقية تتعلّق إذن بالحُجّة نفسها، أي بطريقة بنائها وصياغتها من منظور منطقي، بينما الانحياز المعرفي يتعلّق بآليات عمل العقل البشري نفسه، أي بالأنماط الذهنية والاختصارات العقلية[43] التي يستخدمها الدماغ لاتخاذ القرارات بسرعة. أحيانًا تكون هذه الاختصارات مفيدة، لكن مشكلتها أنها تدفعنا، غالبًا دون وعي، إلى التفكير بطريقة غير عقلانية. الانحياز المعرفي أشبه بتيّار خفي يدفعنا نحو التفكير الأعوج من غير وعي ، بينما المغالطة هي النتيجة الظاهرة لذلك التفكير عندما نُحوّله إلى حجّة منطقية. بعبارة أكثر اختصارًا: المغالطة المنطقية هي تجسيد للتفكير اللاعقلاني من منظور المنطق، في حين أنّ الانحيازات المعرفية تُجسّد التفكير اللاعقلاني من منظور علم النفس.

[42] Bandwagon effect

[43] Heuristics

هل يكون الرأي باطلا إذا بُنِي على مغالطة؟

كما قد تَخسر القضيةُ العادلة بِسبب ضُعف دفاع أحد المُحامين،
كذلك قد تتحول الفكرة الجيدة إلى سخيفة
بسبب ضُعف حُجج أحد المدافعين.

هذه نقطة جوهرية. لنفترض أن خصمك قدَّم رأياً مُدعَّما بحجة، ولكنك كشفتَ مغالطة في حُجته. هل هذا دليل على أن رأيه خاطئ؟

تأمّل هذا المشهد الكاريكاتوري:

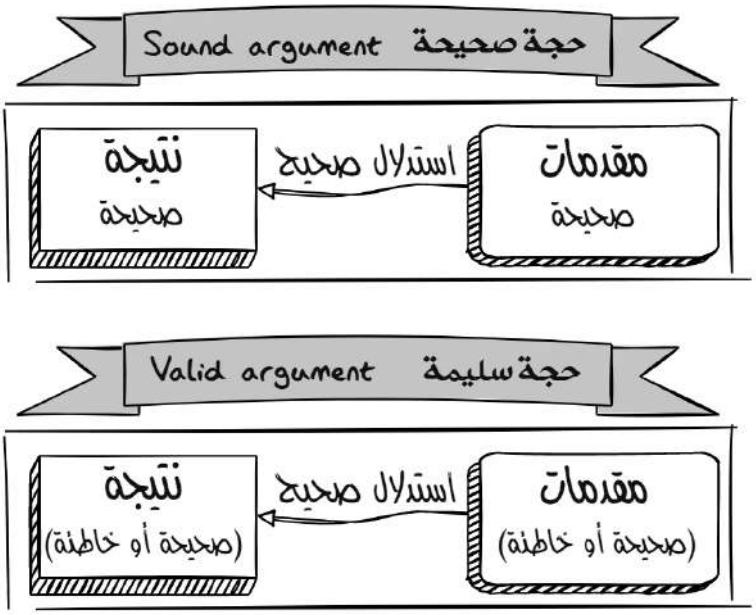
- الأرض كروية لأن معظم الناس يعتقدون أنها كذلك.
- وقعتَ في مغالطة "الاحتكام إلى عامة الناس"، وبالتالي فالأرض ليست كروية!

واضح أنّ الرد الأخير لا يَستقيم عقلًا. نعم، الحُجّة التي قُدِّمت كانت فاسدة، لكنها لا تُسقط حقيقة كروية الأرض. فالحقيقة لا تَنهار لمجرّد أنّ أحدهم تبرّع بالدفاع عنها بلسانٍ أعوج. بكلمات أخرى: ما بُنِي على حق يبقى حقًّا، أمّا ما بُنِي على باطل فليس بالضرورة باطلًا، فالحق قد يجد من يُسيء الدفاع عنه بحجج باطلة[44].

[44] توجد عبارة بالفرنسية تُعبَر بشكل جميل عن هذه الفكرة :

"On peut avoir raison pour de mauvaises raisons"

في المنطق الصوري، يتم التمييز بين الحجة السليمة[45] والحجة الصحيحة[46]. الحجة تكون سليمة إذا كان الانتقال من المقدمات الى النتيجة (الاستدلال) سليما منطقيا. ولكن لكي تكون النتيجة صحيحة، ينبغي التأكد أيضا أن كل المقدمات صحيحة. آنذاك فقط نحصل على حُجّة مكتملة الأركان... حُجّة صحيحة!



مع طوفان المغالطات التي تجرف بسيولها نقاشات الناس من حولك، سيكون من السهل عليك العثور على مغالطات في آراء الآخرين، ولكن المهمة الأصعب هي أن تعثر لنفسك على حجة صحيحة، أو على الأقل قوية بما يكفي لدعم رأيك.

[45] Valid argument

[46] Sound argument

الآن وأنت تقرأ المغالطات المذكورة في هذا الكتاب، لا تتسرّع وتظن أن سقوط حُجّة يُسقط معها الفكرة ذاتها، فلربما يجد خصمك حجّة أخرى أمتن تُنقذ رأيه من الغرق.

في المقابل، إن شئت أن تُثبت بطلان الرأي نفسه لا مجرد فساد حجّته، فإليك بعض الأسلحة:

- **المثال المضاد** :لو قيل لك إن جميع النباتيين يموتون في سن مبكرة، فإنك تستطيع بسهولة تفنيد هذا الرأي من خلال تقديم مثال واحد لشخص نباتي لم يَمُت في سن مبكرة. يكفي أن تستحضر غاندي أو برنارد شو أو أبا العلاء المعري لتنسف الادعاء.
- **إثبات وجود تناقض:** إن زعم أحدهم أنّه يجوز للرجال لقاء النساء، لكن لا يجوز للنساء لقاء الرجال، فأنت لا تحتاج إلا إلى ابتسامة ساخرة وإشارة بسيطة إلى استحالة هذا التناقض: فكيف يلتقي الرجل بامرأة دون أن تلتقي هي به؟
- **البرهان بالخُلف**[47]: وهو سلاح أنيق يثبت بطلان الفرض عبر إظهار أنّ صحّته تقود إلى استحالة. مثلًا: إن افترضنا وجود "أكبر عدد"، فضعفُه سيكون أكبر منه، فلا يعود أكبر عدد! وهكذا يتبخّر الادعاء في هواء المنطق.

إذا نَسيتَ كل ما سبق، فتذكّر هذه الحقيقة جيّدًا: المغالطة تُسقِط الحُجّة لا الرأي. فقد ينهزم المحامي ويتلعثم، لكن القضيّة العادلة تظلّ عادلة. لذلك، وأنت تُهاجم حجّة خصمك، إيّاك أن تُصدّق أنّ العثور على مغالطة يعني القضاء على الرأي نفسه؛ فقد يُخرج خصمك من جيبه حجّة أصلب تعيدك إلى نقطة الصفر.

[47] Reduction to absurdity


1
كُلُّهم سَواء!
(التعميم المتسرع)



بيضة واحدة فاسدة لا ينبغي أن تدفعك لرمي الصندوق كله.

(إشوكيمي)

الطبيعة تقدم استثناءات لكل قاعدة. (مارغريت فولر)

ما إن نحصل على حبة من الوقائع

حتى نبني على أساسها قبة من التعميمات.

جوردور أولبورت

يلزم تقليص إثباتنا إلى المعنى الأكثر حصرا وإلى أضيق الحدود الممكنة، لأنه كلما كان إثبات ما عاما صار أكثر عرضة للهجمات.

آرثر شوبنهاور - فن أن تكون دائما على صواب (الجدل المرائي)

كل التعميمات خاطئة بما فيها هذه. (مارك توابن)

لكل قاعدة استثناء، باستثناء هذه القاعدة. (قانون مورفي)



يبدأ كتاب «ألف ليلة وليلة» بقصة الملك شهريار الذي يكتشف أن زوجته الحسناء خانته مع أحد عبيده. فطار صوابُه، ولم يَشفِ غليلَه أن يقتلها وحَسب، بل إنه أخذ قرارا بأن يتزوج كل ليلة بامرأة ويقتلها في ليلة زفافها. وصفة انتقامٍ جَماعيّة: كل ليلة عروس جديدة، وكل فجرٍ جنازة جديدة!



في "ألف ليلة وليلة"، يكتشف الملك شهريار أن زوجته تخونه مع أحد عبيده، فيقرر الانتقام من كل نساء المدينة وقتلهن ليلة عرسهن. جرائم شهريار في حق النساء أساسها تعميم متسرع: "هذه المرأة خائنة، إذن كل النساء خائنات!"

ظلَّ على هذه السّنّة الدموية ثلاث سنوات، إلى أن أشرقت في حياته شهرزاد، ابنة الوزير، التي لم تُواجه سيفه بسيف، بل واجهته بحكاية. ومن حكاية إلى أخرى، كبّلته بخيوط السّرد، فنجحت في إلهائه وتخليص نساء المدينة من بطشه.

يُقال إن الغضب ريح تهب فتطفئ سراج العقل. وشهريار مثالٌ صارخ على ذلك؛ إذ شيّد جريمته على «حُجّة» باطلة: «هذه المرأة خائنة، إذن فجميع النساء خائنات.»

إنها مغالطة «التعميم المتسرِع»، التي تتلخَّص في قاعدة بائسة:

ما ينطبق على بعض الحالات الخاصة ينطبق على كل الحالات.

ورغم وضوح بُطلانها، فإن الناس يقعون فيها يوميًا بلا عناء. العالم متنوع ومعقد إلى حد كبير. والتعميم هو طريقة لاختزال فوضى العالم. وبدلا من بذل جهد لتقصِّي الحالات المتباينة، تُفضل عقولنا نسج قواعد مبسطة لا تعكس تنوّع الواقع وتفاصيله المعقدة.

أمثلة

1. منذ أن سمعت قصة ذلك المتسول الذي افتضح أمره بعد أن اتضح أنه كان مليونيرا، أدركت حقيقة المتسولين وتوقفت عن تقديم أية مساعدة لأحدهم.

بالتأكيد ليس كل المتسولين بأثرياء، بل ربما معظمهم ليسوا كذلك. حيلة رجلٍ واحد لا تكفي لتجريم جموع الفقراء الحقيقيين. إذا كان المتكلم حرا في تقديم المساعدة أو عدم تقديمها، فإن حجته باطلة مادامت تستند على تعميم متسرع.

2. تعرفت على بعض الأشخاص الألمانيين، وكان تعاملهم معي جافا جدا. الشعب الألماني غير مهذب وعنصري إلى أبعد الحدود.

بغض النظر عن صواب أو خطأ تأويل سلوك هؤلاء الأشخاص الألمانيين، يبقى أن شخصا واحدا، أو اثنين أو حتى عشرة، لا يمكن أن يمثلوا شعبا بأكمله. التعميم المتسرع مصدر أساسي للأحكام العنصرية ضد عرق أو شعب أو قبيلة أو طبقة اجتماعية أو طائفة دينية. إنه تنميط لجماعة من البشر المختلفين على أساس أنهم كلهم متشابهون.



الإسباني ثرثار، الإيطالي زير نساء والإنجليزي بارد المشاعر. في التعميم المتسرع، يتم تنميط جماعة معينة من البشر المختلفين على أساس أنهم كلهم متشابهون.

3. كان جدي يُدخن عشرين سيجارة في اليوم، ومع ذلك فقد تجاوز عمره المائة. إنك تبالغ بحديثك عن أضرار التدخين.

إذا كانت الإحصاءات تشير إلى أن التدخين يزيد من احتمالات الموت المبكر، فهذا لا يعني أن كل شخص مدخن سيموت بالتأكيد مبكرا. حالة العجوز المدخن الذي تجاوز عمره المائة غير قابلة للتعميم ولا تضعف من حقيقة أضرار التدخين، تماما كما أن حالة الشاب الرياضي الرشيق الذي كان يتناول طعاما صحيا ثم مات بسكتة قلبية في عز شبابه لا تقلل من فوائد الرياضة والأكل الصحي.

4. "مرة أخرى تضع الأشياء في غير مكانها. هذا هو حالك دائما. كل ما علمتك إياه أبدا لم تتعلم منه شيئا!!"

ثلاث كلمات فكر جيدا قبل استعمالها: "كل"، "دائما"، "أبدا".

كلمتان كن كريما في استعمالهما: "بعض" و"أحيانا".

5. الإنسان الأسود أقل ذكاءَ من الإنسان الأبيض.

هذا قول مبهم وعديم المعنى. لا يوجد في هذه الأرض فقط إنسان واحد أسود وآخر أبيض. لكي يصبح للقول معنى، يجب إدخال مُكَمِّمَات منطقية من قبيل "كل"، "بعض"، "لا أحد". إذا كان المقصود هو "كل إنسان أسود هو أقل ذكاءَ من كل إنسان أبيض"، فهو قول باطل تسقطه حالة واحدة لعبقري أسود.

وغالبًا ما يُقصد أنّ معدّل الذكاء لدى السود أدنى من معدّل الذكاء لدى البيض. والحكم على هذه الدعوى لا يتمّ عبر الانطباعات العابرة، بل عبر دراسات إحصائيّة واسعة. وقد جرت بالفعل إحصاءات عديدة بخصوص هذا الموضوع، غير أنّ نتائجها ظلّت موضع جدل طويل؛ إذ إنّ الفروق في الذكاء قد لا تعود إلى لون البشرة، بل إلى عوامل اجتماعيّة واقتصاديّة وثقافيّة أعمق.

لكن العقول الكسولة تُحبّ الجُمل القاطعة: «ابن المدينة أذكى من ابن البادية»، «الرجل أكثر عقلانية من المرأة»، «الشرقي أكثر روحانيّة من الغربي»، «الهندي أطيب من الصيني»... إلى آخر القائمة من أحكام مُعلَّبة جاهزة. انتبِه جيّدًا لمثل هذه المقارنات؛ فهي تحمل في طيّاتها بذور مغالطة «التعميم المتسرّع»، وتُخدِّرنا ببساطتها، بينما الواقع أعقد من أن يُختصر في مثل هذه القوالب الساذجة.

6. – "هذه الطريق خالية مظلمة. سمعت أن قُطّاع طرق يترصدون فيها الناس بين الحين والآخر. دعنا نغير الطريق!"

- "لا تخف، لن يصيبنا أي مكروه. لقد مررت بهذه الطريق في المدة الأخيرة ولم يحصل شيء."

رغم أن خبرة الماضي هي المحدد الأساسي لتوقعاتنا المستقبلية، ولكن هذه الخبرة ليست ضمانا لما سيحدث في المستقبل. أحيانا تحمل الحياة بعض المفاجآت التي لم نختبرها من قبل، فليس كل مرة تسلم الجرة.



تعَوّد الديك أن يتناول طعامه عند شروق الشمس، فكانت القاعدة التي توصل إليها هي أن صاحب الضيعة رجل طيب لا يتوقف عن تقديم الطعام له عند كل شروق شمس. وفي صباح أحد الأيام، وقعت المفاجأة، فبدلا من أن يمر الطعام عبر رقبته، تم جزّ رقبته!! خبرة الماضي ليست ضمانا لما سيحدث في المستقبل.

هل كل التعميمات خاطئة؟

تخيّل أن لديك قِدراً من الحساء فوق النار، وتريد اختبار ملوحته. ملعقة واحدة تكفي للحكم على الطَّبق بأسره، لأن مكوّناته امتزجت وتجانست. هنا يكون التعميم صائبًا لا غبار عليه. لكن ماذا لو أردتَ أن تحكم على طيبة سكّان مدينة زُرتها حديثًا؟ هل يكفيك النادل الذي قدّم الطّعام بوجهٍ عابس، أو سائق الأجرة الذي بالغ في الأجرة، أو المارّ الذي دلّك إلى الطريق وهو متجهّم؟ هذه العيّنة الضيّقة لا تصلح أبدًا لإطلاق حكم على آلاف السكّان. هنا يكون التعميم فاسدًا.



إذا كان الحكم على ملوحة قدر من الحساء لا يتطلب إلا تذوق ملعقة واحدة من الحساء، فلأن هذا الاخير متجانس وكل أجزائه متشابهة. الأمر يختلف عند الحكم على مجموعة بشرية مثلا. في المنهج العلمي، يقوم الاستقراء (الانتقال من الجزء إلى الكل) على دراسة إحصائية تتناول عينة يتوفر فيها شرطان: شرط كمي (العينة تضم عددا كافيا من العناصر) وشرط كيفي (العينة تمثل أهم خصائص المجموعة الأصلية).

الأحكام الرصينة تحتاج إلى إحصاءات، وهناك طريقتان: إمّا إحصاء شامل يشمل كلَّ الساكنة، وهو دقيق لكن باهظ الكلفة، أو اعتماد عيّنة مدروسة تمثّل السكان، وهو ما يُعرف بالاستقراء[48]، حيث يتم الانتقال من الجزء (العينة) الى الكل (المجموعة الأصلية). النتائج الاستقرائية هي ظنية وغير يقينية، ولكن طريقة اختيار العينة يمكن أن تجعل هذه النتائج مقبولة إلى حد كبير.

كيف يمكن اختيار عينة جيدة غير متحيزة؟

توجد طريقتان هما الأكثر استخداما:

- الاختيار العشوائي[49]: يتم من خلال قرعة تعطي فرصا متساوية لكل الأفراد للانتماء الى العينة.

- اختيار عينة ممثلة[50]: يتم اختيار العينة بناءا على بعض الخصائص المهمة في الدراسة (السن، الجنس، مستوى التعليم، ...) .إذا كان عدد الذكور مثلا يقارب عدد الإناث في المجموعة الأصلية، فإن هذه النِّسبة يجب أن تنطبق أيضا على مستوى العينة. بالإضافة إلى هذا الشرط الكيفي، يوجد شرط كمي، حيث ينبغي أن يكون عدد أفراد العينة كافيا لتمثيل المجموعة الأصلية. هذا الشرط لا يتحقق عموما في الأحكام التي نبنيها على خبرتنا الفردية.

---

[48] Induction

[49] Random sampling

[50] Representative sample

الاستقراء من خلال عينة ممثلة يبقى من أهم طرق البحث في الظواهر الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، بل إن الاستقراء يشكل ركيزة أساسية للمنهج العلمي المستخدم في علوم الطبيعة.

عندما تقضم تفاحة صلبة خضراء وتجد أن طعمها حامض، ويتكرر الأمر مع التفاحة الثانية والثالثة، ستخمن أن كل تفاحة صلبة خضراء طعمها حامض. إذا اعتقدت لوهلة أن تخمينك هو قاعدة عامة صحيحة، فقد وقعت في التعميم المتسرع. أما إذا اختبرت أعدادا كبيرة من التفاح ومن كافة الأنواع، ووجدت أن فرضيتك لا تزال صامدة، فالأرجح أنك قد توصلت الى قاعدة علمية. ما قمت به يتوافق مع أسس المنهج العلمي الاستقرائي:

1. الملاحظة: لاحظت أن العدد القليل من التفاح الصلب الأخضر الذي قضمته كان حامضا.

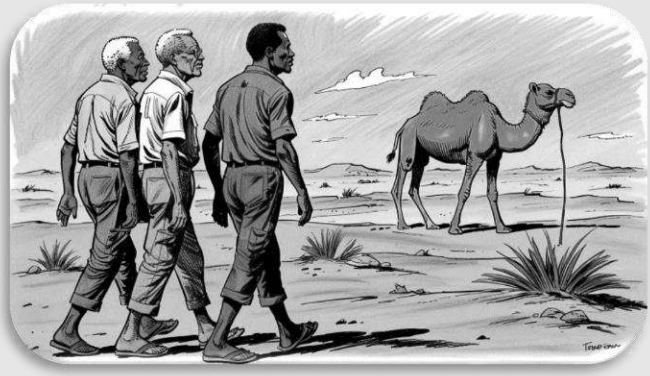
2. الفرضية: طرحت للبحث الفرضية التالية "كل التفاح الصلب الأخضر هو حامض".

3. التجربة قمت باختبار فرضيتك على عينة أوسع تكون ممثلة لكل أنواع التفاح.

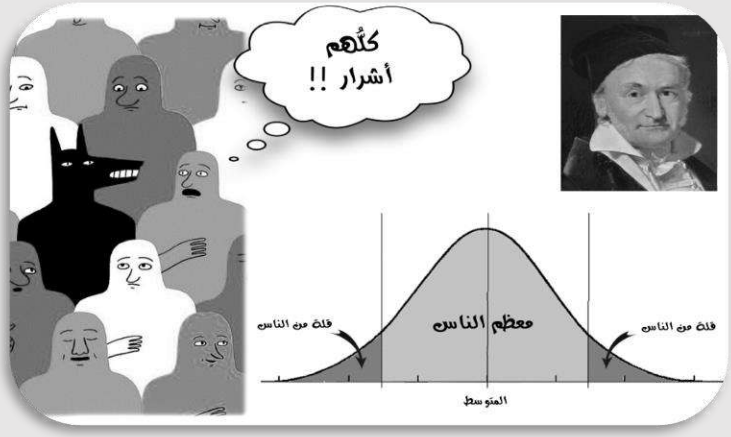
4. النظرية: بعد تطابق فرضيتك مع نتائج التجربة، قمت باستقراء (انتقال من الجزء إلى الكل) لتصل إلى نتيجة مفادها أن "كل التفاح الصلب الأخضر هو حامض الطعم". من وجهة نظر منطقية بحتة، هذا الاستنتاج ليس بالطبع أكيدا، ولكن من وجهة نظر عملية، هذا استنتاج جيد بما يكفي، وكلما صمد في وجه اختبارات جديدة ومكنك من إجراء توقعات صحيحة، كلما زاد مستوى الثقة في صحته. أما إذا صادفت في يوم من الأيام تفاحة واحدة صلبة خضراء ولكن طعمها غير حامض، فإن كل ما بنيته سابقا سينهدم في رمشة عين!

هل كل التعميمات خاطئة؟

بالتأكيد لا. بدون التعميم والاستقراء ما كانت لتقوم علوم الفيزياء والكيمياء والحياة، بل ما كان بإمكاننا أن نتفلسف أو نناقش الكثير من الأفكار النظرية. التعميم الخاضع لشروط المنهج العلمي يبقى موضع ثقة عالية. أما التعميم المتسرع فهو لا يخضع لهذه الشروط ويدخل في دائرة المغالطات المنطقية.



انْطلق ثلاثة أصدقاء في رحلة عبْر الصحراء .في صباح اليوم الأول، شاهدوا جَملاً أصفر اللون يَمُر غير بَعيد عنهم. قال الأول: "أرى أن جِمال الصحراء صفراء." قاطعَهُ الثاني: "تَقصد أن بَعض الجِمال صفراء." عندها، تدخَّل الثالث مُعترضا: "ليس صحيحاً. كُلُّ ما نستطيع قَوْلَه هو أن هناك جَملا واحدا على الأقلّ في هذه الصحراء، وأن جانباً واحدا على الأقلّ من هذا الجَمل هو الذي لونه أصفر!"
العبرة: كلما رفعتَ سقف الدقة وتجنّبتَ التعميم، كلما شحّت المعلومات.



في بداية القرن 19، قام الرياضي "غاوس" بدراسة "التوزيع الطبيعي المشهور بشكل الجرس. هذا التوزيع ينطبق بشكل لافت على الكثير من الظواهر الفيزيائية والإنسانية، حيث تتمركز أغلب القيم حول المتوسط، وتقل كلما تم الابتعاد عنه. التعميم المتسرع يدفعك لتبني أحكام شاملة باطلة بناءً على حالات معزولة.

"موت شخص واحد هو مأساة، موت مليون شخص هو إحصاء". هذه المقولة التي تُنسب إلى ستالين تعبر عن هذا الأمر. فنحن أبناء الحكايات أكثر منّا أبناء الأرقام. قصة واحدة مؤثرة تقدر على تحريك العاطفة بما لا تستطيع آلاف الرسوم البيانية أن تفعله. في النهاية لا أحد يبكي أمام الأرقام!

بعض السياسيين يدركون هذه الحقيقة جيدا، فتراهم بدلا من الاستدلال بلغة الأرقام والإحصاءات التي تقارب الوضع العام للقضية المطروحة، يلجؤون لسرد حكايات معزولة

تجعلك تعتقد أنها تمثل الحالة العامة لمعظم الناس. "الاستدلال بالمتاح"[51] من أكثر أشكال التعميم المتسرع انتشارا. قصة المتسول المليونير أو مدمن التدخين الذي تجاوز عمره المائة هي بالتأكيد مثيرة وجديرة بالدهشة، لكنها لا تكفي لصناعة قاعدة عامة ولا تصلح أن تكون دليلاً يُركن إليه.

دروس خاطئة من صميم الحياة

"أقرب أصدقائي خان ثقتي، إذن لن أثق في أحد بعد اليوم!"

" علَّمتني الحياة أن الحبّ مجرّد وهم، فكلّ من أحببتهم هجَروني!"

عبارات نسمعها بين الحين والآخر، يطلقها أصحابها بثقة الواثقين بأنّهم يتكلّمون من عمق التجربة لا من فراغ. غير أنّ السؤال الجوهري يبقى: هل الدروس التي استخلصوها صحيحة فعلًا؟

يُقال إنّ الماضي إمّا أن يكون سجنًا أو مدرسة. وإذا قرّرتَ أن تجعله مدرسة، فالمهم أن تتأكّد أنّك تعلّمت الدرس الصائب. لكن للأسف، كثير من «الحِكَم» المستقاة من تجارب الحياة ليست سوى ثمار مُرّة للتعميم المتسرّع. فإذا خانك شخص واحد، فلا يعني هذا أنّ جميع البشر خَوَنة. وإن اعتزلتَ الناس جميعًا لأنّ أحدهم آذاك، فذلك شبيه بمن يمتنع عن شرب الماء لأنّه كاد يختنق ذات مرّة أثناء الشرب!

[51] Anecdotal evidence

حياة الإنسان فسيفساء من التجارب، والدروس المستخلصة منها تختلف باختلاف الزوايا. أحدهم يَنصح بالزواج لأنّه يشعر بالسعادة الزوجية، وآخر يَلعنه لأنّه يتجرّع عذاباته. التجربة الواحدة قد تُنتج حكمًا ونقيضه، فما بالك إذا عمّمنا؟

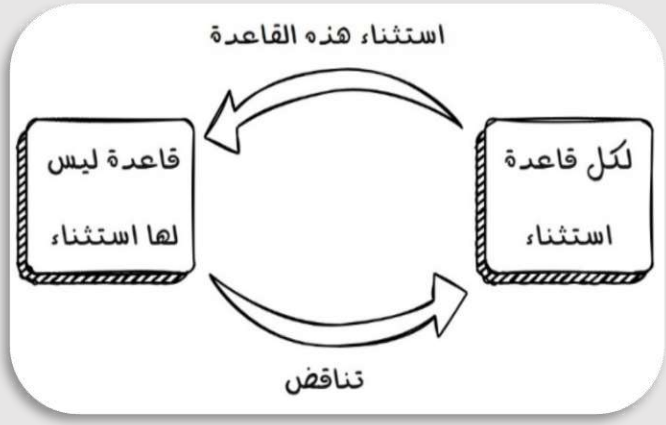
وقد عبّر «مارك تواين» عن هذه النزعة بسخريته المعهودة: "احذر أن تستخلص من تجربة واحدة أكثر ممّا تحتمله، حتى لا ينتهي بك الحال مثل القطة التي جلست فوق صفيح ساخن. صحيح أنّها تعلّمت ألّا تقترب ثانية من الصفيح الساخن، لكنّها –لشدة فزعها– لم تجرؤ بعد ذلك على الاقتراب من صفيح بارد أيضًا!"

هل الاستثناء يُؤكد القاعدة؟

كنتُ أتابع أحد المتحدِّثين في برنامجٍ تلفزيوني، وهو يستعرض بكل ثقة فلسفته في مواجهة الخوف: "كلّما أحسستُ بالخوف من شيءٍ ما، قرّرتُ مواجهته مواجهةً حقيقيّة. أخاف من العلوّ؟ أقفز بالمظلّة. أخاف من الصراصير؟ أمسكها بيدي، وهكذا!"

كلام جميل ومُلهِم على الشاشة، لكن هل يصلح قاعدة عامّة؟ بالتأكيد لا. فإذا كان أحدهم يخشى الإدمان، فهل يَعالج خوفه بأن يتعاطى المخدّرات؟ وإذا كان هاجسه الموت، فهل يَستطيع «العلاج» بالانتحار؟ هُنا تنقلب البطولة إلى عبث قاتم.

كثيراً ما نسمع المقولة: «الاستثناء يُؤكِّد القاعدة». لكن منطقيًا، الاستثناء لا يُؤكِّد القاعدة، بل ينسِفها من أساسها!



"لكل قاعدة استثناء " عبارة شائعة ومتناقضة، إذ لو كانت صحيحة لَوَجَب ان يكون لها استثناء. هذا الاستثناء سيكون قاعدة لا استثناء لها، وهو ما يناقض مقولة أن "لكل قاعدة استثناء."

العالَم الذي نعيش فيه متجرّ ضخم يعجّ بالأمثلة المضادّة، وما تظنّه قاعدة صلبة قد يَتهاوى أمام نموذج واحد خارج السَرب. القواعد الشاملة التي لا تعرف استثناءَ أقلُّ بكثير ممّا نُحب أن نتخيّل . لذلك، متى شعرتَ بإغراء اليقين لأن لديك أمثلة تُؤيِّد قاعدةً ما، فاسأل نفسك ببرودة أعصاب: هل هناك أمثلة مُضادّة؟

هل كلّ السيارات مُلزَمة بالوقوف عند الإشارة الحمراء؟ ليس تماماً؛ سيارات الإسعاف مَعفِية من هذا الالتزام. هل كلّ المواطنين لهم حقوق وعليهم واجبات؟ إذا أجبتَ بحماسة «نعم»، فهل فكّرتَ في الأطفال الرّضّع والمختلّين عقليّا؟ أترى أنّ عليهم واجبات مدنيّة؟

جرِّب هذه اللعبة: لعبة البحث عن المثال المضاد. أُراهنك أنّك ستُفاجَأ بالنتائج، وربّما تَكتشف أنّ القاعدة التي بدتْ لك كالجبل، لم تكن في الحقيقة سوى كومة رمل تُذريها ريحُ الاستثناءات.

القاعدة	استثناء
الطيور قادرة على الطيران.	طائر البطريق
كل حيوان يحرك فكه الأسفل أثناء مضغ الطعام.	التمساح يُحرك فكه الأعلى
كل الأعداد الأولية[52] هي فردية.	العدد 2 أولي وغير فردي
كن أمينا!	هل تَردّ سلاحا كان في ملك صديق وبقي أمانة لديك قبل أن يُصاب بالجنون؟
كن عادلا!	هل يجب التعامل مع ذوي الاحتياجات الخاصة في الحافلة تماما مثل الأشخاص الآخرين؟
لا تكذب!	مجرم يبحث عن ضحيته المختبئة في منزلك ويسألك عن مكانها. هل تُخبره بالحقيقة؟

[52] العدد الأولي هو عدد صحيح طبيعي أكبر قطعاً من 1، لا يقبل القسمة إلا على نفسه وعلى واحد فقط. كمثال، 7 هو عدد أولي لأنه لا يقبل القسمة إلا على 1 وعلى 7، بينما 8 هو عدد غير أولي لأنه قابل للقسمة على 1، وعلى 2 وعلى 4 وعلى 8.

لا تذكر عيوب الناس في غيابهم!	مداولة مغلقة بين القضاة للحكم في قضية مجرم.
لا تسرق!	شخص وحيد يموت جوعا على الطريق وليس أمامه سوى بعض أشجار الفواكه التي يملكها فلاح بعيد عن مزرعته.
لا تقتل!	الدفاع عن النفس في مواجهة مجرم سفاح.
القاعدة الذهبية: عامل الآخرين مثلما تريد أن يعاملوك.	هل يُسمح لشخص ماسوشي (يستمتع بتعذيب نفسه) أن يُعذب الآخرين؟

ولأن الاستثناء يسكن جل القواعد، ينبغي التمييز بين نوعين من القواعد:

- قاعدة شاملة: قاعدة صارمة لا تقبل أي استثناء، وإذا وُجد استثناء بطُلت القاعدة.

مثال. كل مثلث على سطح مستو مجموع زواياه يساوي 180 درجة.

- قاعدة مُقيَدة : قاعدة تصلح في حالات كثيرة ولكن ليس في كلها.

مثال: ممنوع خروج أي تلميذ من الفصل قبل انتهاء الدرس.

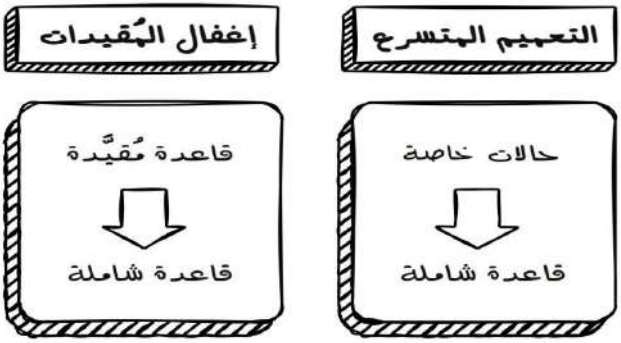
استثناءات ممكنة: حالة مرضية مستعجلة، حاجة ملحة للذهاب إلى الحمام.

عندما نعتبر أن قاعدة مُقيّدة هي قاعدة شاملة، فإننا نرتكب مغالطة "إغفال المقيدات"[53].هذه المغالطة تأخذ الصيغة التالية:

لدينا قاعدة مُقيّدة، إذن لن نقبل بأي استثناء لها.

في هذه المغالطة، تتم المطالبة بتطبيق قاعدة مُقيّدة على استثناء مشروع لا ينبغي أن تطبق عليه القاعدة. بعبارة أخرى، إذا لم تطبق القاعدة على الحالة الاستثنائية، فيجب الامتناع عن تطبيقها في جميع الحالات. أي أننا أمام خيارين: إما أن تُطبق القاعدة على كل الحالات دون أي استثناء، أو لا تطبق أبدا!

يبقى أن إثبات وجود مغالطة يتطلب التأكد من أن الاستثناء مشروع ولا يدخل في دائرة القاعدة.



في مغالطة "التعميم المتسرع"، يتم اعتبار أن بعض الحالات الخاصة هي كافية لاستنتاج قاعدة شاملة، بينما تقوم مغالطة "إغفال المُقيّدات "على التعامل مع قاعدة مُقيّدة كما لو أنها شاملة.

[53] باللاتينية Secundum quid و بالإنجليزية تحمل المغالطة أسماءا متعددة

Fallacy of accident, Fallacy of the general rule, Destroying the exception, Ignoring qualifications

أمثلة.

1. إذا سمحنا لبعض المرضى بتناول أحد المخدرات كعلاج، فيجب أن نسمح لجميع الناس بتناولها.

تناول المخدرات لتسكين آلام شخص مريض يبدو استثناءَ مشروعا، لأن ضرراً محدوداً قد يكون ثمنًا مقبولًا لتفادي ضرر أكبر.

2 . لِنَتفق يا عزيزتي أن الشخص المسؤول مُلزم بالوفاء بوعوده. في يوم زواجك، وعدتِ زوجك بالبقاء معه مدى الحياة. لذا، عليك البقاء معه الآن، حتى لو صار مُدمنا على المخدرات وعنيفا يَضربك.



هل عليك دائما أن تتوخى العدل بين الناس؟ قد تكون قليل الذوق لو طلبتَ أن يتم التعامل مع العجزة في الحافلة تماما مثل الأشخاص الآخرين. تعتمد مغالطة "إغفال المقيدات" على المطالبة بتطبيق قاعدة مقيدة على استثناء مشروع لا ينبغي أن تُطبَق عليه القاعدة.

3. الرجل دعا إلى قتل بعض مخالفيه. لماذا كل هذه الزوبعة؟ أليس من حق كل إنسان أن يعبر عن رأيه؟

> حرية التعبير ليست صكًّا أبيض مفتوحًا، إنها حرية مقيدة وغير شاملة، تتوقّف مثلا عند حدود التحريض على القتل أو القذف العلني بالباطل.

والواقع أننا لو تأملنا القواعد والمبادئ والقوانين والأخلاق والحكم الشعبية التي نحتكم إليها في معيشنا اليومي، لوجدنا أن أغلبها من صنف القواعد المقيّدة، تعميمات مسكونة بالاستثناءات. ومع ذلك، تبقى هذه القواعد مهمة، بل ضرورية، لتنظيم حياتنا واتخاذ قراراتنا بسرعة، وتوفير الجهد لمعرفة ما لنا وما علينا.

على أنه ينبغي، في نفس الوقت، أن ننتبه كل مرة إلى إمكانية وجود استثناء يكسر القاعدة، تماما كما أن القاضي، رغم التزامه عادة بالنصوص القانونية، إلا أنه يجد في بعض القضايا المعروضة أمامه ما يدفعه لتجاوز النص القانوني. ينبغي أن نتعامل مع التعميمات المقيدة بمرونة، لا كأنّها أصنام جامدة.

البحث عن الاستثناء داخل القاعدة لعبة ممتعة، كلما جربتها كلما وسعت أفق تفكيرك وفتحت عينيك على عالم واسع من الإمكانيات والاحتمالات.

باختصار

1. "التعميم المتسرع" هو مغالطة منطقية تقوم على الاعتقاد بأن ما ينطبق على بعض الحالات الخاصة سينطبق على كل الحالات. انتبه جيدا قبل استخدام كلمات تفيد التعميم الشامل من قبيل "كل"، "دائما"، "أبدا"، واستبدلها ما أمكن بكلمات أقل شمولية: "جل"، "بعض"، "غالبا"، "أحيانا".

2 . التعميم المقبول علميا (استقراء) يَعتمد على دراسات إحصائية تتناول عيِّنة مُمثِّلة. هذه العينة ينبغي أن يتوفر فيها شرطان: شرط كيفي (العينة تعكس أهم خصائص المجموعة الأصلية) وشرط كمي (عدد أفراد العينة كاف لتمثيل المجموعة الأصلية).

3. يستند الناس على خبراتهم اليومية وعلى القصص والأمثلة المتداولة من حولهم للخروج بتعميمات متنوعة وأحيانا متناقضة. هذا ما يسمى "الاستدلال بالمتاح"، وهو مصدر أساسي للأحكام العنصرية ضد عرق أو جنس أوشعب أو قبيلة أو طبقة اجتماعية أو طائفة دينية. إنه تنميط لجماعة من البشر المختلفين على أساس أنهم كلهم متشابهون.

4. أغلب القواعد التي نعتمدها في حياتنا تقبل استثناءات. لهذا يجب التمييز بين القاعدة الشاملة التي لا تقبل أي استثناء، وبين القاعدة المُقيّدة التي تقبل الاستثناء. عندما نعتبر أن قاعدة مُقيّدة هي قاعدة شاملة، فإننا نرتكب مغالطة "إغفال المقيدات". في هذه المغالطة، تتم المطالبة بتطبيق قاعدة مُقيّدة على استثناء مشروع.


2
مَعَنَا أو ضِدَّنا!
(الثنائية الزائفة)



الشك في كل شيء، أو تصديق كل شيء

حَلَّان مناسبان يُغنِي كلاهما عن التفكير.

(هنري بوانكاري)

وَنَحْنُ أُنَاسٌ، لا تَوَسُّطَ عِنْدَنَا لَنَا الصَّدرُ، دُونَ العالَمِينَ، أو القَبرُ

(أبو فراس الحمداني)

إما أن يتعلم البشر أن يعيشوا كإخوة، أو يموتوا كالبهائم!

(ماكس ليرنر)

نادرا ما يكون الاختيار في السياسة بين الخير والشر،

ولكن بين الأسوأ والأقل سوءا. (ماكيافيلي)

"كل أمة في كل منطقة عليها أن تأخذ قرارا، إما أنكم معنا، وإما أنكم مع الإرهابيين."

هذا مقتطف من الخطاب الشهير الذي وجّههُ الرئيس الأمريكي السابق "جُورج بُوش" بعد أيام قليلة من هجمات 11 سبتمبر 2001. هما إذن خياران اثنان: إما معنا أو مع الإرهابيين.

كأنَّ الكون ضاق بما فيه فلم يَعُد يتَّسِع لفكرة ثالثة. وهل يُعقَل ألا يكون هناك بديل آخر؟ بلى، يوجد –على الأقل– خيار ثالث يُحرَك العقل قليلًا: أن تكون ضد الإرهاب، لكن في الوقت نفسه ضد السياسة الأمريكية في التعامل معه.



"إما أنكم معنا، وإما أنكم مع الإرهابيين." هذا ما قاله الرئيس الأمريكي السابق جورج بوش في خطابه الشهير بعد هجمات 11 سبتمبر 2001. يوجد على الأقل بديل ثالث واضح لهذين الخيارين، وهو معارضة الإرهاب ولكن أيضا معارضة سياسة الولايات المتحدة الأمريكية في التعامل معه. هذه الجملة الشهيرة هي مثال صارخ لمغالطة الثنائية الزائفة.

التفكير بمنطق «معنا أو ضدنا» يُغفل عمدًا أو سهوًا خيارًا ثالثًا واضحا وهو الحياد: "لستُ معكم ولستُ ضدكم". هكذا يتحول الاختلاف الفكري الطبيعي إلى معركة كُبرى بين معسكرَيْن: «نحن» الطيِّبون أصحاب الحق المُطلَق، و«هُم» الأشرار الخارجون من الجحيم. هذا التبسيط المضحك –وإن كان مُخيفًا– المُرتَكِز على عاطفة الانتماء للجماعة، هو وقودٌ أساسيٌ للعنصريَّة، والتشدُّد، والجمود الذهني، ولِفَنِّ تخوين مَن سوَّلت لهم عقولهم أن يُفكِّروا بحرِيّة.

"مَعَنا أو ضِدّنا" هو إذن النّسخة الشعبيّة البارزة لمغالطة «الثنائيّة الزائفة»[54] (أو «الإحراج الزائف»). تحدث المغالطة عندما يبني الشخص حُجته على وجود خيارين اثنين فقط، بينما الحقيقة أنه يوجد على الأقل خيار ثالث تم إغفاله.

هذه المغالطة تُلغي كل المساحات الرمادية بين الأبيض والأسود البسيطة، فتَنبني على وَهم أنَّ هناك خيارين فقط، في حين أنّ الواقع –الأكثر تعقيدًا دائمًا– يعرض على المائدة بدائل أخرى. وكثيرا ما تُستَخدم هذه الحيلة بهدف الدفع لقبول أحد الخيارين من خلال إبطال الخيار الآخر. في هذه الحالة، يمكن كتابة الصورة المنطقية للمغالطة كما يلي:

(1) إما "أ" وإما "ب" (لا وجود لخيار ثالث)

(2) "أ" باطلة

(3) إذن "ب" صحيحة

قد يقول قائل: "ولكن الاستدلال صحيح، فالعبارة (3) هي نتيجة منطقية للمقدمتين (1) و (2). أين تكمن المغالطة إذن؟"

فعلا، الاستدلال سليم. المغالطة تحدث عندما تكون المقدمة (1) خاطئة، أي عندما يتم افتراض وجود احتمالين اثنين لا أكثر، بينما الواقع أن هناك احتمالات أخرى متاحة. أما إذا كان الاحتمالان الاثنان هما الوحيدان المتاحان، آنذاك تكون الثنائية صحيحة والحجة سليمة لا غبار عليها.

[54] False dilemma, false dichotomy, black and white fallacy, either-or fallacy.

أمثلة.

1. إما أن تفرض سلطتك على زوجتك، أو ستتسلَّط هي عليك!

وكأنَّ الحياة الزّوجيّة ليست سوى حَلبة مَصارعة، فيها غالِب ومغلوب. بَيد أنّ بعض الأزواج -ولِحُسن الحظ-قد ينجحون في الوصول إلى خيار ثالث أكثر إنسانيّة: الحوار، والإقناع، والتنازل المُتبادَل، حيثُ لا تَسلُّط لأحدٍ على أحد.



تُبرمج عقولنا منذ الطفولة المبكرة على تقسيم الناس إلى فريقين: "طيبون" و "أشرار". هذا التقسيم البسيط لا يعكس تعقيدات النفس البشرية التي تظل تتأرجح في المنطقة الرمادية بين الأبيض والأسود.

2. هل فهمتم الدرس كله أم لم تفهموا شيئا؟

سؤال مُغلق يَفترض أنّ العقول كلَّها إما مُنارة أو مُطفَأة. غير أنّ الواقع أرحَب: البعض فهموا والبعض لا، هناك من فهم بعض الأمور ولكن ليس كلها. لكي تصبح الثنائية سليمة، يمكن تصحيح السؤال بالشكل التالي: "هل فهمتم الدرس الذي شرحته لكم، أم يوجد بينكم من لم يفهم بعض الأمور؟"

3. عليك أن تحترمني وتعمل بكلامي، وإلا فأنت لا تحترمني وتضرب بكلامي عرض الحائط!

هُنا يُعرَض الموقف وكأنَّه طريق ذو مَخرجَيْن فقط. بينما عدد الخيارات الممكنة هو في الحقيقة أربعة.

	تعمل بكلامي	لا تعمل بكلامي
تحترمني	تحترمني وتعمل بكلامي	تحترمني ولا تعمل بكلامي
لا تحترمني	لا تحترمني وتعمل بكلامي	لا تحترمني ولا تعمل بكلامي

الخلط بين الاحترام وموافقة الرأي خطأ شائع. فكثيرون يَصعُب عليهم أن يَقبَلوا بأن احترامهم لا يَعني بالضرورة السير في ركاب آرائهم. يُمكن أن تُخالِف شخصًا وتظلُّ تُكنُّ له كل التقدير، بل قد يَزداد احترامك له لأنك تُناقشه بِنِدِّية وصدق.

4. "ما دُمتَ لا تمتلك الحُرِّيَّة في أن تصنع ما تُريد، فأنتَ مجرّد عبدٍ مُسَيَّر في هذه الحياة."

تُخفي العبارة ثُنائيّة زائفة: إمّا أن تكون حرّا طليقًا تُحرِّك الكون بإرادتك، أو عبدًا مُقيّدًا لا يملك شيئًا. والحقيقة أوسع من هذا التبسيط: فأنت حُرّ إلى حد

ما في قرارات كثيرة كالتعلُّم، والعمل، وبناء العلاقات، لكنك في الوقت ذاته عاجز أمام قوانين الطبيعة، وكل الظروف الخارجة عن إرادتك.

لا تستطيع	تستطيع
منع الأمطار من السقوط	وضع مظلة فوق رأسك
اختيار أبيك وأمك	اختيار شريك حياتك
تغيير ماضيك	التأثير في حاضرك

لستَ حرا بشكل مطلق، ولا مقيدا بشكل مطلق. أنت في منطقة رمادية بين الأبيض والأسود.

دعاء السكينة يُعبر عن هذا المعنى بطريقة جميلة: "ربي امنحني السكينة كي أتقبل الأشياء التي لا أستطيع تغييرها، والشجاعة لكي أغير الأشياء التي أستطيع تغييرها، والحكمة كي أميز بينهما".

عندما تركز تفكيرك وجهدك على الأمور التي يمكنك تغييرها، بدلا من تلك التي لا قدرة لك على تغييرها، ستتغير الكثير من الأشياء حولك!

5. هل مكملات الفيتامينات مفيدة أو مضرة للصحة؟

سؤال يَبدو عاديا ومشروعا، لكنَّه يُخفي ثُنائيّة مُضلِّلة تجعل من غير المُمكن الإجابة عنه بإطلاق. في حالات معينة، يوصي الأطباء بتناول جرعة محددة من حبات الفيتامين، ولكن الإفراط في استهلاكها قد يؤدي الى الإسهال ومشاكل في

المعدة والكبد والكلي. جواب السؤال يتعلق إذن بالحالة الصحية للشخص والجرعة المناسبة له. نفس الأمر ينطبق على الأدوية بل وحتى المواد الغذائية. خُذ الماء مثلًا، هل هو مفيد أو مضر؟ نقص الماء في الجسم قد يسبب الصداع والتعب والفشل الكلوي، والإكثار من شربه قد يؤدي الى مضاعفات سيئة من قبيل نقص في الأملاح المعدنية. لكي يكون الماء مفيدا، يجب تناول جرعات مناسبة. الجرعة اليومية المطلوبة مرتبطة بعدة عوامل منها الوزن، والسِّن، ودرجة الحرارة.

احذر من الخيارات التي تأخذ صيغة "مفيد أو ضار"، "جيد أو سيئ". في أغلب الأحيان، لا تكون الأمور بهذه البساطة.

كل شيء.. أو لاشيء

لماذا تَمتنع عن رمي العلك في الطريق؟ أتَظُن أنك بهذه الطريقة سَتَحُلّ مشكلة التلوث في البلد؟

ما رأيك في هذا الكلام؟ وكَأنّ صاحبه يقول لك: "إمّا أن تَحُل مشكلة التلوث بشكل كامل، أو لا تفعل أي شيء على الاطلاق! بالتأكيد، الامتناع عن رمي العلك لن يُنقذ الكوكب من جميع شرور التلوث، نعم. لكنّه سيساهم ولو قليلًا في نظافة الشارع.

"كل شيء أو لا شيء"[55] من أكثر الثنائيات الزائفة شيوعا. هذا النوع من الحجج الفاسدة يُسمى أيضا بمغالطة "الحل المثالي" أو "مغالطة النِّيرفَانَا"[56]. الخطأ الفادح في هذه المغالطة هو أ نها تُقصي حلولا عملية وواقعية بحُجّة أنها ليست مثالية. بعبارة أخرى، يُقدم المُغالِط حلَّين لا ثالث لهما: حلّ مثالي غير قابل للتحقيق (التخلص بالكامل من مشكلة التلوث) وحلّ سلبي تماما (عدم القيام بأي شيء). وبهذه الطريقة، يتمّ استبعاد كل الحلول الجزئية والواقعية (الامتناع عن رمي العلك) فقط لأنها ليست مثالية.

الفيلسوف فولتير عبّر عن هذا الأمر بجُملته البليغة: "الأفضل هو عدُوّ الجيد[57]."

هل نستغني عن استخدام حزام السلامة لأن الناس لا زالوا يموتون في حوادث السيارات؟ هل نمنع العلاج الكيميائي لأنه لا يقتل فقط الخلايا السرطانية ولكن أيضا بعض الخلايا السليمة؟ بل هل نمتنع عن تناول مُجمل اللقاحات والأدوية بسبب أضرارها الجانبية؟

عندما يؤذيك الناس تبدو لك العزلة قرارا جيدا، وعندما تنعزل عنهم تشعر بوحدة قاسية. تمضي وقتا طويلا في البحث عن المسافة المناسبة المطلوبة بينك وبينهم. ع

ندما تفكر فيما يمكن أن تقوم به، تبدو الحرية أمرا رائعا، ولكن عندما تفكر فيما يمكن أن يقوم به الآخرون، تبدو الحرية أمرا مخيفا!

يبدو أن الحلول المثالية، التي لا ضرر فيها على الإطلاق، هي نادرة إن لم تكن منعدمة. معظم الحلول تتضمن نقاط قوة ونقاط ضعف، أرباحا وخسائر، فوائد للبعض وخسائر

[55] All-or-nothing fallacy
[56] The perfect solution fallacy, The nirvana fallacy
[57] Le mieux est l'ennemi du bien (The best is the enemy of the good)

للبعض الآخر. واللعبة كلها تكمن في الموازنة بين هذه وتلك، للخروج بحل قد يضمن أكبر ربح بأقل الخسائر.

عندما يدخل طرفان في مفاوضات سياسية أو تجارية أو حتى عائلية، يكون تقديم تنازلات من الجهتين شرطا مُهما إذا كانت لديهما الرغبة في التقدم إلى الأمام.

يصعب الوصول إلى حلّ مع مَن يُفكر بمنطق "كل شيء" أو "لا شيء".

بين اللَّاشيء وكل شيء توجد أشياء!

في النهاية، تَذَكَّر هذا جيدا: لا وُجود لِحُلول مثالية! لِكل دواء أضرار جانبية، ولِكل حَلّ مشكلة. لهذا، متى وجدتَ نفسك تنتقد حلًا بِسبب بعض عُيوبه، احذر من أن يَجرفك اندفاعك للدفاع عن حل أكثر سوءا!

النفي ليس هو الضد

هل تُصدق كلامي أو تُكذبه؟

سؤال يُوحي بوجود خيارَيْن لا ثالث لهما: إمّا التصديق وإمّا التكذيب. غير أنَّ العقل النقدي يعرفُ جيّدًا أن هناك بديلًا ثالثًا أكثر عُمقًا: التشكيك. فالتشكيك هو نقطة الانطلاق في كل تفكير عقلاني؛ إذ لا يُبنى التصديق أو التكذيب إلّا على أساسٍ من الأدلّة الكافية. وإذن، عدم التصديق لا يعني بالضرورة التكذيب، فالتشكيك هو أيضا نوع من عدم التصديق.

من المهم أن تُفرق بين «النفي» و«الضد». النفي أوسع وأشمل، أمّا الضد فهو أقصى نقطة في طيف النفي. فإذا كان الأبيض ضدّ الأسود، فإن «نفي الأبيض» يشمل كلَّ ما ليس أبيض: أسود، رمادي، أخضر، أحمر... وهكذا.

الكلمة	ضدها	نفيها
أبيض	أسود	كل ما ليس أبيض (رمادي، أخضر، أصفر، ...)
غني	فقير	كل من ليس غنيا (فقير، فرد من الطبقة المتوسطة)
صديق	عدو	كل من ليس بصديق (عدو، شخص لا علاقة لك به، ...)
عالم	جاهل	كل من ليس بعالم (مع بعض التحفظ في المعنى الدقيق لكلمة عالم)
طيب جدا	شرير جدا	كل من ليس بطيب جدا
أحب	أكره	لا أحب (أكره، شعور محايد، ...)

هل يَختلِف الضِّد عن النفي في جميع الحالات؟

لِنفترض أنَّك تغيّبتَ عن حضور حفلٍ عائليّ. عدم حضورك هنا يعني غيابك، ولا وجود لخيارٍ ثالث بين الحضور والغياب. إنَّه تمامًا كما في مسألة الحياة والموت: إمّا أن يكون الإنسان حيًا أو ميّتًا، ولا وُسطى بينهما. في مثل هذه الحالات، يكون "الضد" هو نفسُه "النفي".

ولهذا يُفرّق بين نوعَيْن من الأضداد: أضداد لها أوساط (مثل الأبيض والأسود، حيث يمكن أن يكون الشيء رماديّا أو أخضر)، وأضداد ليس لها أوساط (مثل الحي والميت). الثنائيات من النوع الأوّل قد تكون زائفة إذا عُرضت وكأنَّها لا تحتمل بدائل، أما الثنائيات من النوع الثاني فهي صحيحة منطقيًا ولا غبار عليها.

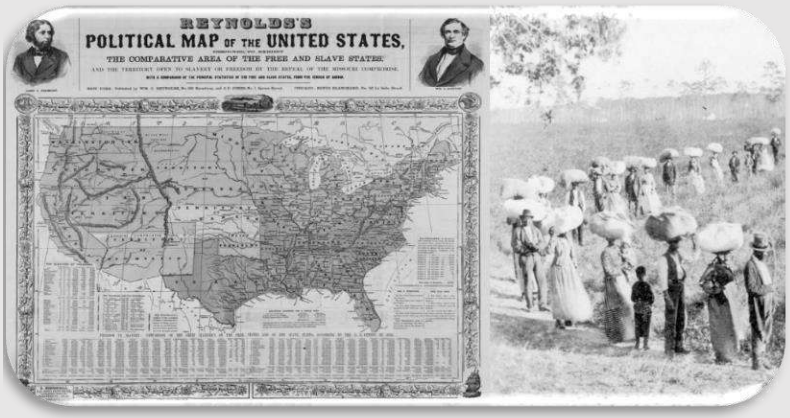
الثنائيات ليست كلها زائفة. في عام 2002 صرّح وزير الدفاع الأمريكي «دونالد رامسفيلد» عن مكان «أسامة بن لادن» قائلًا: «لدينا معلومات مؤكَّدة أنَّه إمّا أن يكون في أفغانستان، أو في بلد آخر، أو أنَّه ميّت.» عبارة قد تبدو استخبارية عميقة، لكنَّها في الواقع تحصيل حاصل: كل إنسان إمّا أن يكون في مكان ما، أو في غيره، أو يكون قد فارق الحياة!

هذا هو "مبدأ الثالث المرفوع"[58]. الثنائيات المبنية على النفي (مبدأ الثالث المرفوع) هي إذن سليمة ولا غبار عليها، أما الثنائيات المبنية على الضد فهي غالبا ما تكون زائفة. إما أنك فهمت هذا المبدأ جيدا، أو لم تفهمه جيدا، ليس أمامك من خيار ثالث!

[58] مبدأ الثالث المرفوع Principle of excluded middle هو أحد مبادئ التفكير الثلاثة Laws of thought التي ذكرها أرسطو : مبدأ الهوية Principle of identity(أ هي أ) ، عدم التناقض Law of non-contradiction (يستحيل أن تكون "أ" و "نفي أ" كلاهما صحيح).

هل الحكمة في الوسطية؟

"لا إفراط ولا تفريط"، "خير الأمور أوسطها"، "الاعتدال مطلوب". عبارات نسمعها كثيرا عندما يتم طرح رأيين متضاربين، فتُربط الحكمة بالوسطية والتعقل بالتوازن والاعتدال. عندها يبدو الموقف الوسط أكثر الخيارات إغراءا وجاذبية، فنميل لاعتباره عين الحكمة والصواب.



هل نسمح بالرق أو نمنعه؟ هذا السؤال كان موضع نقاش خلال منتصف القرن 19 بالولايات المتحدة الأمريكية، ونتج عنه رأي وسط يقترح السماح بالرق في المناطق حيث وُجد أصلا، ومنعه في المناطق الجديدة. الخريطة توضح توزيع الجهتين. واضح أن الموقف المتطرف (تحرير كل العبيد) هو أفضل بكثير من الموقف الوسط المعتدل (تحرير بعض العبيد).

لكن التاريخ لا يرحم هذه القاعدة المريحة. في منتصف القرن التاسع عشر بأمريكا، كان الجدل محتدماً حول مسألة الرقّ: فريق يُصرّ على الإبقاء على العبيد، وفريق يُطالب

بتحريرهم جميعًا. فظهر رأي «معتدل» يَسمح بالرق حيث وُجد أصلًا، ويَمنعه في المناطق الجديدة. ذلك الموقف الذي عُدّ وسطًا معقولًا آنذاك، يُعتبر اليوم همجيًا لا إنسانيًا .

التطرّف كلمة مشحونة سيئة السمعة في عقولنا، لذلك يبدو الاعتدال أنسب الحلول. غير أن ما يغيب عن الأذهان هو أن التطرف والاعتدال نسبيان، يختلفان باختلاف المرجع الذي تُقارن به الأفكار. تجريم العبودية كان ذات يوم موقفا متطرفا بالنسبة للأفكار السائدة، لكنه في عصرنا أصبح من بديهيات حقوق الإنسان.

الوسطية قد تكون حلًا عمليًا في المفاوضات والنزاعات، حيث الهدف إرضاء جل الأطراف. أما إذا كان الهدف الوصول إلى الحقيقة، فحجة الوسطية والاعتدال تفقد قيمتها. اعتبار أن رأيا ما هو صحيح أو جيد، لمجرد أنه موقف وسط بين موقفين متعارضين، هو مغالطة منطقية تحمل اسم "حجة الوسطية"[59]. قد يكون الموقف المعتدل جيدا لأسباب أخرى، ولكنه ليس جيدا فقط لأنه معتدل.



مفارقة الاعتدال

إذا كنت تعتقد أنه يجب الاعتدال في كل شيء، إليك هذه المفارقة: بما أنك تريد الاعتدال في كل شيء، سيتوجب عليك أن تعتدل حتى في الاعتدال. وإذا اعتدلت في الاعتدال، وجب عليك إذن ألا تعتدل في كل شيء. بعبارة أخرى، ستجد بعض الأمور التي ستكون فيها غير معتدل بتاتا!

[59] باليونانية Argumentum ad temperantiam
بالإنجليزية Argument to mderation, argument from middle ground, golden mean fallacy, false compromise

أمثلة

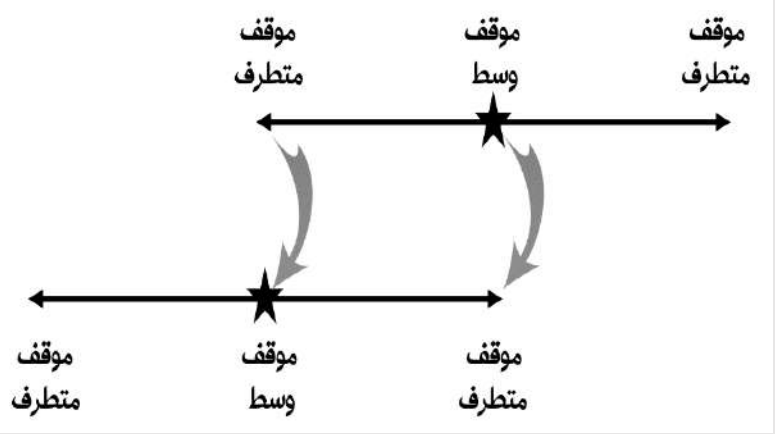
1. ليس جيدا أن تكذب دائما، ولا أن تقول الحق دائما. خير الأمور الوسط.
2. بعض الشعوب ترفع السن الأدنى للزواج إلى 18 سنة، وبعضها تخفضه إلى 6 سنوات. أظن أن الحل الوسط 12 سنة هو الأفضل.
3. "يجب ألا نكون متشددين في حظر جميع الأسلحة على الناس ومنعهم من الدفاع عن أنفسهم، ولا أن نذهب إلى الحد المتطرف الآخر الذي يسمح للجميع باستخدام أسلحة خطيرة كالمدافع والرشاشات. الاعتدال مطلوب، نسمح لهم فقط باستعمال المسدسات."

   يمكن لمتحدث آخر أن يجادل قائلا: "لا يجب أن نسمح باقتناء المسدسات التي تشجع على الجريمة، ولا أن نمنع محبي الصيد من ممارسة هوايتهم. الحل الوسط هو السماح باقتناء بنادق الصيد فقط! نتائج متناقضة.. والحجة واحدة: "خير الأمور الوسط".
4. دعك من أحزاب اليسار ومن أحزاب اليمين. حزبنا هو حزب الوسطية والاعتدال. بنفس منطق الوسطية[60]، يمكن لأحد أنصار اليمين المعتدل أن يدافع عن حزبه باعتباره وسطا بين اليمين المتطرف وبعض أحزاب اليمين الأخرى، كما يمكن لأحد مناصري اليمين المتطرف أن يبرر موقفه بطرد المهاجرين باعتباره وسطا بين اليمين المعتدل الذي لم يتخذ أي إجراء ضد المهاجرين، وبين بعض

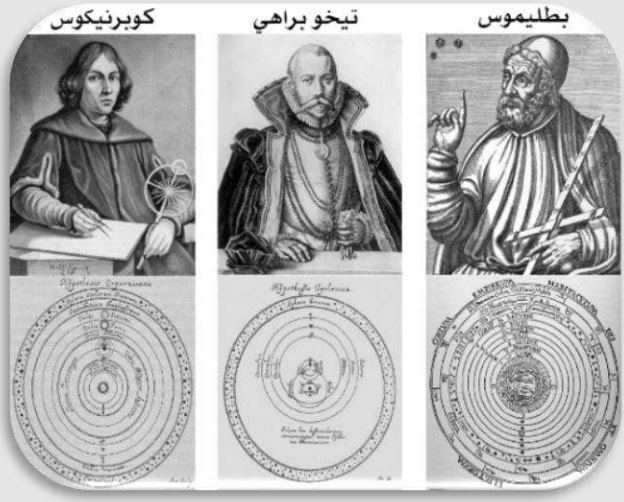
[60] في السياسة، تشير الوسطية عموما إلى توجه بين الفكرة المثالية للمساواة، وبين واقع الطبقية الاجتماعية. في الاقتصاد، تشير الوسطية إلى الموازنة بين تحرير السوق وتدخل الدولة. وفي الجانب الفكري الثقافي، تحاول الوسطية أن تقف على مسافة واحدة من التيارات المحافظة والتقدمية.

الفوضويين الذين يهاجمون المهاجرين ويحاربونهم بعيدا عن أنظار أجهزة الدولة.

باختصار، يمكن للموقف المتطرف أن يصبح وسطا، كما يمكن للموقف الوسط أن يصبح متطرفا، يكفي تغيير الطرفين المتعارضين للحصول على وسط مختلف. بهذه الطريقة، يمكنك الدفاع عن أي رأي تتخيله باعتباره وسطيا معتدلا، كل ما هو مطلوب منك هو اختيار الأطراف المتعارضة المناسبة.



يكفي تغيير الطرفين للحصول على وسط مختلف، فيصبح الموقف الوسط متطرفا والموقف المتطرف وسطا. بهذه الطريقة، يمكنك الدفاع عن أي موقف تريده من خلال حجة الوسطية، يكفي أن تختار الأطراف المناسبة.



بين نظرية "بطليموس" التي تدعم مركزية الأرض، ونظرية "كوبرنيكوس" الداعمة لمركزية الشمس، تَبنَّى الفلكي "تيخو براهي" في القرن 16 موقفا وسطا اقترح فيه أن كل الكواكب تدور حول الشمس، باستثناء الأرض التي تدور حولها الشمس. هذا الطرح المعتدل وجد فيه بعض اليسوعيين حلا وسطا بين نصوص الكتاب المقدس ونتائج الاكتشافات العلمية. مع مرور الوقت، تبين أن هذا الموقف الوسط كان خاطئا، وأن موقف كوبرنيكوس المتطرف كان صائبا.

رِهَان بَاسكَال: لماذا يجب أن تُؤمن؟

في كتابِه "خَواطر"[61]، قدَّم الرِّياضي والفيلسُوف "بلِيز بَاسكَال" رِهَانه الشهير الذي صار معروفا بِرِهان بَاسكَال[62]. فِكرة الرِّهَان يُمكن تَلخيصها فِيما يَلِي: بِما أنَّك عاجز عن تقديم أدلّة قاطعة وملمُوسة تُثبت صِحَّة أو عدم صِحة بعض القضايا المُتعلّقة بالإيمان الدِّيني، (وجود الله، الجَحيم الأبدي، الجنّة، ...)، وبما أن من طبيعة المُستقبليات عدم إمكانية التحقُّق منها، فالأسلم لك اتِّقَاءَ لِلعقاب الأبدي أن تُراهن على الإيمان. في النهاية:

- إذا آمنتَ وكان إيمانك صائبا، فسَيكُون جزاؤُك رِبحا غير مَحدُود في النّعيم الأبدي.

- إذا آمنتَ وكان الإيمان أمراً باطلاً، فستكون خسارتك محدودة في الحياة ولن تَخسر شيئا في العالم الآخر.

- إذا لم تُؤمن وكان الإيمان أمرا صحيحا، سيكُون جزاؤك خسارة لامحدودة في الجحيم الأبدي.

- إذا لم تُؤمن وكان الإيمان أمرا بَاطلا، فسيكون ربحك محدودا في الحياة ولن تَخسر شيئا في العالم الآخر.

	إيمان	عدم إيمان
إيمان صحيح	ربح غير محدود (نعيم أبدي)	خسارة غير محدودة (جحيم أبدي)
إيمان باطل	خسارة محدودة في الحياة	ربح محدود في الحياة

[61] Pensées, Blaise Pascal.

[62] Pascal's wager.

كان بَاسكَال مِن مُؤسِّسِي حساب الاحتمالات. وبالنَّظر إلى هذه الإمكانيات الأربع، استنتج أنَّه من الأسلَم لكل إنسان عاقل أن يُراهن على الإيمان لِضمان النَّجاة من الجحيم الأبدي.

لم يَدَّعِ بَاسكَال أنّ رِهَانه هو دليل على الإيمان، بل كان هدفُه تَنبيه كلِّ عقل مُشكِّك إلى ضرورة أخذ قرار براغماتي في موضوع الإيمان عبر الرِهان على الاختيار الأكثر رِبحا والأقل خسارة. ورغم أن حُجّة بَاسكَال تبدُو في البداية قويّة ودامغة، إلَّا أنَّها تُخفي مشكلة حقيقية. كيف؟



الفيلسوف والرِّياضي "بليز بَاسكَال" صَاحب الرِهَان الشّهير الذي يَحمل اسمَه. حسب رِهان بَاسكَال، من الأفضل للإنسان أن يُراهِن على الإيمان لِضَمان النَّجاة من عقاب أبدي مُحتمَل.

كان «باسكال» مسيحيًا كاثوليكيًا، لذلك صاغ رِهانه الشهير على أساس احتمالَيْن لا ثالث لهما: إمّا الإيمان بالعقيدة الكاثوليكية، أو عدم الإيمان أصلًا. إلا أن هذا التصوّر يَقع في مغالطة «الثنائية الزائفة»، إذ يتجاهل إمكانية الإيمان بعقيدة أخرى غير العقيدة الكاثوليكية.

لكن ما الذي يحدث لو كان الإيمان الحق مرتبطًا بدين غير الكاثوليكية؟ في تلك الحالة، قد يجد المؤمن الكاثوليكي نفسَه مُعرّضًا لعقاب في جحيم آخر لم يضعه في حسبانه! وبما أن العالم يزخر بمئات المعتقدات، فإن خيار الإيمان بدين «خاطئ» يظل قائمًا ومجهول العواقب. ولو حاولنا تصحيح رهان باسكال بحيث يستوعب جميع الأديان التي تُؤمن بعقاب أبدي، لكان الأجدر بالمراهن أن يُؤمن بها كلِّها دفعة واحدة! لكن هذه المحاولة تسقط فوراً في استحالة منطقية، إذ إن الديانات التوحيدية نفسها ترفض فكرة تعدُّد الآلهة.

بالإضافة إلى وقوعه في مغالطة "الثنائية الزائفة"، واجه "رِهان باسكال" العديد من الانتقادات عبر التاريخ من طرف فلاسفة ورجال دين. بعض اللَّاهُوتيين اعتبروا أن الرهان هو فكرة مَقِيتة تختزل أهم حقيقة في لعبة حظ (الوجه والقفا)، وأن الإنسان لا يستطيع أن يكون مؤمنا حقيقيا بمجرد اتخاذ قرار إرادي يغيب فيه الاقتناع. الفيلسوف "إتيَان سُوريُو"[63] اعتبر أن نجاح الرهان يفترض أن الله يقبل فكرة الرهان، وهو أمر غير أكيد. إذا رَاهن شخص على الإيمان بدافع الخوف من إمكانية العقاب الأبدي، بينما عقله في الواقع مليء بالشّكوك، ألَنْ يَعرف الإله ذُو العلم اللَّامحدود أن ذلك الشَّخص لم يُؤمن بِه إِيمانا حقيقيا بل فقط بدافع المصلحة؟ ما الذي يَضمن للشخص الذي تبَنَّى رِهان بَاسكَال أن ينْجُو من عقاب الإله الذي يَعلَم ما في القلوب ولا ينخدِع لنِفَاق البشر؟

في النهاية، تجدر الإشارة إلى أن بُطلان رهان باسكال في الدفاع عن الإيمان لا يعني طبعا بُطلان الإيمان نفسه، فالفكرة الصحيحة قد تَجِدُ من يُدافع عنها بِحُجَج باطلة.

ما يمكن الجزم به هو أن الإيمان بحاجة إلى أسس أعمق من كونه مجرّد لُعبة رِهان ومقامرة.

[63] Etienne Souriau

باختصار

1. تحدث مغالطة "الثنائية الزائفة" عندما يبني الشخص حُجته على وجود خيارين اثنين فقط، بينما الحقيقة أنه يوجد على الأقل خيار ثالث تم إغفاله.

2. "كل شيء أو لا شيء" من أكثر الثنائيات الزائفة شيوعا. الخطأ الفادح في هذه المغالطة هو أنها تُقصي حلولا عملية وواقعية بحُجّة أنها ليست مثالية. بين "اللاشيء" و"كل شيء" توجد أشياء.

3. النفي أكثر شمولية من الضد. الثنائيات المبنية على النفي هي صحيحة في كل الأحوال، عكس الثنائيات المبنية على الضد، فهي معرضة للخطأ.

4. تقوم مغالطة "حُجة الوسطية" على اعتبار أن موقفا ما هو صحيح أو جيد لمجرد أنه موقف وسط بين رأيين متعارضين. قد يكون الموقف المعتدل جيدا لأسباب أخرى، ولكنه ليس جيدا لمجرد أنه معتدل.


3
كيف تَرجُو فكرة جيّدة
مِن شخص سيّء؟
(الشَّخْصَنَة)

لا تنظُر إلى مَن قال، وانظُر إلى ما قال.

(الإمام علي بن أبي طالب)

خُذي رَأيي وَحَسبُكِ ذاكَ مِنّي عَلى ما فِيَّ مِن عِوَجٍ وَأَمتِ

(أبُو العَلاء المعرّي)

هل يَكون الحُبّ سيّئا إذا أَحَبَّ الشيطان؟

(جُولِيَان بَاجِينِي)

كان القدماء يسمعون الحقيقة ولو من شجرة بلُّوط أو صخرة، يَكفِيهم أنَّها الحقيقة. أمَّا أنت فِيما يَظهر فلا يَكفيك أن تعرف إذا كان الشيء حقيقة أوْ لا، بل يَهُمّك أن تعرف مَن القائل ومِن أيّ بلاد جاءت القصة.

سقراط (محاورة فيدروس لأفلاطون)

يُحكى أن رجلاً وجد أعرابياً مع بَعِيره بالقرب من نهر. لاحظ الرجل حَمْل البعير وهو عبارة عن كِيسَيْن، فسأل عن مُحتوَاه.

قال الأعرابي: الكيس الأول يَحتوي على المَؤُونة والكيس المقابل يحتوي تُراباً لِيَستَقِيم الوَزن في الجِهتَين.

استغرب الرجل ثم قال: لماذا لا تستغني عن كيس التراب وتقسم كيس المؤونة نصفين متساويين في الجهتين فتكون قد خفَّفْتَ الحمّل على البعير؟

فقال الأعرابي: صَدَقت! ثم فَعل ما أشار إليه الرجل.

بعدها سأل الأعرابي الرجل: هل أنت شيخ قبيلة أم شيخ دين؟

فقال الرجل: لا هذا ولا ذاك، بل رجل من عامة الناس.

فقال الأعرابي: قبّحك الله! لا هذا ولا ذاك ثم تُشير عَلَي! ثم أعاد حُمُولة البعير كما كانت!

قد يبدو موقف الأعرابي في هذه القصة نوبةَ تهوّر أو لحظةَ جنون، لكنه في الحقيقة مرآة تُجسِّد خطأً يُلازِمنا أكثر مما نتصوّر: خلطُ الفكرة بصاحبها. فالقصّة الساخرة تكشف حكمةً مُرّة : قد تأتيك الحكمة من شخص تَعتبره نَكِرَة، وقد تأتيك السَّخافة من شخص تضعُه في مرتبة القُدوة!

الخلط بين الفكرة وقائلها من أكثر المغالطات تداولا في حياتنا اليومية.

" مَعتُوه وخبيث ومريض نفسي بل وعميل خائن، وفي أحسن الأحوال جاهل مُغفَّل لا يفقه شيئا!" هذه نماذج تعليقات تمتلئ بها مواقع التواصل الاجتماعي كَرَدّ على أصحاب بعض الآراء. هؤلاء المعلِّقون يصفق لهم جمهورٌ مبتهج، كأنهم قد أسكتوا الخصم بحُجّة دامغة لا يُنكرها إلا مُكابر! ولا يدركون أنّهم لم يأتوا بحجّة أصلاً.

يتفق معظم الناس أن أسلوب القدح والقذف هو مسّ بالأخلاق والذَّوق السليم ولا يَليق بالنقاش الحضاري ولا بِأدب الحوار. بِغَضّ النظر عن الإشكال الأخلاقي في هذا الأسلوب، والذي ليس هو ما يهُمّنا في هذه السطور، إلا أن هناك إشكالا منطقيا في هذا الأمر.



في النقاش الفكري الصحيح، تكون سهام النقد مُوجهة للأفكار وليس للأشخاص. الطّعن في شخص خصمك بدلا من حُجَجه هو خطأ في إصابة الهدف وخروج عن الموضوع.

الطَّعن في الشخص ليس في حد ذاته مغالطة منطقية، لأن الطَّعن من الأساس ليس حُجة. ولكن عندما تقوم بمهاجمة شخص خصمك من خلال الإشارة إلى أمور شخصية فيه، وتتصوَّر أنك بذلك قد قُمتَ بِتَفْنِيد رأيه الذي لا صلة له بتلك الأمور، فأنت تقع في مُغالطة الشَّخْصَنَة[64].

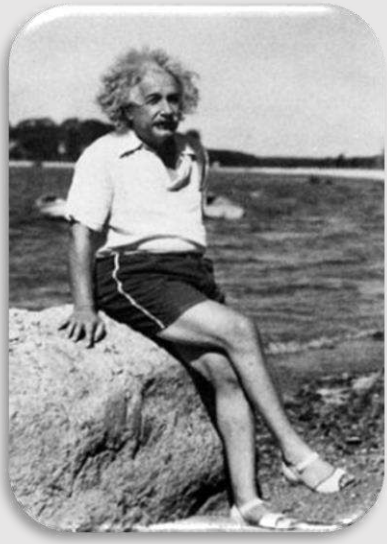
باستطاعتك أن تُسدِّد سِهامك وتَطعن في صفات خصمك ونواياه وأهوائه وظروفه ومصالحه، ومع ذلك يَظلُّ رأيه صامدا بعيدا عن مَرمى سِهامك، لأن صواب الفكرة لا علاقة له عموما بصاحب الفكرة.

إذا قال أحدهم إن مجموع واحد واثنين يساوي ثلاثة، فلن يصير كلامه خاطئا لمجرد أنه عدو لدود أو شخص مجنون! صواب الفكرة يظل قائماً مهما تعثّرت ألسنةُ أصحابها أو تلطّخت حياتهم الخاصة.

[64] باللاتينية ad hominem و تعني "ضد الشخص"

الفكرة شيء قائم بذاته وبعيد كل البعد عن شخص صاحبها. فإذا وجَّهتَ سِهامك نحو الشخص معتقدا أنك قد أصبت فكرته، فأنت تخطئ الهدف! الطعن في شخص خصمك بدلا من حججه هو ببساطة خروج عن الموضوع!

وبالمقابل، لا يُغريك إعجابك بشخصٍ حتى تُسلِّم له بصواب آرائه؛ فهذا الوجه الآخر للعملة: مغالطة «الاحتكام إلى السّلطة». فكما أنّ الطعن في صاحب الرأي لا يُسقط الرأي، فإن تمجيد صاحبه لا يُثبت الرأي.



كان معروفا عن الفيزيائي ألبرت إينشتين سوء اهتمامه بهندامه، وهذا بالطبع ليس سببا معقولا لرفض نظرياته العلمية!

لكن هل يعني هذا أن كُل طعنٍ في فكرة مَا، بِناءَ على أمور شخصية تتعلّق بِصاحبها، هو مغالطة منطقية؟ ليس دائما.

لنلاحظ أن الشخصنة تكون مغالطة إذا كانت الأمور الشخصية التي تمّ الطَّعن فيها لا صِلة لها بالفكرة، أما إذا كانت لها صِلة وثيقة بالفكرة، فالحُكم قد لا يكون مُغالِطا من الناحية المنطقية. إذا تَقدَّم أحد المُتبارين لِنَيل وظيفة، وقال للَّجنة المسؤولة إنه كُفء لنيل المنصب، فإن ادّعاءه له صِلة مباشرة بشخصيته ومهاراته وأخلاقه. وإذا ثبت وجود عيب

في كفاءته أو أمانته، فهذا قد يطعن في ادّعائه، أو على الأقل سيرفع من مستوى الشك في هذا الادعاء.

الشخصنة تتلوّن بأشكالٍ شتّى، وسنحاول كشف أبرزها من خلال الأمثلة التالية.

أمثلة

1. كيف نقبل رأيَ شخصٍ يُخطِئ في النحو، ولا يُحسِن حتى أبسطَ قواعد اللغة؟

اعتراض يبدو قويّا، لكنّه في جوهره زائف .تستطيع أن تُقدم السخافة في أبهى حلّةٍ لغويّة، مزدانةً بوزنٍ وقافية، كما تستطيع أن تكسو الحقيقة ثوباً ركيكاً مليئاً بالأخطاء دون أن تُفسد جوهرها.

هذا اللون من الشَّخصنة يُسمّى "مغالطة الهجوم على الشخص"[65]. في هذه المغالطة، يُؤْخَذ عيبٌ في الشخص كَدليل على خطأ رأيه، رغم انعدام أية صلة مُسبقة بين الرأي والعيب المذكور.

هل تُقصي رأياً لأن صاحبه يحمل شهادة أدنى من شهادتك؟ وهل تزدري نصيحة قريبٍ فقط لأن كأس الخمر رفيق دربه؟ وهل تُسقِط النظرية النسبية لأنَّ أينشتاين لم يكن بارعاً في تنسيق هندامه؟ إذا كنت تفعل، فهنيئاً لك القدرة على نَسف كلّ فكرٍ أنتجه البشر، إذ يكفيك أن تنبَش في حياتهم الخاصة لتجد عيباً تُعلّق عليه مشنقة أفكارهم !

[65] Ad hominem abusive, personal attacks.

2. ذلك البرلماني يُدافع عن خفض فوائد القروض على الفلاحين لا لشيء إلا لأنه يَملك مزرعة كبيرة. ينبغي الوقوف ضدّ هذه الاقتراحات السيئة، فهؤلاء السياسيون لا يخدمون إلا مصالحهم!

من الوارد طبعا أن تُؤثر المصالح الشخصية على آراء أصحابها، ولَنَا كلُّ الحق في إبداء الكثير من التَّحفُّظ والحذر من هذا التأثير. فنحن نتوقَّع من السياسيين أن تظلَّ حملاتهم الانتخابية طاهرة من دعم الجهات الساعية وراء مصالحها، وننتظر من الأطباء ألا تُصاغ أبحاثهم على مقاس شهوات شركات الأدوية، كما ننتظر من القاضي أن يترفع عن الفصل في قضيةٍ قد تمسّ مصالحه الخاصة، صونًا لنزاهة القضاء وحفاظًا على صفاء ميزان العدالة.

لِنَعُد إلى مثالنا: هل حقيقةٌ أنّ البرلمانيّ سيغنم من خفض فوائد القروض تُعَدُّ سببًا كافيًا لرفض الفكرة من أساسها؟ الجواب هو بالطبع لا. فقد يكون القرارُ خيرًا مُضاعفًا للفلاحين البسطاء. ولن يكون من الحكمة أن نضرب مصلحة جموعٍ عريضة، لمجرّد أنّ رجلاً واحدًا سيقطف معها بعض الثمار. معظم القرارات الكبرى تُنجب فريقًا مستفيدًا يُصفِّق، وآخر متضرّرًا يَحتجّ؛ لهذا كان لزامًا أن يُبنَى الحُكم على رؤية شُمولية تُحيط بالمشهد كلّه. وبالمثل، هناك من يَدعون إلى مقاطعة الأدوية، متعلِّلين بأن الشركات العملاقة هي المستفيد الأول من استهلاكها. عجبًا! كأنّنا لم ندرِ بعد أنّ جميع الشركات تعمل من أجل الرِبح. لكن، هل يُعَدُّ هذا سببًا وجيهًا لتعريضِ صحّة الناس للهلاك؟

عندما تُؤخَذ الظروف الشخصية أو المصالح الخاصة لصاحب منتوج، فكري أو مادي، كدليل على فساد ذلك المنتوج، فنحن أمام مغالطة "الظُّروف الشَّخصية"[66] .

2. كيف تُريدني أن أُصغي إلى مواعظِكَ في أضرار التدخين وأنتَ تنفثُ دُخانه كل يوم؟!



ليس شرطا أن يكون الشخص الذي ينصحك كاملا، ولكنه قد يعطيك شيئا ينقصك.

إنَّه لَمِن المُستفزّ أن تتلقَّى نصيحة من شخص لا يلتزم بها، فتجد نفسَك ميَالًا إلى أن تضرب بكلامه عرض الحائط. وكيف لا، والفضيحة هنا بيِّنة، تُعرّي التناقض الفجّ بين الأقوال والأفعال. أما قال الشاعر:

لا تنهَ عن خلُقٍ وتأتيَ مثلَه

عارٌ عليك إذا فعلت عظيم.

ومع ذلك، دعنا نُنزِل النصيحة من فوق أكتاف صاحبها ونضعها على طاولة الفحص وحدَها: هل مجرّد أنّ الناصح مُدخِّن يعني أنّ نصيحته رديئة؟ منطقيًا، الجواب: لا. فصوابُ القول لا يَرتبطُ بسلوك قائله. أضرار التدخين حقيقة قائمة، حتى لو نطق بها مُدمن يُنهك رئتَيه بخمس عُلب سجائر يوميًا.

[66] Ad hominem circumstantial.

هذه المغالطة تسمى باللغة اللاتينية "Tu quoque" وتعني "أنتَ أيضا"، حين يَتوهّم المغالِط أنَّ تناقض خصمه بين قوله وفعله يُسقِط حجّته. ثم يُخيّل إليه أنّه قد انتصرَ وجرّ خصمه إلى ساحة العار، في حين أنّ الحقيقة ما زالت لازمة مكانها.

هل ترفض وصايا والديك بالاجتهاد في المدرسة لمجرّد أنّ أحدهما لم يُكمل تعليمه؟

هل ستَسخر من انتقاد أحدهم لقيادتك المتهوّرة لأنَّه هو نفسه سائقٌ بائس؟

هل تُلقي نصائحَ طبيب التَّخسيس أرضًا لأن بطنه مُتدلّية؟

وهل تَصُمُّ أُذُنَيك عن تحذيرات مخاطر المخدرات لأنّ الشخص الذي ينصحك مرّ بتجربة الإدمان؟

بل هل تُبطل حقوق الإنسان كلّها لأنّ بعض الدول لتي تُروِّج لها تنتهكها صباح مساء؟

الحكمة تقتضي التمييز بين الفكرة ومُمارستها، وبين النظرية وتطبيقها. التطبيق السيّئ لا يَنسِف قيمة التنظير. وكما لا ينبغي أن يُحاكم دينٌ على زلّات أتباعه، بل على نصوصه وأصوله، كذلك ينبغي أن يكون الحكم على الرأي بناءَ على حُجَجِه وليس من خلال سلوك مُعتقِديه.

4. إنه الهُرَاء بِعينه! قبل سنوات كان ذلك الكاتب يُدافع بشدة عن الإبقاء على عقوبة الإعدام، واليوم يتراجع عن كلامه ليصبح من أكبر المُتحمِّسين لإلغائها!

التهمة الموجهة للكاتب هنا هي التقلّب وعدم الثبات. لكن السؤال الأعمق: هل تغيير الإنسان لأفكاره ينزع أية قيمة عن تلك الأفكار؟ أبدًا، وإلا وقعنا مُجدَّدا في مغالطة الشخصنة.

بل إنَّ مراجعة الإنسان لأفكاره هي فضيلة وليست عيبًا. فالتشبّث بالرأي على نحوٍ صخريٍ جامد هو البلاء الحقيقي. أمّا إعادة النظر، فهي التي تُنمّي العقول وتُطوّر العلوم وتُصلِح القوانين والدساتير. شخصياً، كثيرة هي الآراء التي كنتُ بالأمس مُتَيقِّنا من صوابها، ثم هجرتُها اليوم، لهذا لن أستغرب إذا ما تراجعتُ غدا عن بعض الأفكار التي أجزمُ اليوم بِصِحَّتها.

"لستُ دائما على رَأيِي"[67]، جميلة هذه المقولة للشاعر والفيلسوف "بُول فَالِيرِي". فغيابُ الثبات هنا ليس فضيحة، بل علامة حياة. فأنت لم توقّع عقدًا أبديًا يربطك بأفكارك الأولى، وحتى لو فعلت، فالعقل نفسُه قد يثور عليك ليَذكِّرك أنّ التغيير من طبيعتك.

كيف تُوافق أولئك الأشرار؟

ما حكمُكَ في كاتبٍ كان هِتلر وموسوليني من أوفى قُرّائِه؟ لا شك أنّ أوّل ما يتبادر إلى ذهنكَ أنّه فاشيٌ أصيل! ليس تماما. يتعلق الأمر بعالِم النفس الاجتماعي *جُوستاف لوبون*، صاحب الكتاب الشهير "علم نفس الجماهير"[68]. هذا الرجل لم يكن فاشيًا، بل كان يفضّل الديمقراطية، على علاتها، على كلِّ دكتاتورية. غير أنّ الحركات الفاشية وجدت في دراساته

[67] Je ne suis pas toujours de mon avis (Paul Valéry).

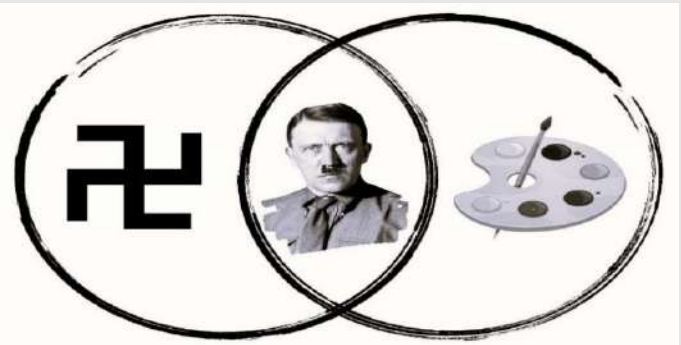
[68] Gustave Le Bon : Psychologie des foules

ضالّتها، فالتقطتها بشراهة واستغلت أبحاثه قَصْد تَجْيِيش الجماهير لدرجة جعلت اسمه لَصيقا بها. باختصار، لقد تمَّت شيطنة "جوستاف لوبون" لِمجرد أن بعض آرائه لاقت اهتماما من الحركة الفاشية.

هذا الضرب من التلويث المنطقي يُسمّى "مغالطة التَّجريم بالتَّبَعِية".[69]

يُقال إن من يريد قَتْل كلبه يتَّهمه بالسّعار. في هذه المغالطة، أنتَ ترفض رأيًا أو سلوكًا فقط لأنّ أُناسًا تَبغضهم قد تبنَّوه، لا أكثر.

لكن لنواجه الحقيقة: ليس بوسعك أن تكون على خلافٍ مطلقٍ مع من تُبغض. شئتَ أم أبيتَ، هناك دائمًا قواسم مشتركة. هؤلاء أيضًا يُسلّمون بجدول الضرب ومبرهنة



كان أدُولف هِتلر يَهوى الرَّسم وظلّ كذلك حتى بعد فشله في امتحان القبول بأكاديمية الفنون الجميلة في فيينا. هل نُدِين الرّسامين لأنّ هِتلر كان رسّاما؟
تقوم مغالطة "التَّجرِيم بالتَّبَعِية" على رفض رأي أو سلوك مُعين لمجرد أن أشخاصا نَبغضُهم يَقبلونه.

[69] بالإنجليزية "Guilt by association". في المصادر العربية توجد ترجمات متعدد لهذه المغالطة: الذنب بالتداعي، الذنب بالارتباط، الذنب بالمشاركة.

فيثاغورس، يكافحون من أجل لقمة العيش، يُحبّون أطفالهم وينشدون الاحترام. ومع ذلك فأنت لا تُفكّر أن حُبّك لعائلتك يجعلك شبيهًا بهم، لكنّك على أهبة الاستعداد لتستحضر حجّة "رفض التشبّه" في كلّ ما تنفر منه مُسبقًا.

وبالرغم من كون "التَّجريم بالتَّبَعية" مغالطة منطقية واضحة، إلا أنها تستمدُّ قوَّتها من الانفعال العاطفي والمَيل الفطري لدى الإنسان لرفض كل أشكال الاقتران بمن لا يُحبّهم. لهذا تراها مزدهرة في خُطب بعض الساسة ورجال الدين ودعاة القومية والعرقية، حيث يسهل على الجماهير ابتلاعها والتصفيق لها بحرارة.

هل تعلم أن هِتلر كان يَهوى الرّسم وأنه قام بِحملات ضِدّ التدخين؟ هل ترفض هذه الأمور لمجرد أن هِتلر قام بها؟

هل ترفض إحدى الأقوال المأثورة لِمجرد أن صاحب المقولة ينتمي لجماعة لا تروقك؟

هل تعترض على رأي سِياسي أو اقتصادي لأن حِزبا لا تُحبّه يتبنَّاه؟

هل تطعن في فكرة لِمجرد أن الذي طرحها هو شخص لا يَعتنق ديانتك؟

هل تُقاطع استخدام الحاسُوب لأن "أَلَان تُورِينغ"، أحد مُؤسِّسي عُلوم الحاسوب، كان مِثلي الجِنس؟

هل ترفض الاستماع لروائع مُوزَار الموسيقية لأن الشّائع أنه كان مَاسُونِيا؟

هل يكون الحُبّ جريمة لأن الكثير من القتلة والسّفاحين والطُّغاة والجبابرة أحبّوا في حياتهم؟

تذكَّر أن الحق لا يَصير باطلا إن قَالَهُ أَلَدُّ أعدائك، والباطل لا يَصير حقّا إن قالَهُ أَعَزُّ أحبابك.

دوافع لا دلائل

هل الإيمان أو إنكار الإيمان بوجود إلهٍ له دوافع نفسية؟

أقلام كثيرة خاضت في هذا الموضوع. بالنسبة لمؤسس التحليل النفسي "سيغموند فرويد"، يعود أصل الإيمان إلى عُقدة "أُوديب"[70] ورغبة الأبناء في التّكفير عن شعور الذنب تجاه الأب الأرضي من خلال تقديسهم للأب السماوي[71]. في المقابل، يطلّ علينا "بول فيتز" في كتابه "سيكولوجية الإلحاد"[72] ليَعلن أنّ صورة الإله تُرسَم في وجدان الطفل على مقاس صورة أبيه. فإذا غاب الأب أو كان قاسيًا أو ضعيفًا أو منحرفًا، مالت الكفّة نحو رفض وجود إلهٍ من الأصل.

هل تؤثّر الحالة النفسية والظروف الاجتماعية في ولادة الأفكار والمعتقدات؟

بالتأكيد نعم! هذه العوامل تُلوّن نسيج الفكرة وتُشكّل دوافعها. غير أنّ الحكم على صواب الفكرة أو بطلانها بناء على هذه الدوافع فحسب هو سقوط في مغالطة منطقية تُعرَف باسم "البَلفَرِية"[73]، نسبة إلى شخصية "بُولفر"[74] الخيالية التي ذكرها الكاتب "س. س. لويس" في كتابه "الأشياء الأولى والثانية"[75]. كان "بولفر" طفلا حين سمع أباه يُقرّر أنّ

---

[70] عقدة "أوديب" هي عقدة نفسية استوحاها سيجموند فرويد من أسطورة يونانية، وهي تمثل الرغبات الجنسية التي تكون لدى الابن الذكر تجاه أمه، فيتعلق بها لينمو عنده شعور بالغيرة والكراهية نحو أبيه.

[71] Leonardo da Vinci, A Memory of His Childhood, Sigmund Freud (1910).

72 Faith of the Fatherless: The Psychology of Atheism, Paul C. Vitz (2013).

73 Bulverism

74 Bulver

75 C. S. Lewis: First and second things.

مجموع طُول ضلعي مثلث أكبر من طول الضلع الثالث، فقاطعته أمه قائلة: "أنت تقول ذلك لأنك رجل". وهكذا صارت الفكرة مُدانة لا بذاتها، بل بهوية قائلها!

الخلط بين أسباب الاعتقاد وصحّة الاعتقاد هو لبّ البلوى. يوجد فرق بين الأسباب التي تدفع الناس لاعتقاد فكرة ما، وبين الأسباب التي تجعل تلك الفكرة صحيحة أو خاطئة. بعض الناس يؤمنون بدافع الوراثة، وهو دافع وإن كان غير سليم، إلا أنه ليس حُجة عقلانية لضرب فكرة الإيمان. كما أن بعض الناس يتراجعون عن إيمانهم بسبب خصومات شخصية مع مؤمنين، وهو أيضا دافع شخصي وليس حُجة للطعن في فكرة عدم الإيمان. هذه دوافع شتّى، لكنّها ليست حججًا. لو حاكمنا الأفكار كلها بمحرّكاتها النفسية، لوجدنا المبرّر الكافي لرفض كلّ ما لا يروقنا، إذ من السهل دومًا العثور على دافعٍ مشبوه.

عندما تُقدم فكرة مختلفة، سينشغل معظم الناس بتخمين نواياك السيئة من وراء تلك الفكرة، وسَيَبرَعُون في كَشف الظروف والدوافع الشخصية التي جعلتك تُدافع عنها، وسيستنكِرُون تاريخ الفكرة وأصولها المشبوهة. سيتحدَّثون ويتحدثون في كل شيء.. إلا في الفكرة ذاتها! يصعب على الناس قبول أن دوافع من يخالفهم الرأي بريئة وغير مشبوهة، كما يسهل عليهم أن يجدوا دوافع مشبوهة لنشأة الأفكار التي لا يرتاحون لها، واقتصارهم على هذه الدوافع للطَّعن في تلك الأفكار ليس فقط مغالطة منطقية، بل خروج عن الموضوع وكسلٌ فكريٌ يَتنكّر في ثوب النقد.

مع مغالطة "البَلفَرِية"، تتحول ساحة المعركة من الأفكار إلى ظروف صانعي الأفكار. فهذا معارض سياسي لأن والده كان قاسيا، فتكَوّن لديه رفض لكل رموز السلطة.. وذاك تفكيره ليبرالي لأنه نشأ في أسرة برجوازية سَمَحت له بالدراسة في جامعة أجنبية.. وتلك

الناشطة الجمعوية تُنادي بحقوق المرأة لأنها عَانت في طفولتها من مُركّب نقص سببَه مغادرة أبيها لمنزل الأسرة .. وذلك الرجل يُندّد بالميز العنصري لأنه ببساطة أسود البشرة!

بهذه الطريقة، يصير من السهل العثور على دوافع مشبوهة لكل القضايا ولو كانت عادلة. كل ما يلزم هو النّبش بعض الشيء في الظروف الشخصية للمدافعين عن تلك القضايا. ولأن البحث عن حُجج منطقية لاعتقاد ما هو في العادة مهمة شاقة ومُرهقة، فإن البحث في الدوافع الشخصية لذلك الاعتقاد مهمة أوفر جهدا.

البَلفَرِية هي حالة خاصة من مغالطة أعَمّ تَحمل اسم "مغالطة المَنْشَأ"[76]، حيث يَتمّ الحُكم بصواب أو خطأ فكرة ما بِناءَ على أصلها أو مصدرها أو دوافعها.

أصل الفكرة شيء، والفكرة ذاتها شيء آخر. والفرق بينهما، إذا جاز التعبير، كالفرق بين الجنين في رحم أمه والشخص البالغ الذي غادر منزل أبويه ليبني لنفسه حياة مستقلة.

هل نُقاطع عِلم الاحتمالات لأن نشأته الأولى ارتبطت بدراسة ألعاب القِمار؟ هل نرفض الاحتفال بعيد الأم لأن الأرجح أن أُصوله وثنية تعود لإلهة يونانية قديمة؟ أو هل نَطعن في المبادئ الحديثة لحقوق الإنسان، فقط لأنها جاءتنا من ثقافة غربية دخيلة؟

كما تنشأ الفراشة الزاهية الألوان من دودة مقززة، وتنمو ورود ساحرة في مستنقعات آسنة، وتنشأ جوهرة الماس الثمينة من أحجار كربونية رخيصة، وتُستخرج أدوية ناجعة مِن سُمّ الثّعبان، يمكن لأفكار عظيمة أن تنشأ من أصول نراها مَشبوهة. فلماذا نَظلمها ونحكم عليها من أصولها؟



76 The genetic fallacy

باختصار

1 . عندما تقوم بمهاجمة خصمك من خلال الإشارة إلى أمور شخصية فيه، وتتصوّر أنك بذلك قد قُمتَ بِتَفْنِيد رأيه الذي لا صلة له بتلك الأمور، فأنت تقع في مُغالطة الشَّخْصَنَة. صواب الفكرة لا علاقة له عموما بصاحب الفكرة. الطَّعن في شخص خصمك بدلا من حُجَجه هو ببساطة خروج عن الموضوع!

2. تأخذ الشَّخصَنَة أشكالا متعددة من أهمها:

- مغالطة "الهُجوم على الشخص": حيث يُؤْخَذ عيبٌ في الشخص كَدليل على خطأ رأيه، رغم انعدام أية صِلة مُسبقة بين الرأي والعيب المذكور.

- "مغالطة الظُّروف الشَّخصية": عندما تُؤخَذ الظروف الشخصية أو المصالح الخاصة لصاحب الرأي كدليل على خطأ ذلك الرأي.

- مغالطة "أنتَ أيضا": حيث يَعتبر المُغَالِط أن عدم تطبيق خَصمه لِما يقوله دليل على خطأ قوله. التطبيق السّيء لا يعني أن التنظير هو أيضا سيئ.

- مغالطة "التَّجرِيم بالتَّبَعِية": يَطعن المُغالِط في رأي ما بِحُجَّة أن أشخاصاً يبغضهم يقبَلُون ذلك الرأي.

- "البَلَفَرِية": الحُكم على فكرة ما بِناءَ على دوافع صاحبها. الدوافع قد تكون نفسية، اجتماعية، اقتصادية، ... إلخ


4
مستحيل...
كل هؤلاء مخطئون؟
(الاحتكام إلى عامة الناس)



الخطأ ليس صوابا لأن الكثير من الناس يُصدقونه،

كما أن الصواب ليس خطأ لأن شخصا واحدا يُصدقه.

(غاندي)

لا تخف أن يكون رأيك شاذّا.

كل رأي مقبول في أيامنا كان ذات يوم رأيا شاذّا.

(برتراند رسل)

لما سألتُ عن الحقيقة قِيل لي الحق ما اتّفق السواد عليه

فعجبتُ كيف ذبحت ثوري في الضحى والهند ساجدة هناك لديه

نرضى بحكم الأكثرية مثلما يرضى الوليد الظلم من أبويه

(إيليا أبو ماضي)



"ومع ذلك.. فإنها تدور!"

حسب ما يُحكى، هذا ما ظلّ يُردده الفلكي "غاليليو غاليلي"ساعة خروجه من المحكمة. كان غاليلي عجوزاً في سن السبعين، وكانت التهمة الموجهة إليه من طرف الكنيسة سنة 1633 هي إعلانه حقيقة علمية يعرفها الأطفال في أيامنا، حقيقة أن الأرض هي التي تدور حول الشمس!



في سنة 1633 حاكمت الكنيسة الفلكي غاليلي بسبب إعلانه حقيقة أن الأرض هي التي تدور حول الشمس! كان غاليلي فردا واحدا في مواجهة سلطة الكنيسة والرأي العام. ومع ذلك، أثبتت الأيام أن ذلك الفرد الواحد هو الذي كان على صواب.

لكن في زمن غاليلي، لم تكن هذه "حقيقة علمية"... كانت تهمة خطيرة. الكنيسة استندت إلى نصوص دينية فسّرتها على أن الأرض ثابتة، واعتبرت أن غاليلي يرتكب جريمة فكرية. أما العقوبة المحتملة؟ بسيطة... الحرق حيًا، كما حدث قبل ذلك مع الفلكي جيوردانو برونو.

غاليلي، وقد بلغ السبعين، لم يجد مانعًا من تقديم اعتراف رسمي بـ"ذنبه العظيم"، حفاظًا على حياته. أحيانًا، تكون الحياة أثمن من الانتصار في نقاش لا يقتنع فيه الطرف الآخر أبدًا. ومع ذلك، ظلّ في داخله يهمس :"إنها تدور"!

مرّت القرون، حتى جاء عام 1992، ووقفت الكنيسة – عبر لسان البابا يوحنا بولس الثاني – لتعلن أن غاليلي كان على حق. كان المشهد يشبه وصول رسالة اعتذار بعد قرون... لكن المُرسل إليه لم يعد هنا ليتسلمها.

قصة غاليلي واحدة من مئات القصص التي تذكّرنا أن الأغلبية ليست دائمًا على صواب. بل إن تاريخ البشرية مليء بالطفرات العلمية والإصلاحات الكبرى التي بدأها أشخاص معزولون، تجرؤوا على السباحة عكس تيار المألوف.

الاحتكام إلى عامة الناس[77] من أكثر المغالطات المنطقية انتشارا. تأخذ هذه المغالطة الصيغة التالية:

مادامت الفكرة منتشرة بين عدد كبير من الناس فهي إذن صحيحة.

هذا المنطق، رغم شعبيته، لا علاقة له بالمنطق أصلًا. الفكرة الشائعة ليست بالضرورة صحيحة، كما أن السلوك المنتشر ليس بالضرورة جيدا. عبارات مثل "الكثيرون يعتقدون ذلك "أو "معظمهم يفعل ذلك "قد تصلح لإقناع مراهق بشراء حذاء رائج، لكنها لا تصلح لإثبات الحقائق.

تصوّر أنك تُعاني من ألم مجهول المصدر في جسمك. ما هو القرار الأفضل بالنسبة لك: أن تطلب مشورة عدد كبير من أقربائك وأصدقائك لتحتكم في النهاية إلى رأي الأغلبية منهم، أو تتجه مباشرة نحو طبيب؟

واضح أن الاختيار الثاني أكثر حكمة. فالخِبرة الطّبّية لكل أقاربك وأصدقائك، ما لم يكن بينهم طبيب، لا تُعادل خبرة طبيب واحد. رأي طبيب واحد أفنى عمره في الدراسة

[77] Appeal to popularity, argumentum ad populum

والفحص هو أكثر وزنا من رأي مائة شخص لم يدرسوا شيئا عن الطب، بل اكتفوا بالثقافة الشعبية الموروثة أو الخبرة الشخصية المحدودة.

في الطب، كما في العلوم والهندسة والاقتصاد، رأي الأغلبية في المسائل الدقيقة لا يساوي الكثير.

هل الأغلبية تخطئ؟

بالتأكيد نعم.. لقد أخطأت في الماضي بما فيه الكفاية.. وستظل تُخطئ حتى نهاية العالم!

الحقيقة ليست ديمقراطية... ليست مسابقة تصويت... إنها ابنة البراهين والأدلة، لا بنت صناديق الاقتراع. وإذا تبنّت الملايين فكرة خاطئة، فستظل خاطئة، وإذا تبنّى فرد واحد فكرة صحيحة، فستظل صحيحة. الكوميدي الفرنسي "كولوش" عبّر عن هذه الفكرة بعبارته البليغة: "ليس كونهم كثرة في اعتقاد خاطئ هو ما سيجعلهم على صواب!"[78]

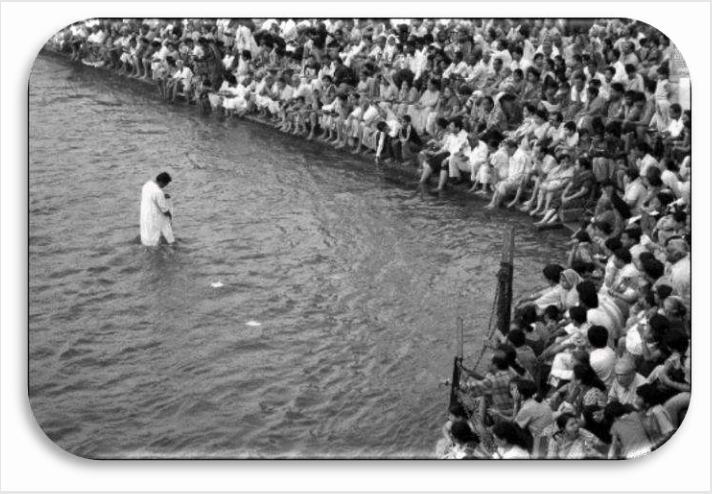
أمثلة

1) ثمانية من بين عشرة أشخاص يستخدمون هذا النوع من معجون الأسنان. بالتأكيد هو الأفضل.
2) يوجد أكثر من مليار بوذي وهندوسي على هذه الأرض. هؤلاء لا يمكن أن يكونوا جميعاً على خطأ!

[78] C'est pas parce qu'ils sont nombreux à avoir tort qu'ils ont raison! (Coluche)

3) بعد الذي رأيتُه من تعاطف جماهيري مع ذلك الحزب، تغيّر موقفي وصِرتُ من الداعمين له.

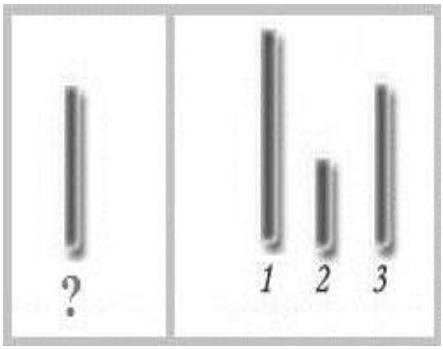
4) ملايين الناس عبر العالم يؤمنون بتأثير الأبراج على حياتنا. هل تعتقد أن كل هذه الملايين مخطئة؟



كَونُ عدد الهندوس في العالم يتجاوز المليار لا يُثبت أن الهندوسية عقيدة صحيحة. عدد الأتباع قد يكون مُؤشرا مُهمّا على مدى تأثير عقيدة ما في نفوس البشر، ولكنه أبعد ما يكون عن إثبات صِحَّتها.

اقفز داخل العربة!

انظر إلى هذه الصورة. في رأيك، أي الخطوط الثلاثة على اليمين يشبه تماما الخط الذي على اليسار؟



بالتأكيد هو الخط رقم 3. الحل سهل وبسيط. أليس كذلك؟

في عام 1951، قرر عالم النفس الاجتماعي "سولومون آش" أن يلعب لعبة صغيرة مع عقول الناس، ليرى كم يمكن للجماعة أن تهزّ ثقة الفرد بنفسه .الفكرة بسيطة: شخص يظن أنه يشارك في اختبار للإدراك البصري، يجلس على طاولة مع سبعة أشخاص آخرين. على الطاولة صورة فيها خطوط، والجميع يركز وكأنهم أمام لوحة فنية نادرة.

يبدأ السبعة، واحدًا تلو الآخر، في الإجابة بصوت واثق... لكنهم جميعًا، عن عمد، يختارون الجواب الخطأ. المسكين الثامن، الذي لا يعرف أنهم متواطئون، ينتظر دوره. الآن الكرة في ملعبه: هل يصدق عينيه أم يصدق أعين سبعة أشخاص ينظرون له وكأن الجواب واضح وضوح الشمس؟

النتيجة كانت صادمة: تحت ضغط الجماعة، 36.8% من الأشخاص أعطوا إجابات خاطئة. نفس التجربة، في الظروف الطبيعية وبعيدا عن تأثير المجموعة، كانت تعطي نسبة تقل عن 1 في المائة من الأجوبة الخاطئة!

بمعنى آخر: وضع الفرد بين مجموعة مخطئة قد يدفعه ليخطئ في أكثر من ثلث المرات، بينما لو ترك وحيدًا، يكاد لا يخطئ.

ولم يكن "آش" وحده من لاحظ هذا، فقد أثبتت تجارب أخرى في علم النفس الاجتماعي أن رأي الجماعة يمكنه أن يغيّر قناعاتنا بسهولة، حتى في أبسط الأمور.

هذا الميل الطبيعي للانضمام إلى الآخرين له اسم لطيف "مفعول عربة الفرقة[79]". الاسم جاء من القرن التاسع عشر، حين كانت عربات السيرك المزيّنة بالفرق الموسيقية تجوب الشوارع في الحملات الانتخابية الأمريكية. المرشح السياسي يلوّح للناس ويصيح : "اقفز داخل العربة!" فيقفزون، لا لأنهم درسوا برنامجه، بل لأن الجو احتفالي والموسيقى حماسية، ومن لا يريد أن يكون جزءًا من مشهد كهذا؟



منذ الشهور الأولى، يبدأ الرضيع في تقليد تعابير والديه.

عدوى التقليد تلاحق الفرد طول حياته،

وتتقوّى كلما زاد اندماجه في أحضان الجماعة.

79 The bandwagon effect

معظم الناس يعتقدون أنهم ليسوا من الصنف الذي يقفز إلى العربة بهذه السهولة، بل إنهم يأخذون قراراتهم ويُحددون اختياراتهم بعد قناعة وتمحيص.

معظم الناس يعتقدون أنهم ليسوا مثل معظم الناس!

مفارقة غريبة! لكن الواقع هو أن كل واحد منا عن وعي أو لاوعي، مُستعد أكثر مما يتصور للقفز داخل العربة ليَدندن أغنية "لستُ وحدي.. ما أسعدني وسط الحشود!".

منذ الولادة، نحن آلات تقليد صغيرة: يضحك والداك، فتضحك. يعبسان، فتعبس. المسلسلات الكوميدية تضيف ضحكات مسجلة، فتضحك حتى لو لم تفهم النكتة، لأنك لا تريد أن تكون الوحيد الذي لم يضحك، فينتابك الإحساس بالبلادة!

تقليد الآخرين أمر تصعب مقاومته. وعدوى التقليد في عالم البشر تتقوّى في أحضان الجماهير.

هل تقول في نفسك أحيانا: "لماذا لا أصنع مثلهم؟ على كل حال، لا يمكن أن يكون كل هؤلاء على خطأ؟" في هذه الحالة، تَذَكَّر أن هذا المبرر مهما طَيّب خاطرك وقلَّل من مسؤوليتك وأشعرك بالأمان والقبول في أحضان الجماعة، إلا أنه من وجهة نظر عقلانية يبقى أبعد ما يكون عن العقلانية!

انظر... إنهم أيضًا يخطئون!

هل سبق لك أن غششت في الامتحان، ثم قلت في نفسك ببراءة مصطنعة: "وماذا في ذلك؟ لست الوحيد... نصف الفصل يفعل ذلك"!؟

مبروك، لقد استخدمت واحدة من أشهر الحيل الدفاعية لتبرير الخطأ: ما دام كثيرون يخطئون، فما الضير أن أنضم إلى الموكب وأرفع راية المشاركة؟

هذه هي مغالطة "خطآن يصنعان صواباً[80]"، حيث يتحول سلوك الناس إلى معيار لما "ينبغي" فعله، وكأن مقياس الأخلاق هو عدد الممارسين للفعل، لا صوابه أو خطؤه.

الفيلسوف "ديفِيد هيُوم" يَعترض على هذا المنطق مُؤكدا أننا لا يُمكننا استخلاص قيمة أخلاقية من مجرد وقائع. الواقع فيه الكثير من الظلم والسوء، لأن الأمور في الواقع لا تسير دائما كما ينبغي. والاحتكام إلى الواقع بهذه الطريقة ليس فقط انحرافاً في التفكير، بل هو تصريح رسمي بقبول كل الشرور.



الفيلسوف "دَافيد هيَوم" أكَّد أنه ليس من المُمكن منطقيا استخلاص قيم أخلاقية من مجرد وقائع. توجد فجوة تفصل بين عالم الواقع (ما هو كائن) وعالم القِيَم (ما ينبغي أن يكون).

ثمة فرق شاسع بين الواقع والقيم، بين ما هو كائن وما ينبغي أن يكون. إن عالم الوقائع وعالم القيم تفصل بينهما فجوة منطقية، لا يجسرها أي مبرر. فمن العبث أن تستمد ما يجب أن يكون من مجرد ما هو كائن، وكأنك تحاول استخلاص لحن من ضوضاء الشارع.

80 Two wrongs make a right

والأدهى، أن تبرير الظلم أو الغش أو الكذب أو السرقة بحجة أن الآخرين يمارسونها، ليس مجرد زلة في التفكير، بل هو بمثابة إهداء مجاني لرخصة ارتكاب الشرور، مختومة بخاتم العقل الجمعي. إنه صفعة على وجه الضمير الإنساني، ورسالة مفتوحة مفادها: "مرحباً بالفساد، البيت بيتك."

الخلاصة: الخطأ، ولو سار في موكب مهيب تحفه الجماهير، سيبقى خطأً، والصواب، ولو وقف وحيداً في زاوية مهملة، سيبقى صواباً... حتى لو لم يصفق له أحد.

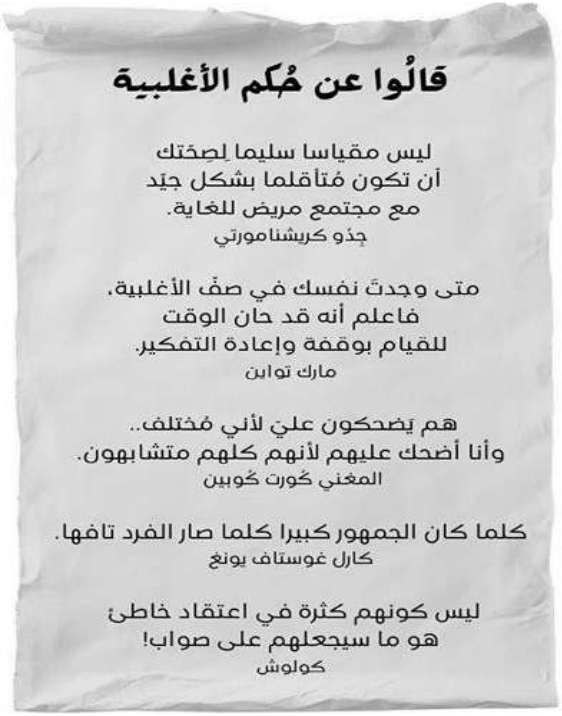
هل الاحتكام إلى الديمقراطية مغالطة منطقية؟

سؤال يبدو وكأنه وُلد ليَحرج أنصار الديمقراطية: إذا كانت الديمقراطية قائمة على الاحتكام لرأي الأغلبية، والأغلبية – كما نعلم – قد تخطئ، فهل معنى ذلك أن الديمقراطية مجرد مغالطة منطقيَة متأنقة ترتدي بذلة رسمية؟ وهل علينا إذن أن نتوقف عن قرع الطبول لها في الساحات؟

الحقيقة أن الديمقراطية لا تَعِدنا دائماً بأفضل اختيار، فقد تمنح مقاليد السلطة – وبكل أناقة – لمن لا يصلحون حتى لإدارة نادٍ صغير للشطرنج. بل إن تفشِّي الفقر والأمية بين أفراد الشعب سيؤدي على الأرجح، وباسم الديمقراطية، إلى صعود ممثلين للشعب لا يصلحون لخدمة الشعب! النظام الديمقراطي لا يستمد مشروعيته إذن من هذا الجانب، بل مشروعيته تقوم على مبدأ المساواة في الحقوق بين أفراد الوطن الواحد، وأنه ليس من العدل أن تُمارس فئة معينة الوصاية على الآخرين، وتفرض نفسها بالقوة بدعوى أنها تعرف مصالحها أكثر منهم! في الديمقراطية، يتحمل الشعب تبعات قراراته، ويخطئ ويتعلم، تماماً كما يتعلم الرضيع المشي من خلال لعبة الوقوف والسقوط.

الاختلاف في الرأي سنة كونية، وسواء كنا نصوّت في برلمان، أو مجلس إدارة، أو اجتماع سكان عمارة يتناقشون حول لون الجدران، تظل الديمقراطية أفضل أداة متاحة لتدبير هذا الاختلاف ومنح الجميع فرصة الكلام.

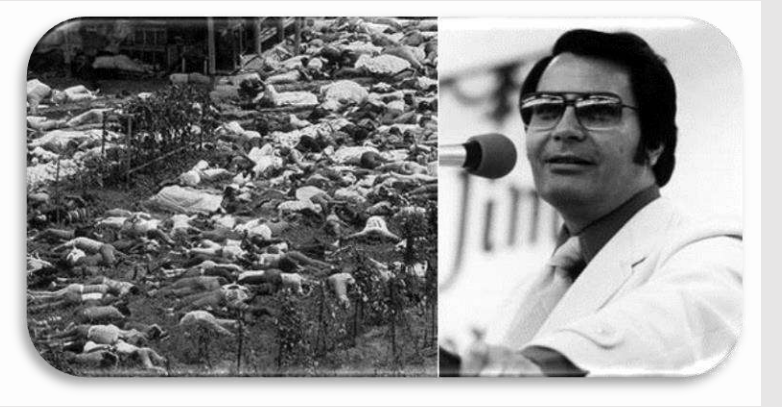
لكن، هل يضمن ذلك الوصول إلى القرار الصائب؟ بالطبع لا. فالأغلبية، مهما كانت، تحتفظ دائماً بحقها في الخطأ... وربما في تكراره أيضاً!



عندما تفقد الجماعات صوابها!

في 18 نوفمبر 1978، شهد العالم واحدة من أكثر الحوادث غرابة وفزعاً: انتحار جماعي لأعضاء طائفة "معبد الشعوب"[81] في غويانا، بأمر مباشر من زعيمهم القس الأمريكي "جيم جونز"[82]. أكثر من 900 شخص، بينهم 200 طفل، رحلوا بعد احتساء السم وكأنهم يشربون نخب الولاء الأعمى.

كيف يمكن لمئات العقول أن تتفق على قرار بهذا الجنون؟

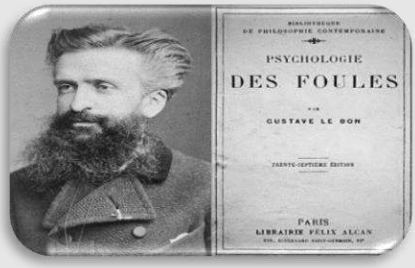


في سنة 1978، طلب مؤسّس طائفة "معبد الشعوب" القسّ "جِيم جُونز" من أتباعه القيام بانتحار جماعي. هذه الحادثة الرهيبة التي ذهب ضحيتها أزيد من 900 شخص، تُثبت إلى أي حدّ يُمكن لجماعة من الناس أن تتّفق على أفعال يَطبعها الجنو ن.

[81] People Temple

[82] Jim Jones

قبل ذلك بقرابة قرن، كتب "غُوستاف لُوبُون "[83] كتابه الشهير "سيكولوجية الجماهير"، مؤسِّساً لما بات يُعرف بعلم نفس الجماهير. أشار "لوبون" إلى أن الفرد وسط الحشد يتصرف بطريقة تختلف تماماً عن سلوكه منفرداً: التفكير المنطقي يتوارى، والمشاعر تشتعل، والعقل الواعي يذوب في كيان جديد اسمه "الجماعة". وكلما كانت الجماعة كبيرة كلما صار الفرد تافها، على حد تعبير "كارل غوستاف يونغ".



في كتابه الشهير "سيكولوجية الجماهير" والذي أسَّس لما أصبح يُسمى بعلم نفس الجماهير، لاحظ "جُوستَاف لُوبُون" كيف أن سلوك الأفراد في حالة احتشادهم مختلف كثيرا عن سلوكهم منفردين، وأن لغة العواطف هي المحرك الأساسي للجماهير.

لغة الجماهير ليست معقدة ولا مرهقة للعقل، بل بسيطة، مباشرة، وتغذي العاطفة أكثر مما تغذي الفكر. لهذا كان الخطيب البارع عبر العصور هو من يخاطب القلوب قبل العقول، ويعرف كيف يزرع الحماس أو الخوف أو الغضب. تحت تأثير قائد كاريزمي، يمكن للفرد أن يصدق أغرب الأفكار، وأن يقدم على أفعال لم يكن ليفكر في القيام بها وهو في حالته الفردية الواعية. لعل ديكارت أصاب حين قال: "من المرجح أن يصيب فرد واحد أكثر من أن تصيب أمة بكاملها."

في ساحة الجدل، قد ينتصر صاحب الحجة الأضعف لمجرد براعته في الخطابة، بينما يخسر صاحب الحق لقلة مهارته في إبهار الجمهور. هكذا رأينا قضايا عادلة تنهزم، وأخرى

[83] Gustave Le Bon: Psychologie des foules

باطلة تُتَوج بالنصر، لا لشيء إلا لأن محاميها أتقن العزف على أوتار العاطفة. لذلك يجب أن نفرق بين صواب الفكرة وشعبيتها؛ فإقناع الجمهور شيء، والحقيقة شيء آخر تماماً.

في زُحمة الشَّغب الجماعي، يتسلل إلى الفرد إحساس غريب بأن ما يحدث مسؤولية يتقاسمها مع الجموع من حوله، وكأن ذوبانه بينهم يخفف من ثقل ضميره. كثير من الجنود الذين تورطوا في جرائم حرب رأوا أنفُسهم مجرّد مسامير في آلة تنفيذ الأوامر، لا أفراداً مسؤولين، فالقادة – في نظرهم – هم أصحاب القرار، وبالتالي هم المسؤولون الأساسيون.



كيف حدث في مراحل متعددة من التاريخ، كما هو الحال زمن النازية، أن أمما كاملة فقدت بوصلتها الأخلاقية، وصدَّقت خرافة تفوقها على كل الأمم وارتكبت شرا لا يوصف؟

الانخراط في الجماعة أمر سهل، وغالباً ما يُستقبل بالتصفيق وربما بعناق حار، أمّا الخروج منها فثمنه باهظ. غالبا ما يُنظر إلى رغبة الفرد في الاستقلالية على أنها خيانة لروح الجماعة، فالجماهير نادراً ما تمنح شهادة تقدير لمن يُصرّ على التفكير بأسلوبه الخاص.

عبر التاريخ، كانت الجماهير أحياناً ذراعاً لقضايا نبيلة، وأحياناً أداة لجرائم تشيب لها الرؤوس. الانضمام إلى الجماعة ليس خطأً في ذاته؛ فالإنسان اجتماعي بطبعه، وله مطلق

الحرية في اختيار انتماءاته. فقط تَذكَّر أنك وسط الجماهير مُعرض أكثر مما تتصور للتفكير والسلوك بقدر أكبر من العاطفة وقدر أقل من العقلانية.

الانتماء للجماعة يمنحك إحساسا لذيذا بالدفء والقبول الاجتماعي، أمّا الانفصال عنها فهو طريق مُوحش وبارد، طريق إذا ضمن لمن يسلكه بعض الرضا عن النفس لم يضمن له رضا الناس من حوله.

الكاتب والفيلسوف "رالف والدو إمرسون" عبّر عن هذه المعضلة بقوله: "في المجتمع يسهل أن تعيش كما يروق للآخرين، وفي العزلة يسهل أن تعيش كما تريد أنت. أمّا العظيم فهو من يعيش بين الناس محتفظاً باستقلاله كما لو كان في عزلة."

كم أنت مستعد للتنازل عن استقلال فكرك وضميرك، في سبيل أن تُرفع عضويتك الذهبية في نادي القبول الاجتماعي؟ الأكيد هو أنه عندما يتعلق الأمر بالفكر والضمير، فلا عبرة لقانون الأغلبية!



باختصار

1 . يتم ارتكاب مغالطة "الاحتكام إلى عامة الناس" كلما تمّ الاعتقاد أن فكرة ما هي صائبة لمجرد أنها واسعة الانتشار بين الناس، أو أن سلوكا معينا هو جيد لمجرد أنه شائع. الفكرة السائدة، مثل السلعة الرائجة، ليست بالضرورة جيدة. قد تُخطئ الأغلبية ويكون الصواب حليف فرد واحد أو أقلية صغيرة من الأفراد. لهذا لا تستهن بوجهات نظر الأقليات.

2 . تَذكَّر أنك وسط الجماهير، مُعرّض أكثر مما تتصور، للتفكير والسلوك بقدر أكبر من العاطفة وقدر أقل من العقلانية. عندما يتعلق الأمر بالفكر والضمير، لا عبرة لقانون الأغلبية!

3. ما يفعله الناس ليس مُحددا لما ينبغي أن يتم فعله. الواقع بكل مَساوئِه هو ما هو كائن، والقِيَم هي ما ينبغي أن يكون. لهذا لا يجوز الاحتكام إلى ما هو كائن لتقرير ما ينبغي أن يكون.


5
لن تَعرف أكثر من هؤلاء!
(الاحتِكَام إلى السُّلطَة)



لِيكن فضولك أقلّ تجاه الأشخاص وأكثر تجاه الأفكار.

(ماري كوري)

إذا كان القليل من المعرفة خطيرا، فمَن هو الإنسان الذي لديه ما يكفي من المعرفة لكي يكون خارج منطقة الخطر؟ (توماس هكسلي)

ليست هناك بِدعة أسوأ من القول
بأنّ المنصب يَعصِم صاحبَه من الخطأ!
(اللُّورد أَكْتُون)

المهم ليس من هو على صواب، بل ما هو الصواب. (توماس هكسلي)

يجب أن نكون قاسيين مع الأفكار، ولكن لطيفين مع الناس.

(روبرت سيريكو)

لا تُؤمن بأيّ شيء لِمُجرد أنّ حكيما قديما كتبه.
لا تؤمن بأي شيء لِمجرد أنْ أيَّدَه المُعلّمون والكهنة.
كلُّ ما يَتَمَاشَى مع عقلك ويُؤدي إلى سعادتك وسعادة الكائنات الحية من حولك يُمكنك أن تَقبله كحقيقة وتعيش على أساسه. (بوذا)



في أيّام الطفولة، كنّا نَخوضُ نقاشاتٍ صاخبة مع أقراننا، نرفع أصواتنا بثقة عمياء، ونستشهد بسلطاتٍ لا تقبل النقاش:

- "أمّي تقول إنّ مَن ينام متأخرا تطارده الأشباح ليلاً في صورة كوابيس. وأمّي، بالطبع، لا تكذب!"
- "أبي يقول إنّ الأطبّاء يَجنون أموالاً أكثر من سائر الناس. وأبي ليس مجنوناً حتّى يُخرَف!"
- "هل تعلم أنّ الأطفال لا يأتون إلى الدنيا إلّا إذا كان الأبوان متزوّجين زواجاً حقيقياً؟ هذا ما قالته لنا مُعلمتنا هذا الصباح."

ومع التقدُّم في السّن، اكتشفنا أنّ الأشباح لا شأن لها بالنوم المتأخر، وأنّ هناك مَن يكسبون أكثر من الأطباء بلا حاجة إلى سماعةٍ على أعناقهم، وأنّ الأطفال قد يأتون إلى الدنيا أيضاً خارج دفاتر الحالة المدنيّة! لحظتها، أدركنا أنّ آباءنا ومعلّمينا قد أتحفونا أحياناً بمعلوماتٍ لا علاقة لها بالحقيقة، إمّا عن حسن نيّةٍ أو عن جهلٍ بريءٍ مغلّف بالثقة.

ثمّ حين نَغادر مَرحلة الطفولة المُبكّرة، يظهر على مسرح حياتنا جيشٌ آخر من المرجعيات: علماء وخبراء وأساتذة وكُتّاب ومفكّرون ورجال دين وفنّانون وساسة وصحافيّون. وسواء كانوا أحياءَ أو رحلوا، فإنّهم يَكتسبون في أعيننا سُلطةً وهيبة، فنُصغي إليهم أكثر ممّا نُصغي إلى صوت عقولنا.

كُلُّنَا نقول إن البشر يُصيبون ويُخطئون، ومع ذلك فنحن نرتكب مغالطة "الاحتكام إلى السّلطة"[84] عندما نعتقد أن فكرة ما هي صائبة أو جيدة لا لِشيء إلا لأن سلطة معينة تُؤَيِّدُها، ومن دون إعطاء أيّة دلائل تُثبت أن الفكرة ذاتها صحيحة أو جيدة. المقصود بالسّلطة في هذا السياق هو كل شخص تكون لآرائه مكانة خاصة في حياتنا.

والحقّ أنّ الفكرة لا تكتسب قيمتها من فمِ قائلها مهما عَلا شأنه، بل من متانة حججها وصلابة أدلّتها. فإذا قُبِلت الكثير من نتائج النظرية النسبيّة في أوساط العلماء اليوم، فليس لأنّ صاحبها هو "ألبرت أينشتاين" بعبقريّته الآسرة، بل لأنّ التجارب والاختبارات العلميّة وقفت وراءها كحُرّاسٍ لا يُداوِرون ولا يُجاملون.



طوال قرون، ظل أرسطو يتربّع على عرش الفلسفة والمنطق. وقد بلغ من هيبته أن آراءه كانت أقرب إلى العقيدة الثابتة التي يُلجأ إليها لحسم النقاش. ومع ذلك فالكثير من أفكار أرسطو، عندما نراها بمنظور هذا العصر، نجدها مليئة بالخرافات والسخافات. كان أرسطو مثلا يعتقد أ ن الذين يتزوجون في سن صغيرة يكون أطفالهم إناثا، وأن الحمْل يجب أن يتم خلال فصل الشتاء حين تهُبّ الرياح في اتجاه الشمال، وأن عدد الأسنان عند الرجال أكبر من عددها عند النساء!

[84] Appeal to authority

اختبار الخُبراء: الأسئلة الخمسة

هل يُمكن لِتناوُلِ البَصَل أن يُقلِّل من خطر الإصابة بالسّرطان؟

سؤالٌ قد يتبادر إلى الذهن محمَّلاً بوعودٍ غذائيّةٍ مُغرية، وكأنّ كلّ بصلَةٍ تُخفي في طبقاتها علاجاً سحريّاً لمصائب الدّهر. غير أنّ الحقيقة العلميّة، كعادتها، أقلُّ شاعريةً بكثير.

مَن منّا يملك الجرأة على الادّعاء بأن لديه جواباً قاطعاً على هذا السؤال؟ الأمر يتطلّب أبحاثاً بيولوجيّةً مُطوّلة، وتجاربَ على عيّناتٍ بشريّةٍ متنوّعة، وربّما متابعةً دقيقةً لأوضاعهم لسنواتٍ عديدة قبل إطلاق أيّ حكم. ونحن، لسنا علماء مختبراتٍ ولا أصحاب مؤسّسات أبحاث، ولا نملك تلك الأجهزة الطبية المتطورة. فكيف لنا إذن أن نبثّ في المسألة بثقة العارفين؟

لذلك، نضطرّ إلى الاحتكام إلى خبراء الطبّ والتغذية. هؤلاء الذين، شاءت الأقدار، أن يقضوا أعمارهم بين أنابيب ومجاهر دقيقة. الالتجاء إلى الخبير، في مثل هذه القضايا، ليس ترفاً فكرياً، بل ضرورة حياتيّة تُجنّبنا أن نُصبح ضحايا لوصفاتٍ عابرة تتناقلها المجالس ووسائل التواصل الاجتماعي كما يتناقل الناس النّكات.

غير أنّ كلمة "خبير" ليست بطاقةً تُمنَح كيفما اتّفق. فهناك خمسة شروط أساسية ينبغي أن تتوفر في أيّ خبيرٍ حقيقيّ، وسنُطلِع أنفسنا عليها عبر خمسة أسئلةٍ لا ترحم، تكشف المعدن من الصّدأ.

1. **<u>هل اسم الخبير مذكور؟</u>**

بعد ظهور فيروس كورونا أواخر سنة 2019، غَمرت مواقع التواصل الاجتماعي سُيولٌ من الأخبار "المطمئنة" أو "المرعبة" على حدّ سواء:

- "أثبتت الدراسات أنّ الفيروس لا ينتقل عبر الجو، بل يَستقرّ على الأرض."
- "أكد باحثون أنّ الفيروس يعيش على اليدين عشر دقائق فقط."
- "يقول الخبراء إنّ الفيروس يموت إذا تعرّض لحرارة تفوق 26 درجة، ولذا فالتعرّض للشمس كافٍ للحماية."



لكن، مَن يكون هؤلاء الخبراء والباحثون والعلماء؟ وما هي هذه المصادر المعتمَدة؟ لا أحد يعلم! إنّه أشبه بصديقٍ يقول لك: "الناس يرونك ثقيلاً وسخيفاً"، وحين تسأله: "مَن هؤلاء الناس؟" يجيبك ببراءة: "لا أعلم."!

ثمّ إنّ عبارة "يقول الخبراء" تُوحي وكأنّ كلَّ الخبراء متّفقون بالإجماع على نتيجةٍ واحدة، وهو أمر نادرٌ جدّاً في الواقع. في أحاديث المقهى قد تُختفَر مثل هذه التعميمات، فالناس لا يحملون دفاتر بأسماء الباحثين ومؤسساتهم. لكن في الكتب ووسائل الإعلام أو على صفحات الإنترنت، عباراتٌ من نوع "يقول الخبراء"، "يؤكّد الباحثون"، "أثبت العلماء"، هي ضربةٌ موجعة لمصداقية الخبر، وتندرج في مغالطة "السّلطة المجهولة[85]".

ومن هنا، فإنّ السؤال الذي ينبغي أن يُطرح مع كلّ معلومة يُستشهد فيها بخبراءٍ أشباح هو: هل ذُكر اسم الخبير أو المؤسسة العلميّة؟ أم أنّ الأمر يتعلّق بمصدرٍ

[85] Anonymous Authority

غامضِ يذوب كالدخان؟ إنّه أوّل شروط الأمانة العلميّة، وأوّل خطوةٍ للخروج من أسر السّلطة المجهولة.

2. هل الخبير هو خبير في القضية المطروحة؟

مثال. " هذا المرهم ممتاز ويحتوي على مواد طبيعيّة تُغذّي البشرة وتقي من أمراض جلديّة متعدّدة. أنا كفنانة أستعمله يومياً وأنصح به كلّ النساء."

سواء استعملت الفنانة المرهم حقّاً أم لم تفعل، فإنّ كونها مشهورة لا يمنح شهادتها قيمة علميّة. فهي على كل حال ليست خبيرة في الصيدلة ولا طبيبة أمراض جلديّة. المثال يكشف لنا الشرط الثاني الذي يجب أن نتأكّد منه عند اللجوء إلى رأي شخصٍ ما: هل هو خبير في القضيّة المطروحة؟

في كثير من الأحيان، يُستَخدم اسم "خبير" بطريقة تُثير الدهشة، وكأنّ الشهرة أو المكانة الاجتماعيّة تمنح صاحبها سلطةً معرفيّة. من الطبيعي أن يكون لكلّ إنسان رأيٌ في شؤون الحياة، لكن حين يتعلّق الأمر بقضايا تقنيّة تحتاج إلى خبرة عميقة، لا يجوز أن نحتكم إلى فنّان في موضوعٍ طبّي، أو إلى طبيب في قضيّة اقتصادية، أو إلى خبير اقتصادي في مسألة فلكيّة. فالتخصّص ليس ترفاً بل شرطٌ أساسيا للمصداقيّة.



رغم أن الفنانين ليسُوا خبراء في الصحة أو التجميل، إلا أن الإعلانات تَستثمِر سُلطة المشاهير وقوة تأثيرهم لإقناع الناس بجودة مُنتَجاتها.

3. هل هو خبير مُتَحَيِّز؟

مثال. " الإنجازات الحكوميّة خلال السنوات الأخيرة كانت متميّزة وعظيمة. لستُ أنا من يقول هذا، بل هو تصريح رئيس الحكومة في لقاءٍ صحفي."

الاستشهاد بكلام رئيس الحكومة لإثبات الإنجازات العظيمة لحكومته يُشبه تماماً الاستشهاد بحديث بائع البطّيخ لإثبات أنّ بطّيخه أحلى ما يكون! كُلّ يُغني على ليلاه: بطيخي أحلى، وأطفالي أحسن تربية، وحكومتي أعظم حكومة.

هنا يظهر الشرط الثالث الذي ينبغي التحقّق منه قبل الركون إلى رأي أيّ خبير: هل هو متحيّز في القضيّة المطروحة؟ فالخبراء بشرٌ مثلنا، ليسوا ملائكةً منزّهين عن الأهواء، بل لهم مصالح وميول وأفكار مُسبقة قد تتسلّل، بوعي أو بغير وعي، إلى أحكامهم. لهذا من الصعب أن نأمل منهم الموضوعية المطلقة. لكن إذا كان تحيّزهم شديدا وواضحا، فمن الحكمة أن نحتفظ ببعض الشك لأنفسنا، وأن نُوازن الصورة بالبحث عن آراء أخرى من أطرافٍ مختلفة، حتى لا نكتفي برؤية البطّيخ من زاوية بائعه وحده.

4. هل رأي الخبير قديم وربما مُتجاوَز؟

مثال. "بطليموس، العالم المشهور والمرجعية الكبيرة في علم الفلك، قال بالحرف في الصفحة الخامسة من كتابه العظيم "المجسطي": "الأمر واضح جدا. الأرض في مركز العالم وكل الأجسام تتجه نحوها".

جميلٌ أن نستشهد بكلام فلكيٍّ مرموق حين نتحدّث عن قضايا الفلك. لكن المشكلة أنّ بطليموس عاش في القرن الثاني الميلادي، ونظريته في مركزيّة الأرض دُحِضت منذ القرن السادس عشر على يد الفلكي "نيكولا كوبرنيكوس". أجل، كان بطليموس عالماً كبيراً، لكن في زمانه. والعلم، كما نعلم، يُراجع نفسه باستمرار.

من هنا يظهر الشرط الرابع الذي ينبغي أن نضعه في اعتبارنا عند الاستشهاد بالخبراء: هل رأي الخبير قديم وربما متجاوَز؟ ليس كلّ رأي قديم خاطئاً بالضرورة، لكن كلّما كان الرأي موغلا في القدم، زادت مشروعيّة الشكّ في صحّته وصلاحيّته اليوم. فالعِلم ليس بناءً مُستقراً، بل عمليّة مراجعة وتصحيح لا تنتهي، تُسقط جدراناً قديمة لتبني مكانها جدراناً أحدث وأصلب.

5. هل هو خبير في إحدى العلوم الزائفة؟

مثال. "إذا كان الرجل من برج الثور والمرأة من برج الحمل، فهذا مؤشر جيد على إمكانية توافقهما. هذا ما أكده خبير الفلك والأبراج في صفحته الأسبوعية."

لِنُلاحظ أولا أن الربط بين الفلك والأبراج جنايةٌ معرفيّة في حق علم الفلك. إذا كان الفلك في بداياته مرتبطا بالأبراج، فلأن المعرفة آنذاك كانت مرتبطة بالخرافة، تماماً كما كان الطبّ قديماً يجاور السحر والشعوذة. أمّا اليوم، فالفلك علمٌ دقيق قائم على الرصد والمعادلات، بينما قراءة الأبراج لا تختلف في جوهرها عن قراءة الكفّ أو الفنجان.



صفة "الخبير" قد يَحملُها أشخاص يَمتهنُون علوما زائفة كقراءة الكفّ والأبراج والفنجان. هل يُمكن اعتبار خبرة في علم زائف خبرة من الأساس؟

المشكلة إذن أنّ صفة "خبير" قد يحملها أشخاص يشتغلون في ما يُسمّى "علوماً زائفة"[86]. فهل يُمكن اعتبار خبرةٍ في علمٍ زائفٍ خبرةً أصلاً؟

[86] Pseudo-science

هنا يظهر الشرط الخامس الذي ينبغي التنبّه إليه: قبل أن نُسلِّم بخبرة أيّ شخص، من الجيد أن نسأل: هل هو خبير في علم حقيقي يخضع لمناهج العلم وأدلّته، أم أن الأمر يتعلق بخبرة في علم زائف ؟ في زمنٍ تكاثرت فيه "الخبرات" كما يتكاثر الغبار في الهواء، لا بدّ من تمييز الذهب من النحاس، والعلم من الوهم.

ماذا تصنع إذا اختلف الخبراء؟



اللجوء إلى الخبير أمرٌ لا مَفرّ منه. تمرض فتقصد الطبيب، تتعطّل السيّارة فتهرع إلى الميكانيكي، ترفع دعوى قضائية فتلجأ إلى المحامي. بيد أنّ الأمور ليست دائماً بهذه البساطة.

كم من مرّة قصدتَ طبيباً فأعطاك تشخيصاً ووصفةً دوائيّة، لكنّك، بدافع الحذر، قصدت طبيباً ثانياً فإذا به يفاجئك برأي مختلف ويأمرك برمي أدوية الأوّل في سلّة المهملات! ماذا تفعل؟ هل تبحث عن طبيبٍ ثالث؟

المعضلة أنّك لست طبيباً لتضع تشخيص كلّ واحد تحت المجهر. وهذا التضارب يزداد وضوحاً في الطبّ النفسي حيث تتعدّد المدارس وتتباين الرؤى.

حين يختلف الخبراء، يتيه الناس: مَن نُصدّق؟ المسألة تُشبه ساعة اليد: إن كانت لديك ساعة واحدة ستعرف الوقت.. أو ستظن أنّك تعرفه. أمّا إن كانت لديك ساعتان تُشيران إلى توقيتَين مختلفَين، فقد يدوخ رأسك!

الاختلاف يبلغ أقصاه في المجالات الإنسانية، من قبيل دراسة اللغات والأدب والفنون والفلسفة والاقتصاد والسياسة والتاريخ وغيرها. فالدليل القاطع نادر، ومهما كان الرأي الذي تُدافع عنه، ستجد على الأرجح خبيرا يطعن فيه!

فماذا تصنع إذن إذا اختلف الخبراء؟ ومَن تُصدّق؟

لا أحد بالكامل. حين يختلف الخبراء، فالاختلاف نفسه إشارة إلى أنّ الحقيقة لم تُحسَم بعد. وهذا لا يعني أنّ كلّ الآراء متساوية القيمة، بل يعني أنّ عليك ألّا تتعامل مع رأي خبيرٍ واحد كأنه الحقيقة الكاملة.

وما هو الحلّ العملي؟ أوّلاً، الإنصات بتجرّد إلى وجهات النظر المختلفة. فإن لم تجد من الأدلّة ما يُرجّح كفّةً على أخرى، فربّما يكون الشك وتعليق القرار هو أفضل قرار. تعليق الحكم قد يمنحك الوقت لاستيعاب الصورة بأكملها . والأهمّ من كلّ ذلك أن تثق في قدرتك أنت أيضاً على الفهم والتحليل، ولو بحدٍّ معقول. أنت لست مجرّد متلقٍّ سلبيّ، بل تمتلك عقلاً قادراً على التفكير. الأهمّ أن تُؤمن بقدرتك على التفكير. ففي أحيان كثيرة، لا تحتاج إلى موسوعةٍ كاملة ولا إلى شهادةٍ عليا لتُكوّن موقفاً وجيهاً، بقدر ما تحتاج إلى إرادةٍ للتعلّم والفهم، وجرأة على مواجهة تضارب الآراء دون أن تفقد توازنك، ومعها شيء من مهارات التفكير النقدي. وحينها ستُدرك أنّ اختلاف الخبراء، مهما أربكك في البداية، قد يكون فرصةً ذهبية لتوسيع مداركك.

شيء من الثّقة

ذكر الفلكي الشهير "كَارل سَاجَان" في كتابه "عالم تسكُنه الشياطين: الفكر العلمي في مواجهة الدجل والخرافة"[87] أنه كثيرا ما كان يُسأل خلال محاضراته: "هل تؤمن بوجود الصحون الطائرة؟". وقال إن هذا السؤال كان يُفاجئه لِما يشتمل عليه من إيحاء بأن المسألة هي مسألة إيمان شخصي وليست مسألة دليل علمي.

يهتم الناس كثيرا بآراء المشاهير في قضايا مختلفة، هذا أمر شائع جدّا. المشكلة هي عندما يتوقَّف فضُولهم عند رأي تلك الشخصية المعروفة ولا يَتجاوزه إلى الرغبة في معرفة الحُجج والأدلة التي تدعم ذلك الرأي.

"لِيَكُنْ فُضولك أقلّ تُجاه الأشخاص، وأكثر تجاه الأفكار"، هذا ما قالَتهُ عالمة الفيزياء والكيمياء "مَارِي كُورِي"، والتي كانت بالمناسبة أول امرأة تحصُل على جائزة نوبل. ويمكن أن نُضيف أيضا: "لِيَكُنْ فضولك أقل تجاه الآراء، وأكثر تجاه الحُجج والأدلة." بدون حُجج ودلائل، ستسمح لمغالطة "الاحتكام إلى السلطة" أن تلعب برأسك، وقد لا تَعِي أنّك في طريقك إلى بناء منزل على تربة هشَّة.

ليس من صفات الإنسان الراشد أن يُفَوِّض من ينُوبُون عنه في التفكير. المفروض هو أن نُدافع عن الرأي مهما كان صاحبَه، لا أن نُدافع عن صاحب الرأي مهما كان رأيُه! مطلوب مِنَّا أن نتعامل مع أصحاب الفكر كمُفَكِّرين أيضا، أن نبذُل بعض الجهد لاستقصاء آرائهم وحُجَجِهم، أن نسترجع الثقة في قدرتنا على البحث والدراسة، حتى لا يتحوّل الأمر إلى ثقة عَمياء وغسيل دماغ، وحتى لا يصير أثمن ما نَعتزّ به كَبشر عِبءً ثقيلا نحملُه فوق أكتافنا!

---

[87] Carl Sagan: The Demon-Haunted World: Science as a Candle in the Dark, 1997

إنهم يعتقدون مثلنا



يَحلُو للناس أن يعرفوا أن اعتقاداتهم الدينية تُشاركهم فيها شخصيات شهيرة، والبعض يعتبر هذا الأمر دليلا قويا على صحة تلك المعتقدات. لِنَتَذكر أن قوّة الاعتقاد في حُجَجِه وليست في مَدَى شُهرة أحد مُعتنقِيه!

1. الديانة البوذية زادت شعبيتها في العالم الغربي بعد أن جذبت إليها عددا كبيرا من المشاهير مثل رائد الهواتف الذكية "ستِيف جُوبز".

2. حركة "الرّستَفَارية"[88] التي تُؤمِن بعودة المسيح في شخص إمبراطور إثيوبيا "هِيلَاسِيلَاسي"، اكتشفها العالم من خلال أغاني النجم "بُوب مَارلِي".

3. طائفة "القَبَالَة"[89]، المُستمدَّة من معتقدَات تراثية يهودية، زادت شهرتها بعد أن التحقت بها المغنية "مَادُونَا".

4. طائفة "السينتولوجيا"[90] حققت دعاية كبيرة بعد انضمام نجم هوليود "طُوم كرُوز".

---

[88] الرستفارية (Rastafari) هي حركة دينية نشأت في جامايكا في أوائل الثلاثينيات من القرن العشرين.أتباع هذه الحركة الدينية يؤمنون بعودة المسيح في شخص الإمبراطور "هيلاسيلاسي" الذي حكم إثيوبيا سنة 1930.

[89] القبالة أو القبلانية (Kabbalah) هي معتقدات وشروحات روحانية فلسفية تفسر الحياة والكون والربانيات وتستمد أسسها من معتقدات تراثية يهودية.

[90] السيَنتولوجيا (Scientology) هي طائفة دينية أسسها سنة 1952 الكاتب "رون هوبارد" وصاغها باعتبارها فلسفة دينية تطبيقية.

باختصار

1. نرتكب مغالطَة "الاحتكام إلى السّلطة" عندما نعتقد أن فكرة ما هي صحيحة أو جيدة لا لشيء إلا لأن سلطة معينة تؤيد تلك الفكرة. الفكرة تستمد قوتها من الدلائل والحُجَج التي تدعمُها وليس من سلطة الأشخاص الذين يؤيدونها.

2. الأسئلة الخمسة الواجب طرحها قبل الاحتكام إلى خبير:

- هل اسم الخبير مذكور أم أن الأمر يتعلق بمصدر مجهول؟
- هل هو خبير في القضية المطروحة للنقاش؟
- هل هو خبير مُتحيِّز (مصالح شخصية، اعتقادات مسبقة)؟
- هل رأيه من الآراء القديمة التي ربما صارت مُتجاوزَة؟
- هل هو خبير في علم حقيقي أم في إحدى العلوم الزائفة؟

3. لا تُفوض من يَنُوبون عنك في التفكير. مطلوب منك أن تتعامل مع أصحاب الفكر كمُفكِّر أيضا، وإلا تحوَّل الأمر إلى ثِقة عمياء وغسيل دماغ!


6
هذا مَا أَوصَانا بِهِ أَجدادُنا!
(الاحتكام إلى القديم)



اتّبَاع التقاليد لا يعني أن الأموات أحياء، بل أن الأحياء أموات.

(ابن خلدون)

ماهي الأمور التي يجب على المُفكر الحُر أن يتحرّر منها؟

لكي يكون جديراً بهذا اللقب، يجب أن يتحرّر من شيئين،

قُوة التقليد وطُغيان العاطفة.

(بِرتراند رَسل - قيمة الفكر الحُر)

أُحب الفتى أن يستقل بنفسه فيصبح في أفكاره مطلقاً حرا

وأكره منه أن يكون مُقلدا فيُحشَر في الدنيا أسيراً مع الأسرى

(معروف الرصافي)



يُحكى أنّ امرأةً كانت كلّما همّت بطهي سمكةٍ، سارعت إلى قصّ ذيلها الطويل. استغرب زوجها هذا الطقس الغريب، وحين سألها عن السبب أجابته بمنتهى الاطمئنان: "هذا ما تعلّمته من أمّي". لم يقتنع الرجل، فقصد والدة زوجته يسألها، فأجابته بالنبرة نفسها: "هذا ما تعلّمته من أمّي". ولمّا زاد الفضول عن الحدّ، شدّ الرجل الرحال إلى الجدّة، فإذا بها تكشف السر العظيم: "كنّا أسرة فقيرة، والمقلاة عندنا صغيرة، فلم تجد أمّي بُدّاً من قصّ ذيل السمكة حتى تتمكن من وضعها في المقلاة."

في شتّى بقاع الأرض، تتوارث الشعوب عاداتها واعتقاداتها جيلاً عن جيل. وأحياناً، كما في هذه القصة، يظلّ الناس أوفياء لعاداتٍ لم يعودوا يذكرون لها سبباً مقنعاً. كلّ ما في الأمر أنّ وصايا الأجداد، مهما طال عليها الزمن، لا بدّ أن تكون حكيمة في نظرهم، وكأنّ مرور السنين يمنحها شهادة جودة عالية أبدية.

لكن منطق العقل يقول غير ذلك: قِدَم الفكرة لا يجعلها بالضرورة صائبة ولا جديرة بالاتباع. لمئات السنين آمن البشر أنّ الأرض مسطّحة، وأنّ القلب هو مركز المشاعر، إلى أن أثبت العلم أنّ هذه التصوّرات لم تكن سوى أوهامٍ مُغلّفة باليقين.

مغالطة "الاحتكام إلى القديم"[91] تأخذ الشكل الآتي:

كل فكرة قديمة هي فكرة صائبة.

أو بشكل آخر:

كل عادة قديمة هي عادة جيدة.

[91] Appeal to antiquity

هذه المغالطة تقوم على وهمٍ مفاده أنّ ما يستمر عبر الأجيال لا بد أن يخفي وراءه قيمة جديرة بالاعتبار. غير أنّ هذا المنطق، لو اتُّبع ببراءة، لكان علينا أن نعدّ العبودية إنجازًا إنسانيًا يستحق التنويه، ما دامت قد لازمت تاريخ البشر لقرون طويلة!



إذا كان في استمرار كل تقليد لعدة أجيال ما يستحق التنويه، فهل يكون في استعباد الناس شيء يستحق التنويه مادامت العبودية موغلة في القدم؟

أمثلة

1. المرأة يجب أن تلزم بيتها لتعتني بزوجها وتربي أطفالها. هذه عادة آبائنا وأجدادنا!
2. الطب الشعبي قديم من مئات السنين، وما كان ليستمر طوال هذه المدة لو لم يكن فعّالا.

3. أجدادنا لم يستثنوا العصا في تربية أبنائهم. لماذا نُكابر اليوم وندَّعي أن ضرب الأطفال لا يساعد على التربية الحسنة؟
4. حزبنا يمتلك شرعية تاريخية جاءت بعد عقود من التجارب والخبرات. لا يُزايد أحد علينا! حزبنا هو الأقدر على الإصلاح والتغيير.
5. إياك أن تعمل بكلام النساء! ألم يقل المثل القديم "استشِرها ولا تَعملْ بِكلامها"؟



كان أجدادنا يعتقدون أن الأرض سطح مُستو تَعلوه قُبة اسمها السماء، هذه القبة يُمكن لَمسها ولمس النجوم التي تُزينها باليد إذا وصلنا إليها!1

عاداتٌ قومٍ عند قومٍ مصائبٌ

هل تتخيّل أنّ اشتراك الإخوة الذكور في زوجةٍ واحدة قد يُعتبر عادةً مقبولة؟ في بعض قرى التبت، هذا ليس مقبولاً وحسب، بل يُنظر إليه كخيارٍ حكيم! فالحكمة—كما يقولون— في الحفاظ على أراضي العائلة وثروتها من التشتّت والانقسام.

وفي ركنٍ آخر من العالم، هناك من يُطلِق الثيران الهائجة في شوارع "بامبلونا" الإسبانية، ليتحوّل السباق مع الموت إلى تقليدٍ "الإنثييرُو"[92] الذي يُفاخرون به، رغم أنّه يترك في كلّ عام قتلى وجرحى. أما في بعض مناطق الهند، فقد كان من علامات الوفاء والإخلاص أن تُحرق الأرملة نفسها حيّة بعد وفاة زوجها، في طقسٍ مأساويّ يُسمّى "ساتي"[93]، ظلّ يُمارَس إلى عهدٍ قريب قبل أن يُمنَع رسمياً.

ليست كلّ التقاليد سوطاً على ظهور البشر؛ فهناك عاداتٌ طريفة لا ضرر في استمرارها، كعادة الدنماركيين أن يرتدي العريس جوارب مثقوبة ليلة الزفاف، بحجّة أنّه لن تجد امرأة عاقلة ترضى برجلٍ بجوارب مثقوبة، وهكذا يظل العريس وفياً لزوجته!

لكن في المقابل، هناك عادات تُقيّد الإنسان وتخنقه وقد تقتله. وهنا يصبح التمييز بين الصالح والطالح من التقاليد واجباً إنسانياً. فاتباعها بشكلٍ أعمى، كما قال ابن خلدون، لا يعني أنّ الأموات أحياء، بل أنّ الأحياء أموات!

تخيّل لو أنّك تعيش وسط قبيلةٍ من آكلي لحوم البشر، وقررتَ في يوم من الأيام، لِدوافع أخلاقية نبيلة، التوقّف عن هذا السّلوك البَشع. حينها، سينظُر الآخرون إلى سلوكك على أنّه شاذٌ.. غير طبيعي.. وخيانة لِتقاليد الأجداد! عندما تَمسّ بعض العادات قيمة الإنسان.. راحته وسعادته.. عندما تصير بعض تقاليد الأجداد سجنا للأحفاد.. ألا يكون تحرير العقول من مثل هذه الأفكار والعادات خدمة جليلة تُقدّم للإنسان المتطلع إلى غد أفضل؟

---

[92] Encierro

[93] Sati

عاداتٌ قومٍ عند قومٍ مصائبٌ



1. في العديد من قرى التبت والنبال، تقضي التقاليد أن يشترك الإخوة الذكور في زوجة واحدة ويكون الأبناء للجميع. الصورة لأخوين مرتبطين بزوجة واحدة.
2. في مدينة "بامبلون" الإسبانية، تطلَق الثيران الهائجة في دروب المدينة. كل سنة، يُخلّف هذا التقليد قتلى وجرحى في صفوف المشاركين في سباق مع الموت ينطلق من حظائر الثيران وصولا إلى حلبة المصارعة.
3. "النساء الزرافات"، الاسم الذي يُطلق على نساء قبيلة "باداونج بالتايلاند. تقضي العادة أن تضاف إلى عنق الفتاة حلقة أو حلقتان كل سنة ابتداءا من سن السادسة حتى سن السادسة عشرة، لتبقى الحلقات حول عنقها بقية حياتها. الخطير في هذه العادة أنها قد تتحول إلى إعاقة تصبح معها المرأة عاجزة عن شرب الماء من دون الاستعانة بأنبوب طويل. والأخطر أن محاولة إزالة الحلقات قد يعرض رقبة المرأة للاختناق.
4. 4. "راوني" زعيم قبيلة "كايابو" والسفير الدولي لقضية الدفاع عن غابة الأمازون وثقافة السكان الأصليين. حسب عادات شعب الكايابو، تمطيط الشفاه تقليد يميزهم عن باقي الشعوب، والمحارب الذي يُمطّط شفاهه يعطي رسالة إلى أنه مستعد للموت من أجل أرضه.

احترام أو تبعية؟

إذا سألت شخصا من ثقافة مختلفة عن سبب استمراره في ممارسة عادة قديمة، فالأرجح أن يجيبك بأنه يحافظ على هذه العادة احتراما لتراث الأجداد. معظم شعوب العالم تُبرر تقاليدها وأعرافها بعبارة "احترام التراث".

ما معنى "احترام التراث"؟

الواقع أن هذه العبارة تُثير لُبسا لغويا. إننا أمام استعمال غير سليم لمفهوم "الاحترام". الاحترام يكون للأشخاص وليس للأفكار. الأفكار نتّفق معها، نختلف معها أو نقف منها موقف الحياد. الأفكار قابلة للمُساءلة والنّقد. ومهما كان موقفنا من أفكار أجدادنا، فالواجب الأخلاقي يُحتّم علينا احترامهم كأشخاص. احترام الأجداد لا يعني قبول أفكارهم وعاداتهم، وإلا صار الاحترام مُرادفا للتبعية. أجدادنا هم مثلنا بشر غير منزهين عن الخطأ، واختلافنا معهم لا يُقلل بأي حال من الأحوال من احترامنا لهم.

إن خبرة الجد الكبير هي بالتأكيد خبرة مُهمة وملهمة بسبب ما عاشه وجربه طوال حياته. لهذا يقال إن عجوزا يحتضر هو مكتبة تحترق. بسبب هذا النضج وهذه الخبرة، نُفضل استشارة الجد الكبير على الطفل الصغير.

البشرية بالأمس، إذا جاز التشبيه، كانت طفلا صغيرا يحاول فهم العالم بأساليبه البسيطة. كان أجدادنا يعتقدون أن الأرض سطح مستو تعلوه قبة اسمها السماء، هذه القبة يمكن لمسها ولمس النجوم التي تزينها باليد إذا صعدنا إليها!

في أيامنا، يعرف الطفل ذو العشر سنوات أن الأرض كرة مستديرة وكوكب متواضع من بين بلايين الكواكب والنجوم السابحة في الفضاء، وأن السماء ليست قبة فوق رؤوسنا، بل نحن السابحون في السماء. هذا الطفل يتعلم عن الفيروسات والذرات والمجرات، وهي

أمور لم تكن تخطر على بال أعظم حكماء أجدادنا قبل بضعة قرون. عارٌ على الجنس البشري، كما قال "فرانسيس بيكون"، أن يُستكشف العالم المادي بهذا الشكل المذهل، بينما يبقى العالم الفكري محبوسا في المعارف الضيقة للقدماء!

التطور الذي عرفته البشرية خلال النصف الثاني فقط من القرن العشرين يفوق على الأرجح كل ما راكمته طوال ألوف السنين السابقة. خاض أجدادنا في زمنهم رحلة شاقة لفهم العالم وابتكروا أفكارا وحلولا لمشاكل عصرهم. لكن الكثير من هذه الأفكار والحلول لم تعد صالحة لزماننا، والكثير من العادات التي كانت لها مبررات في الماضي فقدت مبرراتها اليوم، بل صار بعضها عبئا ثقيلا على كاهل الناس.

الطفرة النوعية التي حققتها البشرية لم تصنعها عقول استكانَت إلى تراث الأجداد وظلت قابعة في كهفها تُردد نفس الأغنية القديمة، بل صنعتها عقول مغامرة عملت على نقد الأساليب القديمة وطرحت أساليب حديثة أكثر فعالية وأصلح للإنسانية. هذه العقول العظيمة علّمتنا أن نقد القديم وتصحيحه وطرح الجديد واختباره ثم الاستمرار في تحسينه هي من أهم آليات التطور الحضاري. هذه العقول النيرة علمتنا أن أهم ثابت في عالمنا هو التغير، وأن التفكير النقدي المتواصل هو ما ينبغي أن يكون العادة والعُرف والتقليد!

أسطورة الزمن الجميل

هل تُصدّق أنّ زمن أجدادنا، قبل مائةٍ أو ألف سنة، كان أفضل من زماننا؟

كثيرون يُسمّونه "الزمن الجميل"؛ أيّام كان الناس، بحسب الخيال الشعبي، في صحّة حديديّة، يمرضون نادراً ويعيشون طويلاً، والقلوب أنقى من الماء الزلال، والأمن يعمّ حتى أنّهم يتركون الأبواب مُشرعة وكأنّ اللصوص لم يُوجدوا بعد على هذه الأرض! حالة من

النوستالجيا لِمَاض بعيد يجعلك تتخيل أن الحديث يدور عن ملائكة وليس عن بشر من دم ولحم.

لكن الحقيقة أقلّ شاعرية، بل أكثر خشونة. صحيح أن الظلم لم يَختفِ قط في أيامنا، والرأسماليّة ما زالت تُتقن فنّ الاستغلال، وحقوق الإنسان لا زالت تشوبها الكثير من النواقص. ومع ذلك، يمكن القول إن معظم الأمور المعيشية في أيامنا تحسنت عما كانت عليه قبل مائة أو ألف سنة .

أسلافنا كانوا عرضة للاستعباد والقمع الشديد، ولم يتمتعوا بالحد الأدنى من حقوق الإنسان كما نعرفها اليوم. الأدوات التي نستعملها في حياتنا اليومية كالملعقة والسكين والجوارب والمراحيض كانت في الماضي حكرا على السلاطين والنبلاء، أمّا الثلاجة والهاتف والحاسوب، فكانت أقرب إلى نُكاتٍ لو رُويت لهم لأشاحوا بوجوههم قائلين: "اذهب وامزح مع غيرنا ."الطب تطور وهو ما سمح بتحسن الأوضاع الصحية للناس وبارتفاع معدل الحياة. بسبب التلقيح لم تعد أمراض مثل الحصبة والشلل والسعال الديكي تهلك أعدادا هائلة من الأطفال. حكت لي جدتي أنها أنجبت خلال حياتها 12 طفلا، مات منهم ستة، وعاش ستة!

الزمن الجميل ليس بقدر الجمال الذي تحمله في مخيلتك. عندما تقرأ أو تشاهد أخبار الحروب وجرائم القتل والاغتصاب، قد تفكر أن الشر بلغ ذروته في زماننا، وأن أجدادنا لم يعرفوا مثل هذه الشرور. هل فكرت أن الجريدة والتلفزة والإنترنت التي كشفت لك كل هذه الشرور في زماننا بالصوت والصورة، لم تكن موجودة زمن أجدادنا؟ لو كان لهذه الوسائل الإعلامية أن تتوفر أيام الزمن الجميل، هل كان سيبقى في نفس مستوى الجمال بمخيلتك؟

من ناحية أخرى، وحتى نكون عادلين، لا ينبغي أن نفترض أن أمرا ما هو جيد لمجرد أنه حديث العهد، وإلا سنقع في مغالطة "الاحتكام إلى الجديد"[94]. لازال الناس في أيامنا يستمعون إلى روائع "موزار" و"بتهوفن" و"فيفالدي"، ويستمتعون بقصص ألف ليلة وليلة وأشعار عمر الخيام ومسرحيات شكسبير، ويقفون في انبهار أمام سحر لوحات "دافنشي" و"رمبراند" و"أنجلو". في الجمال لا عبرة للزمن، أو على حد قول ميخائيل نعيمة "الجميل من القديم سيبقى جميلا، والقبيح من الجديد سيبقى قبيحا."

شيء من التسامح

يَحكي عالم الاجتماع "علي الوردي" [95] أنه حضر ذات يوم جلسة تضم مجموعة من رجال الدين. وبعد نقاش طويل، أجمع هؤلاء الرجال أن البشر كلهم لا عذر لهم في عدم إدراك الحق، بل إنهم مُلزَمون أن يسيحوا في الأرض ليبحثوا عن الحق، فإذا وجدوه اعتنقوه حالا. عندها سألهم عالم الاجتماع: "لماذا لم تسيحوا أنتم في الأرض للسعي وراء الحق؟" أجابوه وهم مندهشون لهذا السؤال السخيف: "إننا لا نحتاج للسعي وراء الحق لأن الحق عندنا!"

هذه القصة الطريفة تُبين كيف يسقط الناس بسهولة في فخّ الكَيل بمكيالين، فيتخيّلُون أنهم هم أصحاب الحق الذي، لحسن حظهم، وجدوه بالقرب منهم لدى آبائهم وأجدادهم، وأن الأمم الأخرى هي الملزمة باتباع منهج البحث القائم على الموضوعية

[94] Appeal to novelty

[95] علي الوردي: مهزلة العقل البشري، ص 56.

والعقلانية وتقصي الحقيقة. هذه الأمم الضالة هي الملزمة بالشك في تراث أجدادها، ثم السيحان في الأرض بحثا عن الحق.

لكن ما يغيب عن الأذهان أنّ معظم الناس لا يختارون عقائدهم بعد بحثٍ طويل وتمحيصٍ شاقّ، بل يرضعونها مع حليب الأم. ثمّ، إذا كبروا، يبدؤون بالتنقيب عن الحجج التي تبرر لهم تلك الاعتقادات.

كلُّ فكرةٍ قديمة كانت في يومها ثورةً جديدة. كلُّ دينٍ في بداياته كان يُعتبر تمرّداً على تقاليد الأجداد. لكن المفارقة أنّ أتباع هذه الثورات، بعد قرون، يصبحون هم أنفسهم شرطة مكافحة التجديد، متناسين أنّ أسلافهم الأوائل كان يُنظر إليهم في زمانهم كمتمردين على تراث أجدادهم!

ورغم أن معظم الأديان تدعو إلى تقصّي الحقيقة وعدم اتباع عقائد الأجداد بشكل أعمى، إلا أن تأثير العادة يظل الأقوى على أرض الواقع. فمعظم أبناء الهندوس هم هندوس، كما أن معظم أبناء الكاثوليك هم كاثوليك. الاعتقاد لدى الجمهور العريض من الناس هو أقرب إلى المصادفة الجغرافية منه إلى القناعة الشخصية.

إذا كنت مندهشا من غرابة بعض الطقوس التي لازالت سائدة لدى بعض الأمم، فاعلم أن دهشة الواحد منهم من طقوسك هي على الأرجح لا تقلّ عن دهشتك.

إذا كنت تستنكر بعض الاعتقادات التي تراها ظلامية، فمن أدراك أنها ما كانت لتبدو في نظرك نور الشمس في رابعة النهار والحق الساطع الذي لا يُنكره إلا مُكابر لو أنك تعودت عليها منذ نعومة أظافرك، ووجدت أعز أقربائك وأحبائك يعتنقونها بحب وفخر شديدين؟

إن توقعك أن الحجج العقلانية والدلائل المنطقية التي تقدمها هي كافية لتفنيد عقائد الآخرين وردّهم إلى سبيل الحق هو توقع لن ينتج عنه على الأرجح سوى الإحباط. لماذا؟ لأن هؤلاء، مثلك تماما، تشرّبوا منذ الطفولة المبكرة عقائدهم من آبائهم وأجدادهم، فصارت من تَعوّدهم عليها وارتباطهم العاطفي بها تبدو لهم هي الشمس الساطعة في كبد السماء!

لو كان أجدادنا غير الأجداد، وبلادنا غير البلاد، وزماننا غير الزمان، من يدري أية أفكار كُنا سندافع عنها بكل حماس واستماتة؟

لهذا، لا ينبغي أن نَكُون قاسِين في لَوْم الناس الذين نشأوا وتربّوا على عقائد مخالفة لعقائدنا. لو كُنّا مكانهم، لَكُنّا على الأرجح من أشد المدافعين عن تلك العقائد! الإدراك العميق لهذه الحقيقة، التي يشترك فيها معظم البشر على سطح هذا الكوكب، كفيل بزيادة مساحة التسامح في قلوبنا.



لا ينبغي أن نَكُون قاسِين في لَوْم الناس الذين نشأوا وتربّوا على عقائد مخالفة لعقائدنا. لو كُنّا مكانهم، لَكُنّا على الأرجح من أشد المدافعين عن تلك العقائد!

باختصار

1. نرتكب مغالطة "الاحتكام إلى القديم" عندما نعتقد أن قِدَم الفكرة أو العادة دليل على صحتها أو صلاحيتها. الفكرة القديمة ليست بالضرورة صائبة كما أن العادة القديمة ليست بالضرورة صالحة لعصرنا.

2. احترام الأجداد لا يعني بالضرورة قبول أفكارهم وعاداتهم، وإلا صار الاحترام مرادفا للتبعية. الاحترام يكون للأشخاص وليس للأفكار.

3. من ناحية أخرى، لا ينبغي أن نفترض أن أمرا ما هو جيد لمجرد أنه حديث العهد، وإلا سنقع في مغالطة "الاحتكام إلى الجديد".


7
إِحسَاسِي لاَ يُخطِئُ!
(الاحتِكام إلى المشاعر)

بِمُجرد ما يتضخّم الإحساس، تختفي قابلية التفكير.
(جُوستَاف لُوبُون)

في المشاعر، يُصبح غياب المنطق أفضل دليل على الصدق.
(تُولستُوي)

أن نَفهم العالم كما هو، وليس كما نتمنَّاه أن يكون،
هذا هو بداية الطريق نحو الحكمة. (بِرترَاند رَسل)

من الأفضل تقبّل حقيقة مُرة بدلًا من خرافة مُطمئنة.
(كَارل ساجان)

إنّه واجبي أن أتعلّم كيف أُوفّق رغباتي مع الوقائع،
وليس أن أُوفّق الوقائع مع رغباتي. (تُومَاس هكسلِي)

حين نَستشعر الغضب في نقاش ما،
فعندئذ نَكُفّ عن السّعي في سبيل الحقيقة
لكي نسعى في سبيل تأييد الذات. (تُومَاس كَارلَايل)

كمُدَرِّسٍ لِمادّةِ الرياضيّات، اعتدتُ أن أستقبل بين الحين والآخر طالبًا يأتي مُلتمسًا منّي إنجاحه في الامتحان أو أن أُغمِض عيني عن بعض هفواته في ورقة الاختبار. الأعذارُ لا تُعَدّ ولا تُحصى، وهذه عيِّنة منها :

- "لقد بَذلتُ جُهدًا جَبّارًا وتَعِبتُ كثيرا استعدادًا للامتحان. لا أُريد أن أُصابَ بالإحباط!"
- "لقد رسبتُ السّنة الماضية، وإن عُدتُ إلى الرّسوب هذا العام فسأكون مُهدَّدًا بالطّرد، وسيَدَمّر مستقبلي بالكامل !"
- "أبي وأمّي يَبذُلان الغاليَ والنفيس كي أنجح. فإذا فشلتُ، انفطَر قلبهما بسبب فشلي في تحقيق حلمهما!"

لا أُنكر أن بعض هذه الأعذار كانت تُربكني عاطفيا بل وربما تُشعرني بوخز الضمير. مع الوقت، صرتُ أتعلم أن أُحاول التمييز بين الأعذار المعقولة واللّامعقولة، بِغَضّ النظر عن تأثيرها العاطفي.

فالطالب إذا بذل جهدًا قبل الامتحان، فهذا لا يعني بالضّرورة أنّ مستواه العلمي قد بلغ المطلوب. فالجُهد شيء، وصحة الأجوبة المُقدَّمَة في ورقة الامتحان شيء آخر.

أمّا الخوف من الرّسوب، فلو كان حجّةً صالحة للنجاح، لوجب علينا أن نُعلِّق لافتةً على باب المؤسّسة تقول: "نجاحٌ مضمون للجميع، بلا امتحان ولا اختبار ."

وأمّا دموع الوالدَين وأحلامهما الوردية، فهل يُعقل أن تُصبح الكفاءة العلميّة رهينةً بمشاعر الآباء؟ أيُقبَل أن يكون رضى الأهل سُلّمًا قصيراً يقفز به الأبناء إلى شهادات فارغة، بينما

المجتمع ينتظر مستوى عاليا من الكفاءة في أطر المستقبل المُعَوّل عليهم أن يَسيروا بالمجتمع إلى الأمام؟

العاطفة قد تدفعنا للقبول بِنفع فرد واحد على حساب الجماعة، وهذا ما عبّر عنه الشاعر "معروف الرصافي" قائلا:

إذا نظرتَ إلى الجُزئي تُصلحه فارقُبْهُ مِن مَرقب الكُلِّيِّ في النَّظر

فإنَّ نَفْعَكَ شخصًا واحدًا رُبّمَا يكون مِنه عموم الناس في الضَّرر

الإحساس بالعطف والشفقة تُجاه الآخرين هو بالتأكيد شعور إنساني نبيل، والعُذر في حالات عديدة يكون معقولا. إذا طلب التلميذ من أستاذه مثلا فرصة ثانية لاجتياز الامتحان بسبب مرض صِحّي أصابَه خلال فترة الامتحانات، فهذا قد يكون مبررا معقولا. الإشكال يكمن في استغلال إحساس الشفقة بشكل لاعقلاني.

نَقع في مُغالطة "الاحتكام إلى الشَّفَقة"[96] عندما تأخذ الشَّفقة مكان الحُجّة والبَيِّنة. في هذه الحالة، يكون العُذر المبني على العاطفة بعيدا كل البعد عن الفكرة موضع النقاش، ونكون ببساطة أمام خروج عن الموضوع!

وإذا كانت البراهين في عالم الرياضيات صافية وعقلانية إلى أبعد الحدود، فإن الحُجج التي يُقدمها الناس في حياتهم اليومية للدفاع عن آرائهم غالبا ما تكون مُغلَّفة بطبقة كثيفة من الانفعالات العاطفية والتَّحيّزات، لهذا يتوجّب أولا نَفض غبار هذه الطبقة الكثيفة قبل استخلاص الحُجة الصافية وتحليلها بشكل منطقي. وفي أحيان كثيرة، لا يتبقى بعد نفض الغبار أي شيء، لأن الحُجّة من الأساس لم تكن موجودة!

[96] باللاتينية "argumentum ad misericordiam" وبالإنجليزية "appeal to pity".

أمثلة (الاحتكام إلى الشَّفَقة)

1 . أنا يا ابني مريض وقلبي ينفطر من أجلك. أرجوك.. تزوّج بنتَ عمّك حتى أموت وأنا مرتاح البال!

2 . من فضلك أيها الشرطي لا تُسجّل المُخالفة! أعرف أن السياقة في حالة سُكْر خطأ فادح، ولكنّي أبٌ مسكين ولديّ مصاريف عائلية كثيرة. فَكِّر في أطفالي!

3 . أرجوك شَغِّلني معك في الشركة ولا تُخيّب مَسعاي. أسرتي فقيرة، أمّي مريضة وعليّ ديون كثيرة.

4 . سيدي القاضي، صحيح أن مُوكِّلي مُتورط في قضية فساد مَالي، ولكنه مرّ بظروف صعبة وأزمة حادة. إذا أودعتمُوه السجن فستتحطَّم حياته وحياة أسرته!

بشكل عام، عندما نستخدم المشاعر لقبول فكرة معينة، ومن دون تقديم أيّة دلائل عقلانية، فإننا نقع في مغالطة "الاحتِكام إلى المشاعر"[97]. تَكمُن المغالطة في استغلال المَشاعر قصد تشتيت الانتباه عن الحُجة العقلانية أو استبدالها تماما. وبما أن طيف المشاعر واسع الامتداد، فإن مغالطة "الاحتِكام إلى المشاعر" تشمل فئة واسعة من المغالطات، من أهمها الاحتِكام إلى الشَّفَقة، الخوف، الكراهية، الإطراء والسخرية.

[97] Appeal to emotion.

أمثلة (الاحتكام إلى المشاعر)

1. الاحتِكام إلى الخوف[98]: "إذا فازت الرفيقة "كَامَالا" في نونبر، فمِن شبه المؤكد أننا سنشهد حربا عالمية ثالثة. ملايين الوظائف ستختفي فجأة، ومُدَّخرات حياتكم ستختفي تماما." (مقطع من خطاب الرئيس الأمريكي "دُونالد ترامب" خلال الحملة الانتخابية الأمريكية سنة 2024)
2. الاحتكام إلى الكراهية[99]: الرياضيات مادة تافهة لا تصلح لشيء! لقد كرهتُها بسبب صعوبة الفروض والنقط المتدنِّية التي كنتُ أحصل عليها.
3. الاحتِكام إلى الإطراء[100]: شخص بذكائك سيَفهم بسهولة ما أعنيه وسيَدرك أن ما أقوله هو عين الصواب.
4. الاحتِكام إلى السخرية[101]: تُريد مِنَّا وضع حزام السلامة! ألا نَضع أيضا مَنَاشِف وحفَّاظات الأطفال؟

هل كُلُّ احتكامٍ إلى المشاعرِ يُعَدُّ مغالطةً منطقيّة؟ بالتأكيد لا. فإذا دعا أحدُهم مثلًا إلى وقفِ حربٍ يذهبُ ضحيتَها أطفالٌ أبرياء، فإنَّ مشاعرَ التَّعاطف التي يُثيرُها تُسلِّط الضوءَ على التكلفةِ البشريّة المُروِّعة للحربِ وعلى أبعادِها اللّاأخلاقيّة. في مثل هذه الحالة، يكونُ الاحتكامُ إلى المشاعرِ مقبولًا ما دامَ لصيقًا بالموضوعِ، وما دامَ يُدافعُ عن قضيّةٍ عادلةٍ. الانفعالاتُ العاطفيّةُ تَعرَضُ لنا جميعًا، ولا مَهربَ منها، بل إنَّ الإنسانَ لا يكونُ إنسانًا طبيعيا بغيرها. غير أنّها في ذاتِها ليست صائبةً ولا خاطئة، لأنَّ أحكامَ الصَّوابِ والخطأ

[98] Appeal to fear
[99] Appeal to spite
[100] Appeal to flattery
[101] Appeal to ridicule

تتعلَّقُ بالاعتقاداتِ لا بالانفعالات. ولعلَّ أجملَ مثالٍ على ذلك هو السِّكّين: أداةٌ بريئةٌ تُقطَّع بها الخُضار كما يُمكن أن تُزهَقَ بها أرواحٌ بريئة. وكذلك العاطفةُ، فهي سلاحٌ ذو حدَّين: يُستعملُ إمَّا لإقناع النَّاس بالتَّبرعِ لإنقاذِ أطفالٍ مُصابين بالسَّرطان، أو يُستغلُّ لإقناعهم بقتلِ مخالفيهم في الرأي.

إنَّ العاطفةَ ليست في ذاتِها حجَّةً منطقيّة، بل هي مادّةٌ خام يمكن أن تُصاغَ في أيِّ شكل. فالغضبُ، على سبيل المثال، قد يدفعُ صاحبَه إلى الدِّفاعِ عن المظلومين والمطالبةِ بإنصافهم، لكنَّه قد يُطفئُ مصباحَ العقلِ ويدفعُه إلى عملٍ متهوِّرٍ ينتهي به خلفَ قضبانِ السجن!



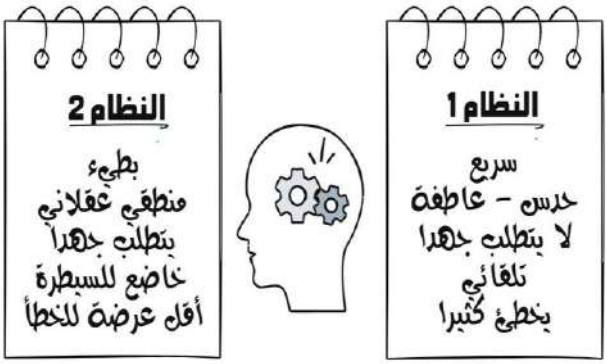
في مُحاورة "جُورجياس"، يؤكد أفلاطون أن الحَلواني سيَهزِم الطبيب إذا جرى نقاش بينهما حول الطعام أمام جمهور من الأطفال! عندما يتعلق الأمر بالمشاعر، لا يختلف البالغون كثيرا عن الأطفال.

التفكير بسرعة وببطء

في كتابه الشهير "التفكير، بسرعة وببطء"، يتحدّث عالم النفس والاقتصاد "دَانيال كَانمَان"[102] عن النِّظامين الذين يُحددان الطريقة التي نفكر فيها، وكيف يعمل العقل وفقاً لِشَدٍّ وجَذب بين هذين النظامين:

- "النظام 1": يعتمد على الحدس والعاطفة، سريع وتلقائي في اتخاذ القرارات، ولا يتطلب كثيرا من الجهد.

- "النظام 2": يعتمد على التفكير المنطقي العقلاني، ولكنه أبطأ ويستلزم جهدا أكبر.



معظم الوقت، يشتغل عقلك في إطار النظام 1. الميزة الكبرى هي السرعة في إصدار الأحكام واتخاذ القرارات، والعيب الأكبر هو أن هذه الأحكام والقرارات تكون عرضة للخطأ

[102] Thinking, Fast and Slow. Daniel Kahneman (2011)

على الرغم من كونه في الأصل باحثًا في علم النفس، حصل "دَانيال كَانمَان" في عام 2002 على جائزة نوبل في العلوم الاقتصادية، بسبب أبحاثه في الاقتصاد السلوكي.

أكثر مما تتصور. عقلك المنطقي بطيء ومُتثاقل، لأنه يحتاج إلى الوقت والجهد لتحليل الأمور بروية ورزانة، بينما إحساسك العاطفي متسرع وجاهز لاتخاذ القرارات بسرعة البرق. العقلانية تستهلك الكثير من وقود الدماغ، بينما المشاعر كشرارة النار جاهزة في كل وقت للاشتعال.

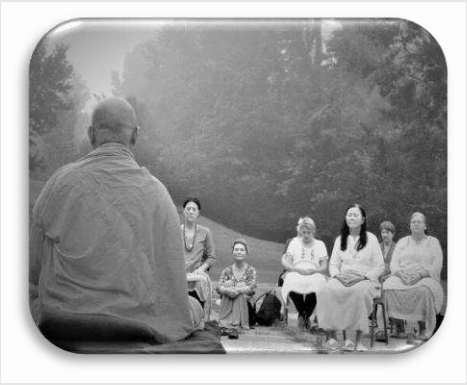
وكما أن أسوأ الفرق الرياضية تجد لها جمهورا مدفوعا بالعاطفة ليَشجعها، فإن أسوأ الأفكار تجد لها أيضا جمهورا متحمسا للدفاع عنها! لا عجب إذن أن نُلاحظ أن السياسيين الأكثر تأثيرا هم الذين يَحكون قصصا مؤثرة ويرفعون شعارات تَهزّ المشاعر، وليسوا أولئك الذين يتحدثون بلغة المنطق والأرقام!

هل الحقيقة هي ما تَرتاح إليه؟

يجدُ كثيرٌ من النّاس في أصقاع العالم راحةً نفسيّةً عميقة في ممارسة التأمّل عبر رياضةِ اليُوغا، بل إنَّ بعضَهم لم يكتفِ بالاسترخاء، بل قفز خطوةً أبعد فاعتنق البوذيّة بعد أن تذوّق طعمَ ذاك السّلام الدّاخلي. غير أنّ السّؤال المنطقي هو: هل تُعَدَّ هذه الرّاحة معياراً كافياً للحُكم على صواب العقيدة البوذيّة؟

الجوابُ، ببساطة، لا. فالمؤمنون من شتّى الأديان والمذاهب يروون قصصا عن السّكينة التي أحسّوا بها في حضن معتقداتهم. ومن منظورٍ نفسيّ، نعم، السّلامُ الدّاخلي مكسبٌ عظيم، لكن من منظورٍ منطقيّ، لا يصلح هذا الشّعور كبرهانٍ على الحقيقة. فالراحةُ مجرّدُ إحساسٍ شخصيّ، يختلفُ من إنسانٍ إلى آخر. أمّا الصوابُ، فمقياسٌ موضوعيّ لا علاقة له بتقلّبات المشاعر.

الفكرةُ المريحة لا تكونُ دائمًا صحيحة، كما أنَّ الفكرة المزعجة لا تكونُ دائمًا خاطئة. فإذا تمسّكتَ بفكرةٍ لأنّها تُعجبك، أو تُريحك، أو تَخدم مصلحتك، أو لمجرّد أنّك تعوّدت عليها، فأنت تسقط في فخّ "المنطق المعكوس"، حيثُ يسبقُ اليقينُ البرهان.



يتحدَّث الناس من مختلف العقائد عن الراحة النفسية التي اختبرُوها في إطار عقيدتهم. إذا كانت الراحة النفسية أمراً جميلا من الناحية العاطفية، فهي من الناحية العقلانية تبقى أمرا لا صلة له بصِحّة الاعتقاد. المشاعرَ قد تُريح القلب، لكنّها لا تُقيم الدليل.

العقلانيّة امتحان عسير، فهي تُلزمك أن تُودِّع فكرتك، مهما كانت قريبةً إلى قلبك، إذا ثبت بالدليل أنّها خاطئة، وأن ترحّب بأخرى، مهما كرهتها نفسك، إذا برهن الدليل على صوابها. وهكذا تُصبح العقلانيّة مرانًا على المرونة، وطريقًا شاقًّا يجرّنا أحيانًا بعكس أهوائنا ورغباتنا، لكنَّه الطّريق الوحيد الذي لا يُخدع بزينة الأفكار ولا يُسكره عطرَ الرّاحة النّفسيّة.

تقوم مغالطة "الاحتكام إلى النتائج"[103] على افتراض أن كل اعتقاد يُؤدّي إلى نتائج مرغوبة فهو صحيح، وكل اعتقاد يُؤدي إلى نتائج مكروهة فهو خاطئ.

[103] Appeal to consequences

حينَ افترضَ كوبرنيكوس أنَّ الأرضَ ليست هي مركزَ الكون، بدتْ فكرتُه آنذاك كالصّاعقة على العقول. فقد رأت تلك العقولُ في إسقاط الأرض من عرشِها إهانةً لكرامة الإنسان وتقزيمًا لمكانته في هذا الكون المترامي الأطراف. ومع ذلك، فإنَّ صوابَ النّظريّة أو خطأها لا علاقةَ له بكبريائنا ولا بمشاعرنا المُرهفة. فالحكمةُ تقتضي أن نعترفَ بأنَّ العالم لم يُفصّل على مقياس أهوائنا. العالم لا يُبالي برغباتنا ولا يُعنى بأحلامنا الطفوليّة. وعليه، إن أردنا فهمَه، وجب أن نفهمه كما هو، لا كما نشتهيه أن يكون.

ولكن، ماذا عن القرارات العَمَلِية التي نتّخذها في حياتنا اليومية؟ ألسنا نُقرر عادة أمور حياتنا بناءً على النتائج التي نرغب في الوصول إليها؟ طبعا، فالتاجر مثلا يختار الصفقة الأكثر ربحا. لهذا فالاحتكام إلى النتائج يصبح مغالطةً منطقيّة فقط حينَ يتعلّق الأمرَ بالسّؤال عن الحقيقة والصّواب.

تذكر جيدا : الحقيقة لا تصير وهما لأنها تزعجك، والوهم لا يصير حقيقة لأنه يريحك !

أمثلة (الاحتكام إلى النتائج)

1. " لقد تناقلت الأخبار خبرًا مُدوِّيًا مفاده أن أحدُ القساوسة مُتّهَم باغتصاب الأطفال !هذا مُستحيل! كيف يمكن لرجلِ دينٍ، يرفع شعارَ الأخلاق بين الناس، أن ينزلق إلى قاعٍ كهذا؟"

لا يرغب المتكلم في تصديق مثل هذا الخبر لأن رغبته أن يَعكس سُلوك رجل الدين المبادئ السّامية التي يدعو إليها. وبالمنطق نفسه، يرفضُ آخرون تصديق أن أبًا أو أمّا قد يؤذيان فلذة كبدهما، أو أن مُعلّمًا قد يعتدي على أحد تلاميذه، لأنّ رغبتهم أن يكون المربّون ملائكةً في ثياب بشر. غير أنّ الواقع -كعادته الوقحة- لا يُساير رغباتنا دائمًا، ليذكّرنا أنّ ما هو كائن ليس بالضرورة هو ما نُريده أن يكون.

2. "كن طيّبًا صالحًا، ولن يُصيبك أيّ أذى!"

صحيح أنّ الدعوة إلى الطّيبوبة أمرٌ محمود، لكنّ الاعتقاد بأنّ الطّيبة تُجنِّب صاحبَها المِحن اعتقادٌ جميل، نعم، لكنّه ساذج. انظر حولك وسترى بين ضحايا المآسي أشخاصا في غاية اللطف والعذوبة. تَوقُّعُك ألّا يُصيبك مكروه لأنك إنسان طيّب أشبه بِتَوقُّعك ألا يُهاجمك ثور لأنك شخص نباتي!

3. "لا يمكن أن تكون نظريّة التّطوّر صحيحة، وإلّا لكان الإنسان شبيهًا بالبهائم والحيوانات!"

بغضّ النظر عن رفضك أو قبولك لهذه النّظريّة، فإنّ هذه الحجّة لا مكان لها في ميدان المنطق. فالقضايا العلميّة لا تُبنى على أهوائنا ولا على كبريائنا الجريح، بل على ما يفرضه البرهان ويؤكّده الدّليل. فالعِلم لا يتكيّف مع كرامتنا، وإنّما يطالبنا أن نتواضع أمام حقائقه، مهما كانت صادمةً لغرورنا.

مِن الأماني إلى الواقع: الفجوة الكبرى

تقع حادثة سرقة في منزل الأسرة. يُبادر الأب لإخبار الشرطة، ولكن أحد المُقرّبين ينصحه قائلا: "لا داعي لإخبار الشرطة، فعاجلا أو آجلا سيقع المجرم بيد العدالة، وكل مُذنب لابد أن ينال جزاءه."

الاعتقاد بِعَدَالة العالم[104] ينبني على فكرة أن كل الناس يَنالُون ما يستحقُّون، ويستحقُّون ما ينالُون. هذه الفكرة، التي لا تتجاوز كونها أمنية جميلة، تتكسّر على صخرة الواقع. العديد من المجرمين يتجوّلون بحرية خارج السجون لعدم وجود أدلة تُدينهم، بينما بعض الأبرياء مُلقى بِهم في السجن بِسبب ذنب لم يَقترفوه.

الاعتقاد بِعَدَالة العالم قد يدفع صاحبه لردود فعل سلبية، وربما يصل به الأمر إلى حَدّ لَوْم الضحية بدلاً من الجاني. فالشاب الذي تعرّض للسرقة يستحقّ ما حصل له بسبب تهاونه في إخفاء المال، والفتاة التي تعرّضت للاغتصاب تستحقّ ما حصل لها بسبب طريقة لباسها، وكل ما يُصيب الناس هو عقاب عادل لهم.

الاعتقاد بِعَدَالة العالم هو نوع خاص من "التفكير بالأَماني"[105]، حيث المغالطة تأخذ الشكل المنطقي التالي:

أتمنّى أن يكون هذا الأمر حقيقيا، إذن فهو حقيقي.

ليس كل ما يتمنى المرءَ يُدركه.. والرياح، على حدّ قول المُتنبّي، تجري بما لا تشتهي السفن.

التفكير بالأَماني هو شكل من أشكال الاحتكام إلى النتائج، حيث النتيجة هي الأمنية المرغوبة. في هذا النوع من التفكير، يَتِمُّ الاعتقاد بأن مجرد تَمَنِّي صدق قضية معينة يجعل منها قضية صادقة بالفعل. الفيلسوف "سبينُوزَا" أشار إلى "أنَّنا على استعداد طبيعي للتَّصديق البسيط لكل ما نَأمله، بينما لا نُصدّق إلا بِصعوبة ما نَخشاه."[106]

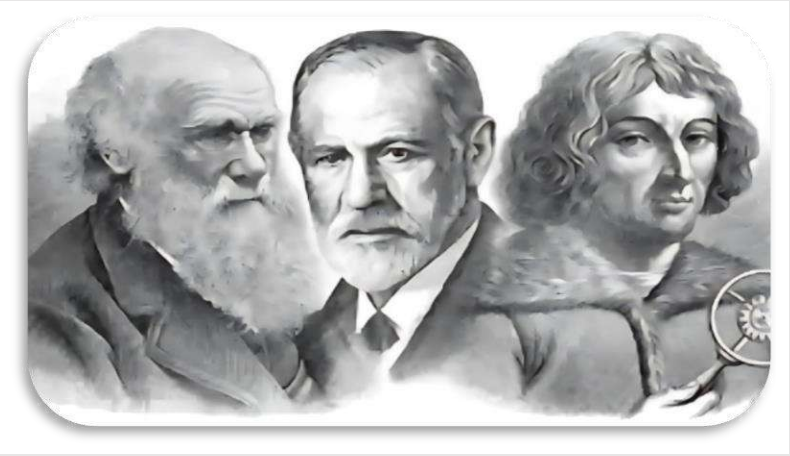
---

[104] The just-world fallacy (The just-world hypothesis).

[105] Wishful thinking.

[106] علم الأخلاق. باروخ سبينوزا.

إذا صعدتَ إلى سطح ناطحة سحاب، وصدَّقتَ مِن كلّ قلبك بأنّه لن يُصيبكَ أيّ مَكروه إذا ما رميتَ بنفسكَ من أعلاها، فإن الطبيعة للأسف لن تُغير من قوانينها لِمُجرّد أنّ أمنيتك قوية!



اعتبر "فرَويد" أن كبرياء الإنسان تعرّض، عبر التاريخ، لثلاث ضربات موجعة. الضربة الأولى كانت كونية من خلال إزاحة "كُوبرنِيكُوس" الأرض من مركزية الكون. الضربة الثانية كانت بيولوجية من خلال كشف "داروين" وجود قرابة بين الإنسان وباقي الكائنات الحية. أما الضربة الثالثة فكانت نفسية، وقد وجّهَها "فرويد" نفسُه من خلال إثبات قوة تأثير اللّاوعي ومَدَى عجز الإنسان على السيطرة على حياته النفسية.

أمثلة.

1. أتمنى أن أفوز باليانصيب.. أشعر أن هذا سيحصل.. بالتأكيد سوف يحصل!
2. إذا رغبتَ في هدف ما، قَدِّمْ طلبك للكون بثقة وتصرّف كما لو أنك حصلت على ما تريد. حينها، سيعمل قانون الجذب على تحقيق أمانيك.

الصّدق لا يعني الصواب

يعيشُ المُصابُ بالبَارانويا في عالمٍ من جُنون الارتياب، فيتصوّر أنَّ الدُّنيا بأسرها قد تآمرت عليه. هل هو صادقٌ في إحساسه؟ نعم. هل هو مُصيبٌ في اعتقاده؟ بالتأكيد لا.

معظم الناس يخلطون بين الصّدق والصواب، وهما أمران متباعدان جدا. فالصدقُ يعني أن يتطابق قولُك مع ما تعتقده، ولهذا فالقولُ الصادق حقيقةٌ نسبيّة مرتبطة بما تراه أنت حقًّا. يكفي أن ينسجم قولُك مع قناعتك حتى تُوصَف بالصّدق، ولو كانت قناعتُك أوهى من بيت العنكبوت. أمّا الصوابُ فهو أن يتطابق كلامُك مع الحقيقة نفسها، لذلك فالصوابُ حقيقةٌ موضوعيّة لا علاقة لها بمشاعرك ولا بحُسن نيّتك.

هذا الخلط يظهر بكثرةٍ في مَيدان الأحاسيس:

- "كنتُ مع زميلي هذا الصباح، ورغم أنه يُعاملني بلطف، إلا أنّه يُضمر لي كراهيةً شديدة... هذا ما أحسُّه."
- "كنتُ نائمًا حين أحسستُ بروحي تفارق جسدي وتحلّق بعيدًا في السماء !"

وإذا تجرّأتَ على التشكيك في مثل هذا الكلام، سرعان ما يردَّ عليك صاحبه: "إذن أنت تتّهمني بالكذب!" وهنا ربما تُسارع لتعتذر وتُبدي تصديقك له دفعًا للحرج.

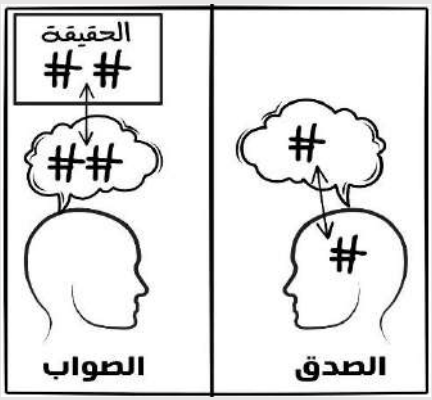
الحلقة المفقودة في هذا الحوار هي المغالطة التالية:

"أنا صادق، إذن أنا على صواب.

وإذا اعتقدتَ أني مخطئ، فأنت تتّهمني بالكذب"!

لكن، هل يكفي الصدقُ لتزكية الفكرة؟ الإرهابي الذي يُفجّر نفسه في مكانٍ عامّ هو بلا شك صادقٌ فيما يعتقده، إذ ليس هناك برهان على صدق الاعتقاد أكبر من التضحية بالنفس. غير أن صدقه لا يُحوّل جريمته إلى عملٍ شريف، بل يظلّ وصمةً عار في جبين الإنسانيّة.

الاشتراكي والرأسمالي، المعتدل والمتطرّف، المُؤمن بعقيدة ما وغير المؤمن بها... كلّهم يكونون صادقين طالما يعبّرون عمّا يؤمنون به، لكنّهم لا يمكن أن يكونوا جميعًا على صواب، ما دامت أفكارهم متناقضة!



الصّدق والصواب أمران مختلفان تماما. الصدق يعني تَطابُق ما تقوله مع ما تعتقده، لهذا فالقول الصادق هو حقيقة نسبية مرتبطة بما تعتقده أنت صوابا. أما الصواب فهو تَطابُق ما تقوله مع الحقيقة، لهذا فالصواب هو حقيقة موضوعية لا تتعلق بك أو بِحُسن نواياك.

أحيانًا يتصادف أن يتعانق الصدق مع الصواب في انسجامٍ بديع، كأن يسأل أبٌ ابنه: "هل ذهبتَ حقّاً إلى المدرسة هذا الصباح؟" فيجيب الابن: "نعم". هنا يكون صواب الجواب متعلقا بصدق الابن، لأن هذا الأخير يملك الحقيقة في هذه المسألة، وما يقوله يتطابق مع الواقع كما يتطابق المفتاح مع القفل.

لكن، ليست الأمور دائمًا بهذه السهولة. فكم من مرةٍ خانتنا الذاكرة، فجلسنا نحكي بحماس تفاصيلَ أحداثٍ لم تقع أصلًا، ونحن نظنها وقعت بكل ثقة! في مثل هذه اللحظة نكون صادقين، نعم، لأننا نقول ما نعتقده حقًّا، لكننا لسنا على صواب، لأن ما نرويه ليس كله حقيقيا.



يَشعر بعض الناس أحيانا بِحُضور أشباح تُرافقهم خلال النوم أو اليقظة. بعض الأبحاث العلمية فسّرت هذه الظاهرة بِحُدوث خَلل بين الحين والآخر في منطقة بالدماغ مسؤولة عن الإحساس اسمُها الفصّ الجِدَاري1. في غياب أدلة ملموسة، مجرد الإحساس بوجود شبح لا يعني وجوده بشكل حقيقي.

باختصار: الصّدقُ شيء، والصّوابَ شيءٌ آخر تماماً.

أعرفُ نَوَايَاكُم !

يُحكى عن جُحَا أنه ادَّعى ذات يوم أنه صاحب كرامة وأنه قادر على قراءة أفكار الناس ونواياهم، فأنكر الناس ما يقول. ولإثبات صِدق ادِّعائه، قال لهم: "أستطيع أن أعرف فيما تُفكرون الآن؟" قالُوا له: "أخبرنا ماذا؟" قال" :تقولُون في نفوسكم إنّه كذّاب"!

إذا كان تَخمين جُحا في هذه القصة صحيحا، فإن معظمُ التكهّنات بشأن نوايا الناس تظلّ في منطقة الضباب ما لم يُفصح صاحبَ الشأن بنفسه عنها. فذلك السائقُ الذي تجاوزك بسرعة في الطّريق، قد تُفكر أن نِيته هي أن يتحدّاك، بينما هو في الحقيقة يُسابق الزمن ليلحق بموعدٍ أو يقضي غرضا لا علاقة لك به. وجارك الذي لم يُلقِ عليك التحيّة هذا الصباح، قد تظنّه غاضبًا منك، بينما هو مشغولٌ بمشاكله الخاصة، لا بك. أمّا تلك المرأة التي تزيّنت، فكم من رجلٍ يتوهّم أنّ غايتها الإغراء، بينما كل ما تبحث عنه هو شعورٍ بالانسجام مع ذاتها وجَمال مظهرها.

المفارقة الطريفة أنَّ النوايا التي ننسبها للآخرين قد تعكس حقيقتنا نحن، لا حقيقتهم. فالكذّابُ المتمرّس يرى الدنيا ميدانًا للكذّابين، إذ يُسقِط حالته على الجميع. وقد لخّص المتنبّي هذه الحالة بقوله:

إذا ساء فعلُ المرءِ ساءت ظنونهُ وصدَّق ما يَعتادُهُ من توهَّمِ

الأحاسيس خادعة، بل وظالمة أحيانًا. ومن الحكمة أن نُقرّ بعجزنا عن قراءة نوايا الآخرين في غياب أدلّة واضحة. وأنت تُقلّب صفحات هذا الكتاب، ستجد كثيراً من المغالطات التي يرتكبها الناس وهم يُدافعون عن آرائهم. فهل يعني ذلك أنّ نيتهم الخداع؟ ليس بالضرورة. في غمرة الحماسة، يقع المرء في مغالطات بلا قصد، ويكون من الجور أن نصفه بالخبث أو سوء النيّة.

لهذا، الهدف من فهم المغالطات ليس أن نُوزّع صكوك الإدانة، بل أن نُحصّن عقولنا من الانزلاق في الأخطاء. ما أبلغ ما قاله فولتير: "اعشق الحقيقة.. واغفر الأخطاء"!

هل تَسعى للحقّ أم لإثبات أنكَ على حقّ؟

لو افترضنا أنَّنا مخلوقاتٌ نزيهة، منزّهة عن كلِّ هوًى وانفعالٍ عاطفي، لَما بحثنا في أيِّ جدالٍ إلّا عن الحقيقة، سواءً كانت في صفِّنا أم في صفِّ خصومنا. المشكلة في هذا الافتراض أنه مَحض خيال؛ فواقعُ البشر أعقدُ بكثير، محكومٌ بالأهواء والمصالح وحبَ الذّات، لهذا فمطلب الحقيقة كثيرا ما يكون من آخر همومهم!

في سياق الحديث عن التفكير النّقدي[107]، يُميّز "ريتشارد باول" و"ليندا إيلدر" بين ثلاثة أصناف من التفكير:

- **غيابُ التفكير النّقدي**[108]: حيث يعيش الشّخص في غيبوبةٍ ذهنيّة، فيُسلّم بمعتقداته من غير بيّنة ولا دليل.
- **التّفكير النّقدي القوي**[109]: وهنا يُوجّه الإنسان مهاراته النقديّة نحو جميع الأفكار، بما فيها أفكاره الخاصّة، متأهّبًا لمساءلة نفسه قبل أن يُحاسب الآخرين.
- **التّفكير النّقدي الضّعيف**[110]: وهو أشبه بوجهٍ تجميليّ للتفكير النّقدي، إذ يُسخّر صاحبه الحججَ المنطقيّة فقط للدّفاع عن قناعاته المسبقة. يبدو ناقدًا لامعًا، ومع ذلك فهو لا يهتم كثيرا بالبحث عن الحق قدر اهتمامه بإثبات أنه على حق.

---

[107] Richard Paul, Linda Elder: Critical Thinking: Tools for Taking Charge of Your Professional and Personal Life, Second Printing, 2014.

[108] Non-Critical Thinking

[109] Strong Sense Critical Thinking

[110] Weak Sense Critical Thinking

هذا النّمط الأخير لا يبتعد كثيراً عن السّفسطة القديمة؛ إذ يستعمل أصحابه أدوات العقل استخداماً انتقائيّا، ويُلزمون خُصومهم بما لا يُلزمون أنفسهم به. ولأنّهم بارعون في التلاعب، تراهم لا يُقهرون في الجدال.

في كتابه "فنّ أن تَكون دائماً على صواب"[111] ، يَستعرض الفيلسوف "شُوبنهَاور" 38 حيلة للانتصار على الخَصم في الجدال. "شُوبنهاور" يتحدث عن الكبرياء الفطري لدى الناس، فهم يتكلمون قبل أن يُفكروا، وحتى لو تنبّهوا بعد فوات الأوان إلى أخطائهم، عَمَدُوا إلى حفظ ماء الوجه عبر إظهار العكس.

الكبرياء يَخلق وضعاً مُضطربا ويدفع الناس لاستخدام وسائل غير مشروعة في الجدال فقط لإثبات أنهم على صواب.

هل تعتبر أن الهجوم على أفكارك هو هجوم شخصي يَمَسّ كرامتَك وكبرياءك؟

هل لديك الجُرأة الكافية للاعتراف بخطئك أمام غريمك إذا اكتشفت الأمر بينك وبين نفسك؟

هل تُصغي باهتمام لِحُجَج خصمك أم تنتظر بفارغ الصبر أن ينتهي من كلامه لتَرُدّ له الصّاع صَاعين؟

باختصار، هل هَمّك الأوّل في الحوار هو الحقّ، أم إثبات أنك على حقّ؟

أسئلة تتطلَّب الكثير من الجرأة والصراحة مع النفس.

الأكيد هو أن الحقيقة لا شأن لها بكبرياء البَشر!

[111] Arthur Schopenhauer, Eristische Dialektik: Die Kunst, Recht zu behalten, 1831.

باختصار

1. المشاعر في ذاتها ليست صائبة أو خاطئة، فأحكام الخطأ والصواب تتعلق بالاعتقادات وليس بالانفعالات. ولكن عندما يتمّ استغلال المَشاعر قصد تشتيت الانتباه عن الحُجة العقلانية أو استبدالها تماما، فإننا نقع في مغالطة "الاحتِكام إلى المشاعر". هذه المغالطة تشمل فئة واسعة من المغالطات، من أهمها الاحتِكام إلى الشَّفَقة، الخوف، الكراهية، الإطراء والسخرية.

2. الفكرة المريحة ليست بالضرورة صائبة، كما أن الفكرة المزعجة ليست بالضرورة خاطئة. عندما يتعلق الأمر بسؤال الحقيقة، فإن نتائج الاعتقاد، كانت مرغوبة أو مكروهة، لا شأن لها بصواب أوخطأ الاعتقاد (مغالطة الاحتكام إلى النتائج).

3 . "التفكير بالأَماني" هو الاعتقاد بأن مجرد تَمَنِّي أن تكون الفكرة صحيحة يجعلها فعلا صحيحة. العالم لم يُفَصّلْ على مَقاس أهوائنا ورغباتنا. وبالتالي من الأجدر، إذا حاولنا فَهمَه، أن نفهمه كما هُو وليس كما نُريده أن يكون.

4 . الصّدق والصواب أمران مختلفان. الصدق يعني تَطابُق ما تقوله مع ما تعتقده، أما الصواب فهو تَطابُق ما تقوله مع الحقيقة.


8
صَدِّقْ وَإِلاَّ!
(الاحتِكام إلى القُوّة والخَوف)



ليس في إمكان أيّ إنسان، حتى لو أراد، أن يُغيّر أو يُكيّف إيمانَه طبقا لأوامر إنسان آخر. (جُون لُوك - رسالة في التسامح)

عندما يقول ستَالين "ارقُصْ" فإن الرجل الحكيم يَرقص! (خرُوتشُوف)

لا شيء أخطر مِن أن يَكُون الجهل والتّعصُّب مُسلَّحين بالسُّلطة. (فُولتِير)

صاحب القلم لا يحتاج إلى عصا. (جمال الدين الأفغاني)

لا أُحبّ أن أُصغِي إلى غَازٍ يَعِظُ النّاس الذين غَزَا بلادَهُم. (جبران خليل جبران)

القوة ليست دليلا كافيا على الصواب. (صَمويل جُونسُون)

إلهِي سَاعِدنِي أن أقُول الحقّ في وَجه الأقوياء
وألّا أقول الباطل لِأكسب تَصفيق الضعفاء! (طَاغُور)



وقف حَمّالان صينيّان يَتجادلان بشراسة في شارعٍ مُزدحم، كلٌّ منهما يلوِّح بيدَيه، غير أنّ أياً منهما لم يُحاول أن يُسكت الآخر بلكمة، ممّا جعل سائحا أجنبيا واقِفا بقربهما يَفتح فاه إعجاباً. ولمّا التفت إلى مُرشده الصيني مُستفسراً، ابتسم المرشد ابتسامة العارف وقال: "الذي يَلجأ إلى القوة أوّلا يُسَلِّم بِعدم جَدوى أفكاره"!

بالنسبة لهذا الحمّال البسيط، اللُّجوء إلى العُنف هو إعلان هزيمة في ميدان الإقناع. لهذا فهو يُفضِّل السّلوك بشكل حضاري من خلال الرَهان على قُوة الحُجّة بدلاً من حُجّة القوة. عالِم النفس فرُويد اعتبر أن أوَّل إنسان ألقَى شَتِيمة بدلاً من حَجرة هو مُؤسِّس الحضارة.

لكن التاريخ، ويا لسُخريته، لم يَسِرْ على هذا النحو دائماً. فكم من نظامٍ مُستبدّ رفع شعار «القوّة تَصنع الحقّ»، وجعل من الحديد والنار أدواتٍ للبلاغة ودفاترَ للتاريخ. وكم من مذهبٍ انتشر لا لأنّ براهينه قوية، بل لأنّ سُيوفه كانت أقوى من أقلام مُعارضيه. قُتل الأحرار، وأُحرِقت الكتب، وغُيِّبت الحُجج في رماد المَحرقة.

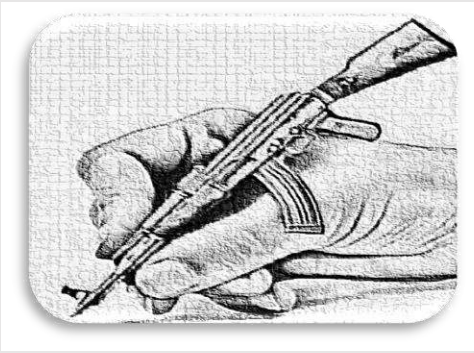
نعم، القوّة لا تصنع الحق، وإن كانت صنعت كثيراً من التاريخ. بل إن كثيراً من الأفكار والإيديولوجيات المنتشرة في زماننا الحاضر ليست بنت الإقناع ولا شقيقة البرهان، وإنّما مولودة الرّعب والتخويف.

ولنكن مُنصفين: مجرّد استخدام القوّة لا يُعَدّ في ذاته مغالطة منطقيّة، لأنّ المغالطة تفترض وجود حُجّة، بينما القوّة في أصلها لا تملك حُجة. غير أنّها تتحوّل إلى حُجّة زائفة حين تُستَعمل كدليل على الصواب. وهنا يولد ما يُسمّى «مغالطة الاحتكام إلى القوّة»[112].

[112] " وتعني اللجوء إلى العصا.Ad baculum"، وباللاتينية "Appeal to forceبالإنجليزية "

المغالطة قائمة على المعادلة البائسة:

مَادَامَت القُوّة مَعَه، فالحقّ أيضاً مَعَه!



القُوة لا تَصنع الحقّ.. وإن كانت تَصنع التاريخ.

إنها مبنية على فكرة أن "القوّة تَصنع الحقّ"[113]، وأن آراء الطرف الأقوى هي الأكثر صوابا. لكنّ القُوة والحقّ عالَمان مِن طبيعتين مختلفتين، تَفصلُهما فَجوة سحيقة لا جسر لها. الحقّ ابنُ الحُجة، بينما القوة لا علاقة لها بالحُجة. ومن ثَمّ، فمحالٌ أن نستنتج صواب رأي ما لمجرّد أنّ صاحبه يملك عصا غليظة. في النهاية، قد يكون صاحب القوة على حق، ولكنه ليس على حق لمجرد أنه صاحب قوة.

تخيّل أنّك أبديتَ رأياً مُخالفاً لرئيسك في العمل، فإذا به يردّ عليك قائلاً: "أنا أعلَم منك بمصالح الشركة. فلتَحتفِظ برأيك، إن كنتَ تُريد الحفاظ على وظيفتك!"

ربما يكون من الحكمة بالنسبة لك أن تُساير رئيسك في العمل في قراراته الانفرادية حفاظا على وظيفتك، ففي النهاية هو المسؤول عن هذه القرارات بِحُكْم السلطة التي يَمتلكها . ولكن هل يعني ذلك أنّ قراراته سليمة لا غبار عليها؟ بالتأكيد لا، فالكرسيّ لا يَمنح العصمة، والقوّة مهما تعاظمت... لا تَصنع الحق!

[113] Might makes right.

أمثلة.

1. سَنَتَبَارز أمام المَلأ، والذي يَنهزم يَعترف أمام الجميع بأنّه كان مخطئا.
2. لقد كان الإسكندر الأكبر صاحب قضية عادلة ومُحِقًّا في حروبه وفُتوحاته، والدليل هو أنه قاد أكبر حملة عسكرية في زمانه وكان النصر حليفه في أغلب المعارك التي خاضَها!

3 . الدول التي تمتلك القوة العسكرية والاقتصادية هي الأجدر بالقيادة وبِنَشر قِيَمها في العالم أجمع.

انصِيَاع لا اقتِناع

تخيَلْ أن لصّاً يَقْفُز أمامك في عَتمة الطريق، ويُشهر في وجهك سلاحاً أبيض، آمراً إيّاك أن تُفرِغ جيوبك من آخر نُقودها. الأغلب أنّك ستُذعنُ له طائعاً مُكرهاً، حفاظاً على رقبتك قبل محفظتك، ثم تَهرع بعد ذلك إلى أقرب مَخفرٍ للشرطة للتّبليغ عنه.

الآن، فلنُغير الموقف قليلاً: تخيّل أنّ نفس اللصّ، وقد راق له نجاحه، قرّر هذه المرة أن يَسلبك أفكارك وقناعاتك! يُلصق السلاح برأسك ويأمرك أن تُسلِّم بترك كل آرائك التي تدور في رأسك، أو تُسَلِّم روحك! هنا تقف أمام خيارين أحلاهما مُرّ: إمّا أن تتمسّك بأفكارك وتُغامر بحياتك، وإمّا أن تُعلن – مُكرهَاً – أنّك قد تخلّيتَ عنها جميعاً. ولنفترض أنّك اخترتَ الحياة، فأومأتَ له خاشعاً بأنك بالفعل تراجعت. يُخلي سبيلك، لكنك تعود إلى منزلك مثقَلاً بالهمّ.

هل حقّاً سلّمتَه قناعاتك؟

فكِّرْ جيّداً: إذا كان في مقدورك أن تتنازل عن أموالك لمصلحة لصٍّ شاهرٍ سلاحه، فهل بإمكانك أن تتنازل عن أفكارك الداخلية؟ الجواب قطعاً: لا! فالأفكار لا تُساق بأوامر الآخرين، ولا تُغيَّر تحت حِدّة الخوف. ليس في مقدور إنسان، حتى لو أراد، أن يُغير قناعاته الداخلية استجابةً لأوامر شخص آخر! بإمكانك أن تُخفي ما يدور في رأسك، أن تُنافق وتكذب وتُساير، أن تشتري رقبتك ببعض كلمات مُداهَنة تُرضي المتسلّط، لكن بينك وبين نفسك ستبقى تلك القناعات راسخةً في أعماقك، عصيّةً على المسح والمحو. ذلك أنّ التلويح بالعصا يَعمل في مستوى آخر لا يمتّ بصلة لعالم القناعة العقلية.

ها هو غاليليو نفسه، حين هُدّد بالموت في زمن محاكم التفتيش، قد تراجع علناً عن فكرة دوران الأرض حِفاظاً على حياته، لكنّ الأرض – كعادتها – تابعت دورانها غير آبهة بكل ما جرى!

شاعر الفلاسفة وفيلسوف الشعراء "أبُو العَلَاء المَعَرِّي" عبّر عن سُخريته من أولئك الذين يفرضون آراءهم بِلُغة الصّارِم (السّيف) قائلا:

تَلَوّا بَاطلاً وجَلَوْ صَارِماً وقالُوا صَدقْنَا فَقُلنا نَعَم

وكأنّ لسان حال المعرّي يقُول للواحد منهم: عندما تَسألني عن رأيِي وأنتَ تُمسِك العَصَا بِيَدِك، لَا تُصدِّقنِي إذا أخبَرتُك بأنّ الحقّ كلّ الحقّ معك!

قَمعُ الأفكار لا يعني مَوتها، كما أنّ إسكات صاحب رأي وإجباره على الانصياع لا يعني بحالٍ إقناعَه، فشتّان بين الانصياع والاقتناع! ومثلما لا تُؤخذ في المحكمة اعترافات المُتَّهَم إذا ثَبَت أنّها انتُزِعت تحت التعذيب، كذلك لا قيمة لاعتراف الناس باعتقاد فكرةٍ ما إذا كان ثمنه عصا غليظة أو زنزانة باردة.

والأغرب أنّنا لا نزال نسمع بين الحين والآخر أصواتاً تُنادي بفرض اعتقادات بعينها على الناس، والتلويح بقبضةٍ من حديد في وجه كل من تجرأ على التفكير خارج السطر. هؤلاء يطلبون المستحيل، إذ إن اختلاف الأفكار بين البشر سُنّة قديمة، لا يغيّرها التهويل ولا تُلغيها القضبان. ثمّ إن الوصاية الفكرية على العقول هي تعاملٌ مع الناس كما لو كانوا قاصرين لا يُحسنون التفكير لأنفسهم، فتتمّ قيادتهم بالعصا كما يُقاد القطيع!

الحُكم على فكرةٍ ما بأنها "شاذّة" لمجرّد أنّها تُخالف السائد، لا يعني أنها فاسدة. فكثير من الأفكار العظيمة كانت في بدايتها تُرمى بالشذوذ والهرطقة (انظُر مغالطة الاحتكام إلى عامة الناس). لكي نصل إلى



في سنة 1600، حَكمت الكنيسة الكَاثُوليكية بالمَوت حرقاً على الفَلَكي والفيلسوف الإيطالي "جيُوردَانُو برُونُو" بتُهمة الهَرطَقَة وتَبَنِّي فكرة تعدُّد المنظومات الشمسية في الكون.

بعد سنوات من إعدام برُونُو، عَبّرَت الكنيسة عن نَدَمِها فنصَبَت له هذا التمثال تكريماً لذِكراه. قضيّة برُونُو ظلَّت مثالا للفِكر الحُر الذي لا يَرضخ للقوّة والتّرهيب.

فكرة جيدة، يجب أن نطرح أفكارا كثيرة. ولكي تتوفر لدينا أفكار كثيرة، يجب ألا يُسلب من أيِّ فرد حقُّه في التعبير عن فكرته.

في كتابِه "عن الحرّية"[114]، قدَّم الفيلسوف "جُون ستِيوَارت مِيل" حُجّة وجِيهة ضدّ قَمع الأفكار: "إِخماد صوت فردٍ واحد إنّما يضُر بالجنس البشري، بحاضره ومستقبله، كما يضُر بقامعي الرأي أكثر من إضراره بصاحب الرأي. ذلك أنه لو كان رأي ذلك الفرد صحيحا لَحُرِم الناس بِقمعه من فُرصة تَصحيح خطئهم، ولو كان رأيه باطلا لَحُرِمُوا مِن فضل يَفُوق فَضل تصحيح الخطأ، ألا وهو الرّؤية الأوضح لِلحقّ النّاجمة عن صراعه مع الباطل." ويقترح "مِيل" شرطًا واحدًا يَجب تقييد حرية الأشخاص بِمُوجَبه: "إن السّبب الوحيد الذي يُبرر ممارسة القوة ضد إرادة أي فرد في مجتمع مُتحضر، هو مَنْع الضّرر عن الآخرين".

العنف في مواجهة الفكر، هو أفشل وسيلة للإقناع؛ اعتراف صريح بالإفلاس المنطقي والعجز العقلي! القمع قد يفرض سلوكاً مُذعناً بالقوة، لكنه لا يستطيع أن يزرع الاقتناع في الداخل، لأن لُغة العقل هي الحُجج والبراهين، لا العصيّ والبنادق .

الفكر الحقيقي إمّا أن يكون حراً أو لا يكون، والإيمان الصادق إمّا أن يكون نابعا من قناعة داخلية... أو لا يكون!

114 On Liberty, John Stuart Mill.

مَخَاوف لاعقلانية

تخيّلْ أن صديقاً حَذَّرك بكل جدِّيّة من أنّ "دراكولا" سيطرق بابك ليلاً ليمتصّ دمك إن لم تُعلِّق قلادة من الثوم حول عنقك قبل النوم! الأغلب أنّك ستضحك في وجهه، فدراكولا بالنسبة لك ليس سوى شبح هارب من شاشة السينما وصفحات القصص الخياليّة.



مَاذا تَفعل إذا أخبرَكَ أحدُ أصدقائك بأن "دراكُولَا" سَيأتي إليكَ لَيْلاً لِيَمْتَصّ دَمَك إذا لم تَضَع الثَّوم في عُنقك قبل النَّوم؟ المخاوف التي لا دَليل يَدعمُها لَا ينبغِي التَّعَاطي مَعها بِجِدِّية.

في مُغالطة "الاحتِكَام إلى الخَوف"[115]، يُؤخَذ الخوف الناتج عن فكرة ما كدليل على صواب تلك الفكرة. بعبارة أخرى:

إذا لم تَقبل هذه الفكرة، فسيقع أمرٌ مُخيف.

إذن، عليك أن تُسلِّم بأن الفكرة صحيحة!

[115] Appeal to fear

وبما أنّ الخوف كثيراً ما يُعطّل التفكير العقلاني، فإن هذه المغالطة تجد طريقها إلى العقول بسهولة، فتتغذّى منها طقوس وأساطير لا دليل عليها سوى الارتجاف من أشباحٍ لا وجود لها.

ولكن، هل كلّ تخويف أو إشعار بالخطر يُعتبر مغالطة منطقية؟

ليس دائما. إذا أخبرتَ تلميذاً مُتكاسلا بضرورة الاجتهاد لأنه مُهدّد بالرّسوب، فإن ما قلتَه لا يُعتبر مُغالطة، لأنّ الرسوب احتمال حقيقي والكسل سبب مباشر له.



رمْز "خميسَة " كان مُنتشرا في شمال إفريقيا كَتَميمَة تَحمي من شرّ العَين. مُعظم الطقوس الخُرافية تَستثمر انتِشارها وانتِعاشَها مِن مشاعر الخوف.

إذن، فالسؤال الأول الواجب طرحه لاختبار مَدَى جِدِّية المَخاوف هو: هل توجد دلائل أو وقائع مَلمُوسة تُثبت أن هذه المخاوف حقيقية؟ وإذا كانَت هناك تحذيرات مُقَدَّمَة، فهل ثَمَّة دَلائل تُثبت وجود علاقة حقيقية بين المخاوف المطروحة (دراكُولَا) والتحذيرات (الثوم قبل النّوم)؟

خذ مثالاً آخر: جارك ينصحك بتخزين مؤونة تكفي عاماً كاملاً، بحجّة أنّ حرباً نووية قد تندلع في أية لحظة. هنا يبدو أن الحرب النووية احتمال وارد، وأن العلاقة بين المخاوف (حرب نووية) والنصيحة (تخزين المؤونة) منطقية في ظاهرها. لكن يُطلّ سؤال ثانٍ لا يقل أهمية: حتى لو كان الخطر ممكناً، هل احتمال وقوعه قويّ بما يكفي لبعث القلق، أم أنه ضئيل إلى حدّ يمكن تجاهله؟

نظرياً، الحرب النووية ممكنة. ولكن احتمال وقوعها في الزمان والمكان حيث أنت الآن ضئيل إلى درجة لا تستحق أن تُحوّل بيتك إلى مخزنٍ للأرزّ والمعلبات!

في الواقع، الحياة أصلاً سلسلة من المخاطر الممكنة: الخروج من المنزل مخاطرة.. نزول الدرج مخاطرة.. عبور الطريق مخاطرة.. الأكل في مطعم مُخاطرة ..بل حتى شرب الماء مخاطرة مادام من المُمكن أن يُعرَضك للاختناق!



ماذا لَو جَاءت نِهاية العالم؟ هَذان الزَّوجان الفَرَنسِيان أعَدَّا مَخزونا هائلاً من الطعام والأدوية تَحَسُّباً لِذلك اليوم المُحتَمَل، والهدف هو البقاء على الحياة لأطول فترة ممكنة! العديد من المخاوف تَنبنِي على مخاطر مُمكنة، ولكن احتمال وُقوعها ضعيف جدا لدرجة لا ينبغي القلق بشأنها. التفكير بجدية في كل المخاطر المُمكنة كَفيل بتحويل الحياة إلى جَحيم!

لو قرّرتَ أن تأخذ كل المخاطر المحتملة على محمل الجدّ، لتحوّلت حياتك إلى جحيمٍ من القلق الدائم. لذلك، لا يكفي أن تقول: "هناك خطر"، بل يجب أن تُكوّن فكرة عن مدى احتمال وقوعه. التخويف العاقل يحسب الاحتمالات، أما التخويف اللامنطقي فينفخ في فزّاعة من قشٍّ هشّ، ليحوّلها في أعيننا إلى تنينٍ ينفث النار!

المُنْحَدَر الزَّلِق: حذار من الكارثة!

إنّه شهر أبريل 1954 ، والقوميون الفيتناميون على بُعد خُطوة من الانتصار على القوات الفرنسية التي تُصارع للاحتفاظ بفيتنام. وكان هذا يعني، في نظر كثيرين، أن الاستقلال سيُعلَن تحت "راية الزعيم الشيوعي "هُوشِي مِنه". في واشنطن، عقد الرئيس الأمريكي "دوايت أيزنهاور مؤتمراً صحفياً، وأطلق فيه تحذيراً بدا يومها كالنبوءة: "إذا تركنا فيتنام للسيطرة الشيوعية، فإن ذلك سيؤدي إلى انتصارات شيوعية مماثلة في جنوب شرق آسيا، بما في ذلك لاوُوس وكمبوديا وتايلاند، وغيرها كـالهند واليابان والفليبين وإندونيسيا وحتى أستراليا ونيوزيلندا، فالعواقب المُحتملة لفقدان الهند الصينية لا تُحصى بالنسبة للعالم الحُر".

التشبيه كان بسيطاً ودرامياً في آن: الدول كقطع دومينو مصطفّة، إذا سقطت واحدة تتابعت الأخرى. ومنذ ذلك اليوم، دخلت القاموس السياسي عبارة "نظرية الدومينو"[116]. وفق هذه النظرية، أي تغيير في نظام حكم دولة ما سيؤدي إلى سلسلة تغييرات كارثية في دول أخرى.

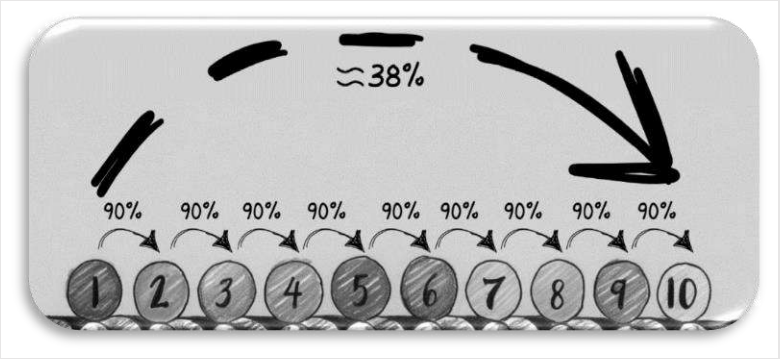
لكن، ماذا وقع فعلاً بعد إخفاق الولايات المتحدة وانسحابها من فيتنام؟ باستثناء لاووس وكمبوديا، لم يصل الشيوعيون إلى أيٍّ من الدول التي عدّدها أيزنهاور. بل على العكس، تراجع المدّ الشيوعي حتى رأينا سقوط جدار برلين وتفكّك الاتحاد السوفياتي نفسه!

116 Domino theory

هنا تكمن المغالطة: المتحدث يَبني في مخيّلته سلسلة من الأحداث تبدأ من واقعة بسيطة وتنتهي بكارثة، مع أنّ الانتقال من حلقة إلى أخرى يبقى احتماليا وليس يقينيا .

لو كانت كل الانتقالات يقينية، كما هو الحال مع قطع الدومينو، لما كانت الحجة مغالطة من الأصل. هي مغالطة لأنها تصرف الانتباه عن احتمالات أخرى وتُوجّه المستمع عبر مُنحَدَر زَلِق ينتهي في قاع الجحيم.

هذا النمط من التفكير المُغالِط يُسمى "المُنحَدَر الزَّلِق"[117]، وهو يعزف على أوتار الخوف ليَقنع الناس بأنّ خطوة صغيرة ستقودهم حتماً إلى الهاوية. الخطابات السياسية تتغذّى منها، والمواعظ الأخلاقية تستعذبها، وحتى بعض النصائح الطبية لا تخلو منها.



إذا افترضنا أن لدينا سلسلة من 10 أحداث مُحتملة، وأن احتمال الانتقال من كل حدث إلى الحدث الموالي عالية (90%)، فإن احتمال الانتقال من الحدث الأول إلى الأخير ستُصبح مُتدنِّية

(حاصل ضرب كل الاحتمالات المتتالية وهو ما يُعادل تقريبا 38%).

117 Slippery slope

أمثلة

1. ضَعِي حُدودا صارمة مع جارتك! اليوم طلبَت منكِ بعضا من الملح، غدا ستَطلب مقلاة، بعد غد ستطلب منك طقم كؤوس، ولن يمضي الشهر قبل أن تجِدي أن مطبخك صار فارغا من الأواني!

2. إذا سَمَحْنَا بالاختلاط بين الجِنسَين في المدارس، فستخرُج الفَتَيات مع الفِتيان ولن يَضبِطْن أنفسَهُنّ بسبب الإغراء. وبعد أن يُصبحن أمَّهات عازبات، سَيَضِيع مُستقبلُهن ويَفسد المجتمع بِأكمله!

3. إذا بدأتَ في تَعلُّم الموسيقى، لن تجد وقتا لمراجعة دروسك، فتَسُوء نتائجك وترسب في نهاية السنة!

4. إذا سمحنا بحرية الاعتقاد، ستكثُر المِلل والمذاهب، وتَعُمّ الفوضى، لتقوم بعدها حرب طائفية تنتهي بنا في مستنقع من الدماء!



يُقدم هذا الكاريكاتير، الذي يعود إلى عام 1895، شكل حفلات الزفاف في المستقبل إذا حصلت النساء على حق التصويت في الانتخابات الأمريكية. مثال صارخ لمغالطة "المُنحَدَر الزَّلِق".

5. إذا سمحنا للطلبة بإبداء رأيهم في أداء الأساتذة، سيطلبون بعدها التدخل في المناهج الدراسية والامتحانات وسيقل احترامهم للأساتذة، وسيفسد التعليم بعد أن يفقد الأستاذ هيبته وكرامته!

باختصار

1 . مُغالطة "الاحتِكام إلى القُوة" تَقُوم على فكرة أن "القُوّة تَصنَع الحقّ"، وأن آراء الطَّرف الأقوى هي الأكثر صوابا. قد يكون صاحب القوة على حق، ولكنه ليس على حق لمجرد أنه صاحب قوة.

3 . في مُغالطة "الاحتكَام إلى الخَوف"، يُؤخَذُ الخَوف الناتج عن فكرة مَا كَدلِيل على صواب تلك الفكرة، من دون تقديم أسباب معقولة لتلك المخاوف. لاختبار جِدّية المخَاوف، من المُهم طرح السّؤالين التَّاليين:

- هل تُوجد دلائل تُثبت أن هذه المخاوف حقيقية؟
- هل احتمال وقُوعها قويّ بما يَكفي لأخذ الحَذَر اللازم؟

5 . مِن أكثر أساليب التّخويف شُيوعا مغالطة "المُنْحَدَر الزَّلِق"، حيث يَبني المتحدث في خياله سلسلة من الأحداث تَبدأ بحدث بسيط (يُنَبَه إلى ضرورة تَفَادِيه)، بعدها يَنتقل من حدث إلى آخر بشكل فيه الكثير من التَّعَسُّف والمُبالغة، لِينتهي الأمر بكارثة!


9
مَن يُثبت العكس؟
(الاحتكام إلى الجهل)



لا ينبغي أن نأخذ موقفا إلا في حضور الأدلة،

والامتناع عن أي موقف في غيابها.

(برتراند رسل)

الادّعاءات الخارقة تتطلب أدلة خارقة. (كارل ساغان)

وَالدَّعَاوَى مَا لَمْ يُقِيمُوا عَلَيْهَا بَيِّنَاتٍ أَصْحَابُهَا أَدْعِيَاءُ

(البُوصيري)

أُفضّل أن تَكون لديّ أسئلة لا تَقبل أجوبة،

على أجوبة لا تَقبل المُساءلة. (ريتشارد فينمَان)

معرفتنا لا يمكن إلا أن تكون محدودة،

بينما جهلنا لا يمكن إلا أن يكون بلا حدود.

(كارل بوبر)

أكبر عدو للمعرفة ليس هو الجهل، بل وهم المعرفة.

(ستيفن هوكينج)

غياب الدليل ليس دليلا على الغياب. (مارتن ريس)

هل توجد كائنات فضائية في كواكب بعيدة عن كوكبنا؟ قد تعتقد أنّها محض خيالٍ سينمائيَ، إذ لا يوجد أي دليل يُثبت وجودها. لكن سيقفز معترض ليقول لك: "وماذا لو ظهر الدليل بعد خمسين أو مائة عام؟" كلام يبدو معقولاً. بل أكثر من ذلك، إذا صدّقنا أن هذه الكائنات غير موجودة بسبب غياب أدلة على وجودها، فعلينا بنفس المنطق أن نُصدّق أنها موجودة بسبب غياب أدلة على عدم وجودها!

لاحظ أن نفس الحجة أوصلتنا إلى نتائج متناقضة، من خلال إثبات الفكرة ونقيضها في آن واحد. هذه الحُجة الباطلة تسمى "الاحتكام إلى الجهل"[118].

نرتكب مغالطة "الاحتكام إلى الجهل" عندما نعتقد أن فكرة ما هي صائبة لمجرد أنه لا يوجد دليل على أنها خاطئة، أو أنها خاطئة مادام لا يوجد دليل على أنها صحيحة.



إذا صدقنا أن الكائنات الفضائية غير موجودة بسبب غياب أدلة على وجودها، فعلينا بنفس المنطق أن نصدق أنها موجودة بسبب غياب أدلة على عدم وجودها. الاحتكام إلى الجهل يَصل بنا إلى نتائج متناقضة، عبر إثبات الفكرة ونقيضها.

[118] Appeal to ignorance

تأخذ المغالطة إذن واحدا من هذين الشكلين:

الشكل الأول: لا يوجد دليل على خطأ الفكرة، إذن فهي صحيحة.

الشكل الثاني: لا يوجد دليل على صحة الفكرة، إذن فهي خاطئة.

في كلتا الحالتين، يُؤخذ غياب الدليل كدليل، وهذا منطق عبثي. فغياب الدليل ليس بدليل. وإذا كان لغياب الدليل أن يَدُلّ على شيء، فسيَدُلّ على شيء واحد هو الإقرار بالجهل.. لا أقل ولا أكثر!



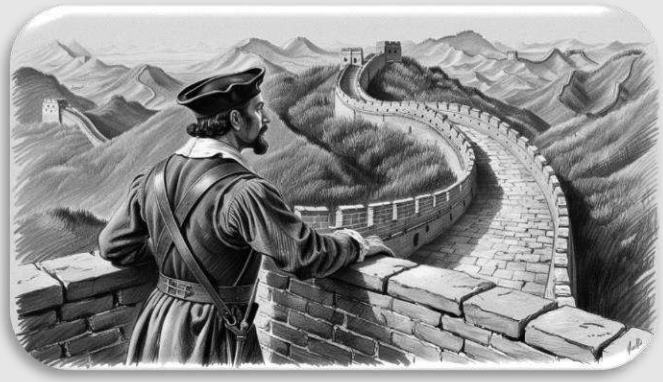
إذا لم ينجح الجمهور في كشف خُدع الساحر، فهذا ليس دليلا على أن الساحر لم يقم بأية خدع. غياب الدليل ليس بدليل.

إذا قال أحدُهم إن الروح غير موجودة مادام لا يوجد أي دليل ملموس على وجودها، فإن عليه بنفس المنطق أن يُقِرّ بأن الروح موجودة مادام لا يوجد أي دليل ملموس على عدم وجودها. الاحتكام إلى الجهل يصل بنا إلى نتائج متناقضة، لهذا فهو حُجّة باطلة بامتياز! الكثير من القضايا المرتبطة بالغيبيات هي بطبيعتها غير قابلة للاختبار العلمي، وغياب الأدلة لا يُمكنه أن يُثبتها ولا أن يَنفيها. هذا الصنف من القضايا يخرج من دائرة الإثبات العلمي ويدخل في دائرة الإيمان الشخصي.

كثير من أنصار نظريات المؤامرة يَسقطون في الفخ ذاته: "نظرية المؤامرة صحيحة، وإلا فلماذا لم ينجح أحد في تكذيبها بالأدلة القاطعة؟". غموض هذه النظريات، وحماسة أتباعها في تبرير كل صغيرة وكبيرة، يجعلان تفنيدها مهمة شبه مستحيلة. لكن غياب الأدلة على نفيها لا يعني صحتها، كما أنّ غياب الأدلة على صحتها لا يعني خطأها.

لهذا، تذكر جيدا هذه الحقيقة البسيطة:

الحُجج السليمة تُبنى على حضور الأدلة... لا على غيابها!



خِلافا لِما هو مُتَعارف عليه تاريخيا، يعتقد البعض أن الرحالة الإيطالي "ماركو بولو" لم يزُر الصين أبدا، ودليلهم في ذلك أن كتاب رحلاته لم يذكر شيئا بخصوص سور الصين العظيم.

تقوم مغالطة "الحجة من الصمت" على استنتاج أن بعض الوقائع التاريخية خاطئة، ليس بسبب وجود بيانات في الوثائق، ولكن بسبب غياب تلك البيانات.

من يستطيع أن يُكذِّب هذه السخافات؟

هل تستطيع أن تُثبت عدم وجود فراشة غير مرئية، تُرافقك منذ يوم ميلادك حتى هذه اللحظة؟ في أعماقك تدرك أنّها فكرة ساذجة، هراء صِرف وخيال محض، لكنك عاجز عن نفيها بالدليل القاطع... ما دامت الفراشة غير منظورة!



لن تستطيع أن تُثبت عدم وجود فراشة غير مرئية ترافقك أينما ذهبت من يوم ولادتك وحتى هذه اللحظة. لماذا؟ لأن هذه الفرضية غير قابلة للاختبار وبالتالي غير قابلة للتكذيب.

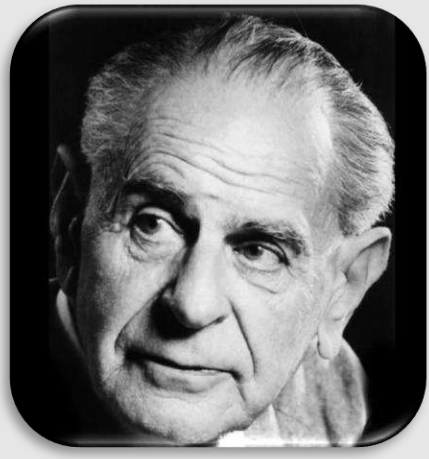
كم يا ترى عدد الافتراضات الوهمية التي لا يمكن دحضها بالأدلة الدامغة؟ الجواب: ما لا نهاية. أطلِق لخيالك العنان، وستجد كما هائلا منها.

الفيلسوف والرياضي "برتراند رَسل" اقترح بسخرية لاذعة وجود إبريق شاي يدور حول الشمس في مدارٍ بين الأرض والمريخ. ولأن الإبريق صغير للغاية بحيث لا تلتقطه أقوى التلسكوبات، فلن يستطيع أحد أن يُثبت عدم وجوده. وهكذا نُصبح أمام هراء محصّن ضدّ التكذيب.



افترض الفيلسوف والرياضي "برتراند رسل" وجود إبريق شاي يدور حول الشمس. ولأن هذا الإبريق صغير جدا لدرجة أن أقوى أجهزة التلسكوب تعجز عن رؤيته، فلا أحد إذن يستطيع إثبات عدم وجود هذا الإبريق.

في العالم الشاسع حيث نعيش، وباستثناء عالم الرياضيات المجرد، من الصعب جدا إثبات عدم وجود شيء ما. أما إذا كان هذا الشيء غير مرئي، وبالتالي غير خاضع للاختبار العلمي، فإن محاولة إثبات عدم وجوده تصبح مهمة مستحيلة! لستَ أنت وحدك من لا يستطيع تكذيب هذه الادعاءات، بل لا أحد غيرك يستطيع. لماذا؟ لأن هذه الفرضيات غير قابلة للاختبار[119]، وبالتالي غير قابلة للتكذيب[120].



اعتبر الفيلسوف "كارل بُوبر" أن قابلية التكذيب هي شرط أساسي ينبغي توفُّره في كل فرضية علمية، وبالتالي فكل فرضية يستحيل مبدئيا تكذيبها هي غير علمية.

"قابلية التكذيب"[121] هو معيار يؤكد على ضرورة أن تكون النظرية أو الفرضية العلمية تتيح إمكانية دحضها وتكذيبها بواسطة اختبارات تجريبية. الفيلسوف كارل بوبر[122] كان أول من قدّم هذا المفهوم، إذ اعتبر بأن قابلية

[119] Untestable

[120] Unfalsifiable

[121] Falsifiability

[122] Karl Popper

التكذيب هي شرط أساسي لكل نظرية علمية، وأن الافتراضات والنظريات غير القابلة للتكذيب تعتبر غير علمية[123].

لاحظ "كارل بُوبر" في البداية أنه إذا سَعَيْنا لتأكيد صِحّة فرضية ما من خلال التجربة، فإنه من السهل انتقاء النتائج التجريبية التي تدعم الفرضية واستبعاد تلك التي تُفندها. وبهذه الطريقة، سيكون من الممكن إثبات معظم الفرضيات. لهذا كانت فكرة بُوبر العبقرية هي في قلب المُعادلة، عبر اختبار الفرضية من خلال محاولة تفنيدها. وكلما صمدت الفرضية أمام المحاولات المتكررة للتفنيد، كلما زاد احتمال صحتها. ولكي يكون كل هذا ممكنا، يجب أن تكون الفرضية من حيث المبدأ قابلة للتفنيد.

قابلية التكذيب لا تعني أن النظرية خاطئة. الافتراض القابل للتكذيب هو كل افتراض يقبل من حيث المبدأ إمكانية إجراء تجربة تُظهر خطأه إن كان بالفعل خاطئا. أما إذا لم توجد أية تجربة تسمح بهذا الاختبار، آنذاك تصبح الفرضية غير قابلة للتكذيب. ربما تكون هذه الفرضية صحيحة، ولكن لا حيلة لنا في التحقق منها. وعكس ما يظن الكثير من الناس، فهذه ليست مِيزة للفرضية.

من أهم أسباب إقلاع العلم ابتعاده عن الادعاءات التأملية غير القابلة للاختبار التجريبي. استخدم بُوبر مبدأ "قابلية التكذيب" كأحد الخصائص الأساسية للفرضية العلمية، واعتبر أن الكثير من الادعاءات غير القابلة للتكذيب تدخل في إطار العلوم الزائفة[124]. الكثير من الادعاءات الميتافيزيقية (تناسخ الأرواح مثلا) هي غير قابلة للاختبار والتفنيد، وبالتالي تخرج من دائرة البحث العلمي.

---

[123] Popper, Karl. Conjectures and Refutations: The Growth of Scientific Knowledge.

[124] Pseudoscience

أمثلة لافتراضات غير قابلة للتكذيب.

1) قارئة الفنجان: "أحيانا تنتابك شكوك فيما إذا كنتَ قد اتخذتَ القرار الصائب، وأحيانا تشعر بالضيق وعدم الاستقرار."

تتميز العديد من تنبّؤات العرّافين بقدرتها الفائقة على مقاومة كل محاولة للتكذيب، وذلك من خلال أقوال مُبهمَة قد تنطبق على الجميع. كلما كان الكلام مُبهَما كان أكثر مقاومة للتفنيد، وكلما كان دقيقا مفصلا كان أكثر قابلية للتفنيد.

2) كل النزاعات الإيديولوجية هي تعبير عن الصراع الطبقي.

وجد "كارل بوبر" أن العديد من المقُولات المُتداولَة في الفكر السياسي (الماركسية مثلا) غير قابلة للتكذيب، وأن كل محاولة لتفنيدها سوف يُرَدَّ عليها من خلال تبريرات وتأويلات تحفظها وتُؤَمِّن سلامتها.

3) عندما يظهر المريخ في برج العذراء، يُرجح أن تكون هناك زيادة في وقوع مواليد برج العقرب في الحب.

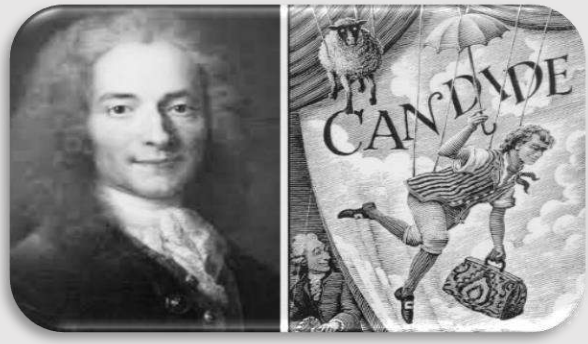
بدون تعليق!

وبالعودة إلى الفراشة الخفية التي تلاحقك، ورغم عجزك عن إثبات أنها غير موجودة، فإنك عملياً لا تُغيّر حياتك بسببها. أنت لا تأكل تفاحة وأنت تهمس لنفسك: "فلأكن حذراً، ربما تقع الفراشة الخفية فوقها".

لو تصرّفت كما لو أنّ كل فكرة، مهما كانت سخيفة، تستحق التصديق لمجرد أنها غير قابلة للتكذيب، لتحوّلت حياتك إلى جحيم حقيقي. هناك فرق شاسع بين ما هو محتمل نظرياً وما هو واقع فعلياً. الاحتمال ليس يقيناً، وشَتّان ما بينهما.

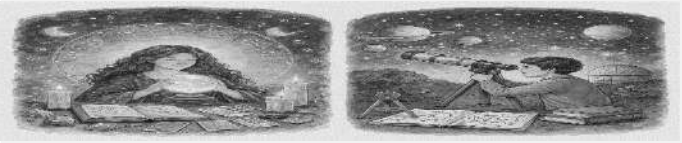
إنّ ما لا يخضع للاختبار يخرج من دائرة المعارف العلمية ويدخل في فضاء الاعتقاد الشخصي. التجربة القابلة للتكرار هي من أهم الطرق للوصول إلى معرفة علمية بالعالم. أما أن تدّعي ما تشاء لمجرد أنّ أحداً لا يستطيع تكذيبك، فهذه لعبة سهلة، لكنها لا تمنحك صكّ الحقيقة. تذكّر دائماً:

عَجْزُ غيرك عن إثبات أنك على خطأ لا يعني أنك على حق!



"هذا العالم هو أفضل العوالم الممكنة، وكل الأشياء تسير نحو الأفضل." نقرأ هذا الادعاء على لسان "بانجلوس" في رواية فولتير الفلسفية "كانديد" ورغم أن "بانجلوس" عانى الويلات كما تحكي أحداث الرواية"، إلا أنه كان دائما يجد مبررا لأسباب وغايات حدوثها، مِمَّا يجعل اعتقاده المتفائل جدا غير قابل للتكذيب.

كيف نميّز بين العلم والعلم الزائف؟



المعيار	العلم	العلم الزائف
المنهج	يعتمد المنهج العلمي (الملاحظة، الفرضية، التجريب، التحقق)	يفتقر إلى منهج صارم أو يكتفي بتقليد لغة العلم
قابلية الاختبار	الفرضيات قابلة للاختبار والتكذيب	الادعاءات غامضة أو غير قابلة للاختبار
الأدلة	أدلة تجريبية قابلة للقياس والتكرار	يعتمد على القصص الشخصية المنتقاة
قابلية التكرار	يمكن إعادة التجارب للحصول على نفس النتائج	لا يتم تكرار النتائج بشكل موثوق
النقد العلمي	يرحب بالنقد والمراجعة من الأقران	يرفض النقد أو يبرره بتفسيرات واهية
التصحيح الذاتي	يصحح أخطاءه ويتطور مع الأدلة الجديدة	جامد ومقاوم للتغيير
التنبؤ	يقدم تنبؤات دقيقة	يقدم تنبؤات عامة أو بعد وقوع الحدث
الإحصاء	يستخدم الإحصاء بطريقة سليمة	يسيء استخدام الإحصاء أو ينتقي المعطيات
السلطة	الحجة مبنية على الدليل لا على المكانة	يحتكم إلى السلطة أو التقليد أو الشهرة
اللغة	دقيقة وواضحة ومحددة	غامضة، عاطفية
التقدم	يؤدي إلى تراكم المعرفة والتطور	لا ينتج معرفة حقيقية أو تقدماً فعلياً
الهدف	فهم الواقع وتفسيره	الإقناع أو ترسيخ المعتقدات أو الربح

البيّنة على من ادّعى

كان جُحا راكبا حمارَه حين اسّتوقفهُ رجل قائلاً: أين وسطُ الدنيا ياعالِمنا الفَذّ؟

جُحا: وسط الدنيا تحت قدم حماري.. وإن لم تُصدِّقني فَقِس الأرض شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً.

الرجل: وكم عدد نُجوم السماء؟

جحا: عددها مثل عدد شعر حماري هذا.. وإن لم تُصدقني فعُدَّها ثم عُدَّ شَعْر حماري.

الرجل: وكم عدد شعر ذَقْني أيها العالم الجليل؟

جحا: عدد شعر ذقْنك يُساوي عدد شعر ذيْل حماري، وإن لم تُصدقني فانْزعْ شعر ذيل حماري وشعر ذقنك شعرةً شعرةً ثم قارِنهما.

في زمن جحا، لم يكن في علم الناس أن الكون يضم بلايين المجرات، وأن كل مجرة تضم بدورها بلايين النجوم، لهذا لم يكن في مقدورهم تكذيب ادعائه بأن عدد نُجوم السماء يساوي عدد شعر حماره.

تصور أنك واحد من أولئك الناس في ذلك الزمن، هل كنت ستبدأ في عد النجوم للتأكد بنفسك؟ في هذه الحالة، ستكون قد أوقعت نفسك في فخ لا مخرج منه، فخ حمل عبء ما كنت ملزما بحمله: "عبء الإثبات"[125]. واضح أن جحا هو من قدم ادعاءه بخصوص عدد النجوم، ولكي يُعفي نفسه من عبء إثبات هذا الادعاء، ألقى بهذا العبء على عاتق

[125] Burden of proof

مَن حوله، طالبا منهم إثبات العكس في حالة ما لم يصدقوه. إنها استراتيجية نجحت في أيام جحا ولازالت تنجح في أيامنا.



إذا طَلب منك أحد مُصدِّقي القصص الغريبة والظواهر الغامضة ان تُثبت له أن هذه الأمور لا أساس لها من الصحة، احذر من الوقوع في الفخ! تذكّر أن البيّنة على من ادَّعى، وأن الادّعاءات الخارقة تتطلب أدلة خارقة.

عندما يروي لك أحد المولعين بالعجائب والغرائب قصصا عن التخاطر والتقمص والتحدث مع الأموات وظهور الأشباح، ويخبرك بحماس ويقين عن لعنة الفراعنة والأجسام الطائرة المجهولة والمؤامرات الخفية للسيطرة على العالم، إياك أن تقع في الفخ! لن تستطيع أبدا إثبات أن هذه الأمور غير صحيحة، بل تذكر جيدا ما يلي:

البيّنة على من ادَّعى.. والادّعاءات الخارقة تتطلّب أدلة خارقة!

بريء إلى أن يثبت العكس

تخيّلْ قاضياً يقف أمامه مُتّهَم، فيطالبه القاضي بإثبات أنّه بريء، فإذا عجز أرسله مباشرة إلى السجن! لن يطول الأمر حتى تكتظّ الزنزانات بالأبرياء، إذ ليس من السهل على الناس أن يُثبتوا أنّهم غير مذنبين، حتى لو كانوا في الحقيقة أبرياء كالأطفال. إنّها نسخة قضائية من مغالطة "الاحتكام إلى الجهل": غياب الدليل على البراءة يُعَدّ دليلاً على الإدانة.

هذا ما جرى بالفعل في خمسينات القرن الماضي، حين قاد السيناتور الأمريكي "جوزيف مكارثي"[126] حملة مطاردة ضدّ المشتبه فيهم بالشيوعية. الإدانة لم تكن قائمة على وجود أدلة تُثبت انتماءهم، بل على غياب ما يُثبت العكس! والنتيجة: ضحايا أبرياء حُطّمت حياتهم فقط لأنّ مكارثي انزلق في فخّ هذه المغالطة.

لتصحيح هذا الخلل، جاء الإعلان العالمي لحقوق الإنسان بمادته الحادية عشرة ليقرّر مبدأ "افتراض البراءة"[127]: "كل شخص متّهم بجريمة يُعتبر بريئاً إلى أن تثبت إدانته."

لكن، لنكن صرحاء: المتّهم الذي لم تُثبت إدانته ليس بالضرورة بريئا، فكم من مجرم يجوب الشوارع في حرية لأنه ليس هناك ما يثبت إدانته. يبدو إذن كما لو



في أواخر الخمسينات من القرن العشرين، قاد السيناتور الأمريكي جوزيف مكارثي حملة ضد الأشخاص المتهمين بالشيوعية. في هذه المحاكمات، تم إدانة أشخاص ليس لِتوفُّر أدلة تُثبت ارتباطهم بالشيوعية، بل لِعدم توفُّر ما يثبت أنهم غير مرتبطين بالشيوعية. تَورّط مكارثي في مغالطة "الاحتكام إلى الجهل" أدَّى لإدانة الكثير من الأشخاص الذين لا علاقة لهم بالشيوعية.

[126] Joseph McCarthy
[127] Presumption of innocence

أن قانون "افتراض البراءة" يحتكم بدوره إلى الجهل، مادام يعلن أن عدم وجود أدلة على الإدانة هو دليل براءة.

كيف إذن تسقط أهم قاعدة قضائية في مغالطة منطقية؟

لنلاحظ أولا أن الأدلة القاطعة ليست دائما متوفرة في المحاكمات. لهذا تعتمد الأحكام القضائية في جزء كبير منها على تخمينات القاضي وظنونه، وبالتالي فاحتمال الخطأ يبقى واردا. لهذا السبب، وحماية للأبرياء، انحاز المشرع إلى صف المتهم، فصار عبء الدليل على عاتق الادعاء وليس على المتهم. افتراض البراءة هو مبدأ يسعى لتقليص حالات إدانة أشخاص أبرياء إلى أقل حد ممكن، حتى ولو كلف ذلك إفلات بعض المذنبين من العقاب. إنه مبدأ ينطلق من حسن النية: في البدء، الكل أبرياء، ولنر بعد ذلك من سيخسر براءته!

الآن، لتجاوز المأزق المنطقي وتبريء قانون "افتراض البراءة" من السقوط في مغالطة الاحتكام إلى الجهل، ينبغي أن نفهم لفظة "أبرياء" ليس كمرادف للأشخاص غير المذنبين، بل لأولئك الذين لم يثبت أنهم مذنبون.

شيء من التواضع

ماذا تقول عن الأمور التي لا تملك دليلاً على صحّتها ولا على بطلانها؟

من وجهة نظر منطقية صرفة، لا شيء! فالأمانة العلمية تقتضي التزام الصمت إلى أن تُشرق شمس الأدلة، وألا تصدر أحكاماً يقينية في قضايا أقصى ما يمكنك ادعاؤه لا يتجاوز سقف التخمينات.

قيمة الرأي من حججه، فإذا ضعفت الحُجّة ضعف الرأي، وإذا تقوّت تقوّى معها .

الفيلسوف "دفيد هيوم" لخّص الأمر ببلاغة حين قال: "الحكيم هو من يُفصّل آراءه على مقاس الأدلة."

غير أنّ لهذه الأمانة ثمناً: فهي تفتح الباب على مصراعيه للشكّ، والشكّ لا يروق عامة الناس.

المُصدِّق في حاجة إلى دليل.. المُكذِّب في حاجة إلى دليل.. وحده المُشكِّك في غِنى عن أيّ دليل.

العقل مشاغب بطبيعته، كثير الشك والحركة، بينما العاطفة يستهويها اليقين والسكون. لهذا يميل الناس إلى الحسم واليقين، ولو استدعى الأمر أحيانا الدفاع عن هذا اليقين من خلال التشبث بمبررات واهية تشبث الغريق بالقَش.

الناس لديهم من التواضع ما يكفي لكي يعترفوا بأنهم مجرد بشر معرضين للخطأ، ولكنهم في المقابل لا يجدون أي حرج في التأكيد على أن الكثير من آرائهم واعتقاداتهم، التي تفتقر إلى الأدلة، لا يمكن أن تكون خاطئة! مفارقة عجيبة تُبين كيف يمكن للتواضع والكبرياء أن يتعايشا معا تحت سقف جمجمة واحدة!

وكما أن الأدلة القاطعة ليست دائما متوفرة داخل أسوار المحاكم، فالأمر نفسه ينطبق على ما يجري خارج أسوارها.

هل أنت متأكد أن جارك الجديد الذي لم يبادرك بالتحية هذا الصباح كان ينوي إغاظتك؟

هل تعتقد أن نهاية العالم قاب قوسين؟

هل تؤمن بأن الأجسام الطائرة المجهولة ليست مجهولة، بل هي مركبات فضائية لمخلوقات فضائية جاءت من كواكب أخرى بهدف استعمار كوكبنا؟

هل أنت متأكد أن عدد نجوم السماء هو عدد فردي؟

هل أنت متيقن أن الذبابة لا تعرف أنها سوف تموت؟

عندما تتبنى إحدى الآراء بثقة عالية ودون امتلاك أدلة كافية، فأنت من باب الحقوق حُر في رأيك ولا أحد ينبغي له أن ينزع عنك هذا الحق. أما من باب الفضيلة والأمانة العلمية، فلا بأس أن تمتلك بعض التواضع للاعتراف بإمكانية أن تكون قد أخطأت في تبنِّي ذلك الرأي.

إذا لم يكن معك أي دليل، فلماذا أنت متأكد إلى هذا الحد؟

إذا كان الإحساس بالجهل شعورا غير مريح، فإن ادِّعاء العِلم في أمور يسُودها الجهل هو موقف يَفتقد إلى الكثير من الصدق مع الذات.

لا بأس أحيانا من قبول مقولة "ديموقريطس": "الحقيقة في قعر البئر!"، وهي ذاتها الفكرة التي عبّر عنها "أبو العلاء المعري" قائلا:

أمّا اليقين فلا يقين وإنما أقصى اجتهادي أن أظن وأحدسا

الباحث الحقيقي يَقبل أن يعيش على الحدود بين ما هو معلوم وما هو مجهول، إنه مثل المُغامر الذي يَدخل كهفا مُظلما ويحاول من خلال مصباحه اليدوي استكشاف المزيد من الأماكن المظلمة المجهولة. هذا الباحث يسعى باستمرار للتمييز بين ما يعرفه حقا وما يجهله، بين المناطق المظلمة والمناطق المضاءة. إنه لا ينجذب بسهولة لإغراء اليقين الذي لا مبرر له، ولا يدعي أنه يعرف جيدا ما يختفي في الأماكن المظلمة!

لقد كان "شيشرون" حكيما جدا حين قال: " أنا لا أخجل أن أعترف أني أجهل ما لا أعرف!"

باختصار

1) الحجج المنطقية السليمة تُبنى على حضور الأدلة وليس على غيابها. نرتكب مغالطة "الاحتكام إلى الجهل" عندما نستنتج أن فكرة ما هي صائبة لِمُجرد أنه لا يوجد دليل على أنها خاطئة، أو أنها خاطئة مادام لا يوجد دليل على أنها صائبة. غياب الدليل ليس بدليل! وإذا كان لغياب الدليل أن يدل على شيء، فسيدل على شيء واحد هو الإقرار بالجهل.

2) الأمور غير القابلة للاختبار هي غير قابلة للتكذيب. افترض ما شئت! إذا كان ما تفترضه غير قابل للاختبار، فلا أحد يمكنه تكذيبك بالأدلة والبراهين. ولكن تذكر في المقابل أن عجز غيرك عن إثبات أنك على خطأ لا يعني أنك على صواب!

3) إذا راودتك الشكوك في كلام أحدهم وطَلب منك إثبات العكس، لا تقع في الفخ! بل تذكر أن عبء الإثبات يقع على عاتقه، والبينة على من ادَّعى.

4) الأمانة العلمية تقتضي ألّا تخرج بأي موقف تأكيدي إلا بحضور الأدلة، والامتناع في غيابها. قيمة الرأي في مبرراته وحججه، فإذا ضَعُفت ضَعف الرأي، وإذا تقوّت تقوّى هو أيضا. الاعتراف بجهل بعض الأمور فضيلة لا يُفترض أن تخجل منها.


10
هذه الوقائع تُثبت ما أقول
(الانحياز التأكيدي)



منذ أن تعلمتُ عن الانحياز التأكيدي، بدأتُ أراه في كل مكان!

(الصحفي جون رونسون)

إنه الخطأ الغريب والمستمر للفهم البشري،

أن يكون أكثر تحفُّزا وتحمُّسا للتأييدات من التكذيبات.

فرانسيس بيكون (الأورغانون الجديد)

الواقع أن الإنسان يُؤمن بعقيدته التي ورثها عن آبائه أولا

ثم يبدأ في التفكير فيها أخيرا. وتفكيره يدور غالبا

حول تأكيد تلك العقيدة.

علي الوردي (مهزلة العقل البشري)

إنك لا ترى سوى ظلك وأنت تُدير ظهرك للشمس.

(جبران خليل جبران)



تُؤمن السيدةُ زهرة بتأثير النجوم في تفاصيل حياتها اليومية.

تمسك جريدةَ الصباح، وتفتح صفحة الأبراج بشغف: "عاطفيًا: علاقة جديدة في انتظارك هذا الأسبوع".

تبتسم زهرة بسخرية، فهي متزوجة وأمّ لأطفال، ولا تفكر في أية مغامرات عاطفية.

ثم تتابع: "مهنيًا: سوء تفاهم مع مديرك في العمل سيَحلّ سريعًا." تضحك في سرّها، فقد تركت عملها منذ فترة وهي تبحث عن فرصة جديدة.

لكن عينها تقع على الجملة الثالثة: "جلسة مع صديق أو صديقة لم تلتقِه منذ مدة ستُنعش يومك وتكسر رتابته." هنا تتوقف فجأة وتتنفّس باندهاش: "يا إلهي! كم هذا صحيح! لقد اتفقتُ فعلًا مع صديقتي أن نلتقي اليوم!" فتروي الواقعة بحماسة لصديقتها وكأنّها اكتشاف كوني.

لكن ما الذي حدث حقًّا؟ زهرة – ككثير من المؤمنين بالأبراج– وقعت في فخّ **الانحياز التأكيدي**[128]: التركيز على ما تحقّق، وتجاهل ما لم يتحقّق.



عندما تسحرك فكرة أن تتحقق إحدى توقعات الأبراج، فهل تذكر في المقابل كل تلك التوقعات التي لم تتحقق؟ التركيز على ما تحقق وليس على ما لم يتحقق، هذا من أهمّ المَقالب التي يقع فيها من يُصدقون توقعات الأبراج.

[128] Confirmation bias

الإنسان بطبعه يميل إلى تبرير قناعاته، فيَسلّط الضوء على الأدلة التي تُؤيد ما يُحب أن يصدّقه، ويغضّ الطرف عن كلّ ما قد يُفنّده. ولهذا يستحق الانحياز التأكيدي لقب "سيّد الانحيازات المعرفية".

خذ مثالًا: رجل مقتنع سلفًا أنّ النساء لا يُجِدن السياقة. سترى عينه تلتقط مخالفات النساء بسرعة البرق، بينما تمرّ مخالفات الرجال أمامه بلا أثر. وإن لاحظها، فسيردّد: "يا لغباء هذا الرجل!" لكن إن ارتكبتها امرأة، تحوّلت الجملة إلى: "يا لغَباء النساء!". وبالمثل، إن اعتقدت امرأة أن الرجال خائنون بطبعهم، فستملأ ذاكرتها بحكايات الخيانة، وتستبعد في المقابل قصص الوفاء، أو في أحسن الأحوال ستعتبر الرجال الأوفياء فصيلة نادرة مهدّدة بالانقراض.

الانحياز التأكيدي قد يمسّ حتى القضاء الذي يُفترض فيه العدل بين الناس. لُوحظ مثلا أن بعض القضاة يُصدرون أحكامهم مبكرًا اعتمادًا على الانطباع الأوّل عن المتهم، ثم يعملون -بوعي أو بغير وعي- على جمع ما يُعزّز هذا الانطباع، متجاهلين ما يُناقضه.

الانحياز التأكيدي ليس بحثًا عن الحقيقة، بل هو بحث عن أدلّة مُنتقاة بعناية لإبقاء المرء متشبّثًا بما كان يؤمن به منذ البداية. وهكذا يُصبح الجميع دعاةً باسم الحقيقة، لكن الحقيقة نفسها لا تهمّهم بقدر ما يهمّهم الاطمئنان إلى "نسختهم الخاصة" منها.

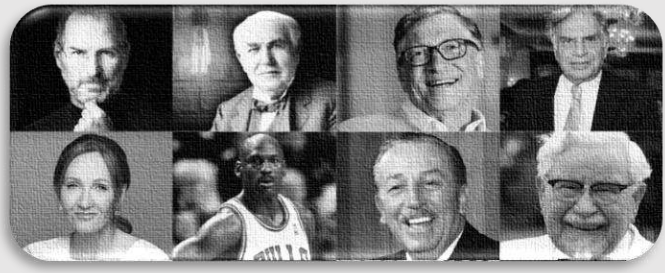
وقد لخّص الفيلسوف شوبنهاور هذا الداء حين قال: "نحن لا نُريد لأنّنا وجدنا أسبابًا، بل نجد الأسباب لأنّنا نريد".

ابتكر مصطلح "الانحياز التأكيدي" عالم النفس الإنجليزي بيتر واسون (Peter Wason) بعد تجربة نُشِرت عام 1960.

أسوأ طريقة لإثبات كل ما تريد !



إذا كنت تعتقد بأن الفلسفة تؤدي إلى الإلحاد، ستعثر بسهولة على أمثلة لفلاسفة ملحدين مثل سارتر وماركس ونيتشه. في المقابل، يمكن بسهولة تفنيد هذا الاعتقاد من خلال أمثلة مضادة لفلاسفة مؤمنين مثل ابن رشد، باسكال وديكارت.



إذا كنت تعتقد أن كل من يتبع حلمه سيحققه في النهاية، ستجد بالتأكيد قصص نجاح حقيقية تؤيد اعتقادك. ولكن هل فكرت في قصص حقيقية لأشخاص فشلوا رغم سَعيهم الجِدّي واستماتتهم لتحقيق احلامهم؟

"تَخلَّص من حبيباتك !" هذه كانت نصيحة الناقد والكاتب "آرثر كيلر كاوتش"[129] لكل أديب يجد صعوبة في شطب العبارات التي يراها جميلة، رغم أنها حشو غير ضروري. هكذا هي الأفكار التي نرتبط بها وجدانيا، تحتاج منا بين الحين والآخر للمراجعة والتنقيح. وبدلا من البقاء في منطقة الراحة عبر البحث عن الأدلة التأكيدية والأسباب التي تجعلنا نُصدق أننا كنا ولا نزال على صواب، نحتاج للسباحة عكس تيار أهوائنا ورغباتنا للبحث أيضا عن الأدلة المُفنِّدة . مُهمة شاقة وغير مريحة، ولكنها تبقى الخيار الأفضل لكل إنسان صادق في بحثه.

المثال.. والمثال المضاد

هل كلُّ الطماطم الطازجة حمراء؟ سؤال يبدو جوابه بديهيًا، أليس كذلك؟

تفتّش في مطبخك فتجد أن كلّ الطماطم التي في حوزتك حمراء اللون. تمضي إلى بائع الخضار، فيدُلّك على صندوقٍ مكتظٍّ بالطماطم الحمراء. تدخل محرّك البحث وتكتب: "طماطم حمراء"، فتغرق الشاشة بعشرات الصور لطماطم حمراء.



هل كل طيور البجع بيضاء؟
في الصورة طائر بجع أسود،
مثال مُضاد واحد كاف
لتكذيب القاعدة ونسفها تماما.

[129] Arthur Quiller-Couch

عندها تُصفّق لنفسك: الخلاصة واضحة! لدي ما يكفي من الأدلة لاستنتاج أن كل الطماطم الطازجة هي بالفعل حمراء!

لكن تمهّل قليلًا .ما كنت تقوم به طوال هذا الوقت هو البحث عن الأمثلة المؤيدة لفرضية الطماطم الحمراء، وكنت في النهاية تعثر عليها. فلنجرّب قلب العملية: ابحث الآن عن "طماطم صفراء". وها هي الصور تتدفق، طماطم خضراء، وأخرى بنفسجية، بل وحتى زرقاء!

هذه هي فكرة "التكذيب"[130] التي صاغها فيلسوف العلوم "كارل بُوبر".[131] كانت فكرة "بوبر" بسيطة وثورية. إذا سعينا لإثبات فرضية أو قاعدة معينة من خلال البحث عن الأمثلة التي تؤيدها، فإننا في الحقيقة لن نثبت شيئا، بل قد ينتهي بنا المطاف إلى قبول عدد لا يحصى من الفرضيات المناقضة لبعضها.

العثور على مثال يؤيد القاعدة لا يعني أن القاعدة صحيحة. الانتقال من المثال الخاص (بعض الطماطم حمراء) إلى القاعدة العامة (كل الطماطم حمراء) هو تعميم لا مبرر له. في المقابل، إذا عثرنا على مثال واحد يعارض القاعدة، مثل الطماطم الصفراء، فهذا كاف لتكذيب القاعدة ونسفها تماما! هذا المثال يسمى مثالا مضادا.

إذن، كيف نُثبت صواب فرضية؟

حسب "بُوبر"، الفرضية التي تصمد أمام محاولات عديدة لتفنيدها، يمكن أن تُعَدّ أفضل فرضية متاحة حتّى الآن، دون ادّعاء العصمة لها. فالعِلم كائن متواضع، يقبل دائمًا التعديل إذا باغتته أمثلة مضادّة جديدة. وهكذا يصنع العلماء من الوقائع المبعثرة قوانين

130 Falsification

131 Karl Popper

عامة، شرط أن تُختبر في مختبر التكذيب قبل أن يُمنَح لها حقّ الحياة. ومادام العلم من صُنع بشرٍ مولَعين بالانحياز التأكيدي، فمن الضروري تبني معيار التكذيب قبل التأييد، حتى تبقى المعارف العلمية في مأمن من فخ الانحياز التأكيدي.

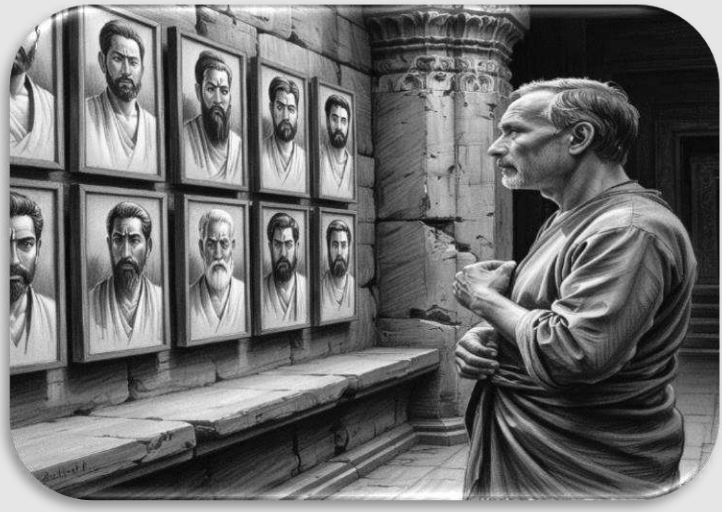
هل الأمور بهذه الغرابة؟

هل حدث أن خطرت في بالك صورةُ شخصٍ ما، وإذا بالهاتف يرنّ، لتجد أن المتّصل هو ذاك الشخص بعينه؟ أو أن رأيت في المنام وجهًا غاب عنك طويلًا، وفي اليوم التالي التقيت به صدفةً في الطريق؟ حكايات من هذا الطراز تتكرّر مع الجميع، ولدى كثيرين تبدو غريبةً إلى حدٍّ لا يترك مكانًا لتفسير طبيعي.

لكن، هل هي فعلًا بتلك الغرابة؟

عندما تسحرك فكرة أن يتصل بك شخص كنت تفكر فيه للتو، فهل تذكر مئات المرات التي فكرت فيها بشخص معين ولم يتصل بك؟ وحين تتعجّب من لقاء من حلمت به البارحة، فهل تحصي مئات الأحلام التي لم تتحقّق لا في اليوم التالي ولا حتى بعد شهر أو سنة؟

إذا كان لديك ميلٌ مسبق إلى الإيمان بالتخاطر أو بقراءة الغيب عبر الأحلام، فستنتقي من ذاكرتك ما يُوافق هواك، وتُهمِل كل الوقائع الأخرى. إنّه وجه آخر من وجوه الانحياز التأكيدي. والأدهى أنّ هذا الانحياز قد يتحوّل إلى غولٍ يبتلع حياة بعض الناس. تخيّل شخصًا يؤمن أنّ النحس يُطارده؛ في حياته أحداث سعيدة كثيرة، لكنّه يعمي عينيه عنها، وينتظر فقط لحظة تعثّرٍ عابرة ليصرخ: "ها هو النحس يلاحقني من جديد"!



في كتابه "الأورغان الجديد"، الذي مهّد للمنهج العلمي الحديث، يروي الفيلسوف "فرانسيس بيكون" قصة رجل أطلعوه على صورة مُعلقة في المعبد. أخبروه أن الصورة تُمثل أشخاصا نَجوا من حادث سفينة لأنهم قدّموا عُشورهم. فأجابهم الرجل قائلا: "حسنا.. ولكن أين صور أولئك الذين قدموا عشورهم، ومع ذلك غرقوا في السفينة؟"

العقل البشري غريب الأطوار: ما إن يؤمن بفكرةٍ ما، حتّى يعيد تشكيل العالم حوله لتلائمها، فلا يرى إلّا ما يُؤكّدها. وكأنّنا، على حدّ تعبير جبران خليل جبران، مثل إنسانٍ أدار ظهره للشمس فصار لا يرى سوى ظله. وكلّ ذلك يجري في دهاليز اللاوعي أكثر منه في وعي يقظ. لهذا فالانحياز التأكيدي مرض مزمن يستحيل استئصاله تماما، والواحد منا يحتاج إلى حالة وعي شديدة لمساءلة قناعاته: "حسنا، هذه بعض الوقائع المؤيدة. هل توجد وقائع مكذبة؟"

لماذا يجب أن تستمع لقصص الفشل؟

"اتبع حلمك وشغفك! اعمل ما تُحبّ وستبلغ قمة النجاح!"

هذه بعض من الوصفات السحرية التي نجدها في كتب التنمية الذاتية ومواقع التواصل الاجتماعي .

إذا كنت تعتقد أن من يطارد حلمه سيناله حتمًا، فستُسارع إلى استحضار قصص "توماس إديسون" و"ستيف جوبز" و"ليونيل ميسي"، ولن يخطر ببالك ابن عمتك المسكين الذي قضى طفولته يُلاحق كرة القدم حتى آخر رمق، ثم انتهى به الأمر موظفًا عاديّا يحدّث أبناءه عن "الأيام المجيدة."

إذا كنتَ تعتقد أن الثراء هو ثمرة لعرق الجبين، فستجد بالتأكيد بين أقربائك أو أصدقائك أو المشاهير الذين يُلهمُونك أمثلة حية لأشخاص كافحوا واجتهدوا قبل أن يصيروا أثرياء. ولكن هل فكرت في أمثلة لرجال أو نساء ظلُّوا يكِدّون ويكافحون طول حياتهم دون أن يتجاوزوا عتبة الفقر؟ أو في أصحاب الثروات الذين استيقظوا صباحًا ليجدوا أنفسهم ورثةً لشركات ومصانع دون أن يبلّلوا جبينهم بقطرة عرق؟

الجميع يلهث خلف النجاح والسعادة، ولذا كان بيع الوصفات السحرية لتحقيقهما تجارةً رائجة عبر العصور. المشكلة أنّ الواقع أعقد بكثير من أن يُختزل في وصفة سحرية. ليس خبرا سارا أن تعرف أنه مقابل آلاف اللاعبين الجيدين لكرة القدم، ربما يخرج نجم واحد مشهور يتقاضى راتبا عاليا، ومن بين مائة شركة صغيرة أو متوسطة ربما تنشأ شركة واحدة كبيرة. هذا هو واقع الأشياء، القصص العادية جدا هي القاعدة، أمّا قصص النجاح المبهرة فهي الاستثناء. ولو كانت الوفرة من نصيبها، لما سمعنا عنها أصلًا.

لهذا من المهم سماع قصص الفشل أيضا[132]. قد لا تكون ممتعة بنفس درجة قصص النجاح، ولكنها قد تدفعك لمراجعة الكثير من قناعاتك الخاطئة، ستُعلمك كيف تتجنب بعض الحماقات، كيف تنتبه لأمور مهمة لم تخطر على بالك، وربما تُخفف عنك وطأة الإحباطات الناجمة عن التوقعات المفرطة في التفاؤل.

أنصاف الحقائق: كلام حقّ يُراد به باطل



نصف الحقيقة هو في الغالب كذبة كبرى.

(بنجامين فرانكلين)

خلال فترة الحرب الباردة بين الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتي، انتشرت الكثير من النوادر والقصص الساخرة من بينها القصة التالية.

في سباق للجري جمع فقط بين الرئيس الأمريكي ونظيره الروسي، جاء الأمريكي في الرتبة الأولى يليه بفارق بسيط الرئيس الروسي.

في صباح اليوم التالي، نشرت الصحف الأمريكية الخبر كما يلي: "انتهى سباق أمس بحصول الرئيس الأمريكي على المرتبة الأولى بينما حصل الرئيس الروسي على المرتبة الأخيرة."

من ناحيتها، قدمت الصحف الروسية الخبر كما يلي: "انتهى سباق أمس بحصول الرئيس الروسي على المرتبة الثانية بينما حصل الرئيس الأمريكي على المرتبة ما قبل الأخيرة!"

---

[132] التركيز فقط على قصص النجاة أو النجاح مع تجاهل قصص الفشل يُعرف بتحيّز السفينة الناجية Survivorship Bias

بالتأكيد، من ناحية صحة المعلومات، لا غبار في ما نشرته جميع هذه الصحف. كلها لم تقل سوى الحقيقة، ولكن ليس كل الحقيقة!

الصحف الأمريكية لم تذكر أن الرئيس الروسي حصل على المرتبة الأخيرة لأنه لم يكن في الأصل سوى متسابقين اثنين، والصحف الروسية لم تذكر أن المرتبة ما قبل الأخيرة ليست سوى المرتبة الأولى للسبب ذاته.

نصف الحقيقة، كما في هذا المثال، هو كلام حق يُراد به باطل. إنه انحياز تأكيدي، مع سبق الإصرار والترصد! في هذا الانحياز، تتم غربلة المعطيات والوقائع، قصد الاحتفاظ فقط بما يخدم مصلحة كل طرف، ورمي الباقي في سلة المهملات.

عندما يُغربل رجل السياسة الوقائع لينتقي منها ما يُؤيده ويتغاضى عن الباقي، ويُخفي المحامي خطايا موكله لِيَظهر فقط جانب الضحية فيه، ويتحدث الإعلان التجاري عن مزايا منتج ويتجنب الخوض في أضراره، فنحن أمام أنصاف حقائق.

نصف الحقيقة قد يتحول إلى كذبة كبرى، كما عبر عن ذلك الشاعر معروف الرصافي:

وأشنع الكذب عندي ما يُمازجه شيء من الصدق تَمْويها على الفكر

في النقاشات الدينية، حيث تُعتمد النصوص كأدلة، يسقط المتحاورون بسهولة في فخ الانتقائية وأنصاف الحقائق. في كل موضوع خلاف، سنجد العديد من النصوص. إذا اكتفى كل طرف بتقديم النصوص المؤيدة لآرائه المسبقة متغاضيا عن تلك التي يُفهم منها العكس، فإنه في الحقيقة لا يثبت شيئا. إذا حاول رجل الدين المسيحي مثلا أن يثبت أن الكتاب المقدس في مجمله يدعو إلى التسامح واللاعنف، فإن اكتفاءه باقتباس دعوة السيد المسيح "من لطمك على خدك الأيمن فأدر له الأيسر" لن يكون كافيا، بل عليه أن يَرَدّ أيضا

على بعض نصوص العهد القديم التي تدعو شعب الرب لغزو شعوب أخرى وقتل رجالها ونسائها وحتى أطفالها.

النظرة الموضوعية للأشياء تتطلب فحص كل الملاحظات دون إخفاء غير المرغوب فيها. وإذا كانت الحقائق كثيرة ومتشعبة لدرجة تجعل من الصعب أو المستحيل جردها كلّها، فإن من الواجب على الأقل عدم إخفاء الحقائق المهمة جدا، والتي بإخفائها تتغير النتائج تماما.



هل يتعلق الأمر بقتل حيوان أو إنقاذه؟

نصف الصورة قد يعطي رسالة معكوسة.

حصل شاب على رخصة للسياقة، وفي اليوم التالي قام بمخالفة في الطريق، فقال لبعض زملائه متبجّحًا: "أنا سائق ممتاز. لم أحصل طوال حياتي إلا على مخالفة واحدة!"

صاحبنا لم يكذب، ولكنه قال نصف الحقيقة، ليتمكن بعدها من استنتاج ما يريد!

الاكتفاء بأنصاف الحقائق يمكنه أن يقودنا إلى أكبر الكذبات. نستطيع أن نثبت أن أسوأ الحكومات هي أفضلها، إذا استعرضنا إنجازاتها الجيدة فقط. نستطيع أن نتوهم أن مجتمعا يسوده الفقر والأمية هو أفضل المجتمعات، إذا ركزنا على بعض خصوصياته الثقافية. بل نستطيع أن نُبين أن شخصا ارتكب جرائم في حق البشرية، مثل هتلر، هو في الحقيقة مناضل شريف. كيف؟ يكفي انتقاء بعض العبارات الجميلة والمختارة بعناية من كتاب "كفاحي"[133]!

كيف ترى المؤامرات في كل مكان؟

في سنة 2020 ومع انتشار وباء كوفيد 19 ، كثُر الحديث عن كتاب قيل إنه تنبأ بهذا الفيروس قبل سنوات من ظهوره. إنها رواية "عيون الظلام" لمؤلفها "دين كونتز"[134] والتي صدرت عام 1989. الغريب في هذه الرواية هو أنها تحدثت عن سلاح بيولوجي سيتمّ صنعه في الصين تحت اسم "وُوهان 400"، وهو تشابه رهيب مع اسم مدينة "وُوهان" التي ظهر فيها فيروس كوفيد 19 الحقيقي. للوهلة الأولى، تبدو الأمور مُحيّرة وتتجاوز الصدفة. لا غرابة أن الأخبار التي تداولت هذا الكتاب كانت تُشير بقوة إلى نظرية المؤامرة.

هذا ما يتعلق بالتشابهات. وماذا عن الاختلافات؟ هذا الجدول يُوضح بعضها:

---

[133] كفاحي (بالألمانية: Mein Kampf) هو كتاب لأدولف هتلر نشر بين عامي 1925 و 1926. الكتاب هو سيرة ذاتية وعرض لأفكار هتلر النازية وإيديولوجيته السياسية وخططه المستقبلية لألمانيا.

[134] Dean Koontz: The eyes of darkness

	الخيال ووُهان 400	الواقع كوفيد 19
نسبة الوفيات	100%	حوالي 2%
عدد أيام فترة الحضانة	1	1 - 14
العضو المُصاب	المخ	الرئة

يبدو أن التشابه بين الوباء الحقيقي والخيالي لا يتجاوز التسمية. تجاهل الاختلافات مع التركيز على التشابهات، هذا من أوجه الانحياز التأكيدي، ويُدعى بمغالطة "قنّاص تكساس"[135] . التسمية جاءت من نكتة عن رجل من تكساس كان يُطلق أعيرة نارية بشكل عشوائي على جانب حظيرته، ثم يرسم دائرة على المنطقة التي تضُم أكبر عدد من الطّلقات، ويَدَّعي بذلك أنه قنّاص محترف.



تجاهل الاختلافات مع التركيز على التشابهات، هذا من أوجه الانحياز التأكيدي، ويُدعى بمغالطة "قنّاص تكساس". جاءت التسمية من نكتة عن رجل من تكساس كان يُطلق النار عشوائيًا على جانب حظيرته، ثم يرسم دائرة حول المنطقة التي تتركّز فيها معظم الطلقات، ويدّعي بعدها أنه قنّاص ماهر.

[135] Texas sharpshooter fallacy

تشابهات مشبُوهة



من أكثر المُصادفات شُهرة تلك التشابهات بين الرئيسين الأمريكيين "أَبرَاهَام لِينكُولن" و"جُون كِينِيدِي". إذا ركَّزت فقط على أوجه التَّشابه بينهما، ستبدو الأمور غاية في الغرابة! ولكن إذا نظرت أيضا إلى أوجه الاختلاف، سَيَقِلُّ الشُّعور بالغرابة لِيصبح الوضع أقرب إلى المُعتَاد.

تشابهات	اختلافات
عدد حروف أسمائهما العائلية ("Lincoln" و"Kennedy") هي 7.	عدد حروف أسمائهما الشخصية: 7 أحرف لـ "Abraham"، و14 لـ "John Fitzgerald".
تمّ انتخاب لينكولن رئيساً في عام 1860، بينما تمّ انتخاب كينيدي 100 عام من بعده سنة 1960.	تمّ انتخاب لينكولن يوم الجمعة 6 نونبر و عمره 51 عاما، بينما تمّ انتخاب كينيدي يوم الثلاثاء 8 نوفمبر وكان عمره 43 عاماً.
كان الرئيسان من المُدافعين عن الحُقوق المدنية.	كان كينيدي ديموقراطيا كاثوليكيا، بينما كان لينكولن جمهوريا غير كاثوليكي.
مات الرئيسان قتلاً من خلال إطلاق نار في يوم الجمعة.	مات كينيدي في نفس اليوم (الجمعة) بينما مات لينكولن في اليوم الموالي للهجوم (السبت).

بعض العرّافين والوُسطاء الروحيين يُتقنون لعبة القنّاص، حيث يُطلقون عددا هائلا من التنبؤات لِيَصير من شبه المؤكد أن يَصدُق بعضها. في النهاية، بما أن الناس يتحمَّسون للتأكيدات أكثر من التكذيبات، ستجدهم يُحيطون هؤلاء العرّافين بهالة من الغموض والسحر.

منذ مئات السنين، كتب "نوستراداموس" ما يلي:

"ستعبر الوحوش الجائعة الأنهار، وسيكون الجزء الأكبر من المعركة ضد "هيستر"، سيَجبر العظماء على الزجّ في قفص من حديد، عندما لا يلتزم ابن ألمانيا بأي قانون."

وأنت تقرأ هذه النبوءة، أول شخص قد يخطر ببالك هو هتلر. كيف استطاع "نوستراداموس" التنبؤ بقدومه؟ قبل أن تذهب بعيدا، عليك أن تدرك أن "نوستراداموس" قدَّم أكثر من ألف نبوءة، معظمها مجرد هراء. ونظرًا لكثرة التنبؤات، فمن الوارد جدا تشابه واحدة منها على الأقل مع حدث حقيقي.

هل سبق لك أن رأيت صُورا لوجوه وحيوانات في السحاب؟

هذه ظاهرة نفسية تُعرف باسم "الباريدوليا"[136]، حيث يقوم الدماغ بالبحث عن أشكال مألوفة لا وجود لها في الواقع.

بشكل عام، الميل البشري للبحث عن أنماط وهمية وذات معنى داخل بيانات عشوائية هو انحياز معرفي يُعرف باسم "وهم التَّكَتُّل"[137].

136 Pareidolia
137 Clustering illusion



عندما ترفع عينيك نحو السحاب، يمكنك أن ترى وجوها بشرية وأجسادا حيوانية وأمورا أخرى كثيرة. هذه الظاهرة معروفة باسم "البَارِيدُولِيَا"، حيث يقوم دماغك بالبحث عن أشياء مألوفة داخل بيانات عشوائية وأشكال عديمة المعنى.

بعض الحُجَج المستخدمة في إثبات نظريات المؤامرة تُوظِّف وهم التَّكَتُّل بشكل مؤثر جدا. إذا نظرت جيدا في ورقة الدولار، سترى سنة 1776 مكتوبة بالأرقام الرومانية. هذه ليست فقط سنة إعلان استقلال الولايات المتحدة الأمريكية، بل هي أيضا سنة تأسيس أول جماعة للمُتنوِّرين[138] في ألمانيا. وإذا طويت ورقة نقدية من فئة العشرين دولارا بطريقة معينة، ستكون قادرا على رؤية شيء يُشبه حريق مركز التجارة العالمي خلال أحداث 11 سبتمبر. وإذا فكَّرت في شراء منتج في السوق به ألوان متعددة، فاحذر من المشاركة في الترويج للمثلية الجنسية!

[138] المتنورون (Illuminati) جمعية سرية تأسست في ألمانيا سنة 1776. في إطار نظرية المؤامرة، صار هذا الاسم يطلق على عدة مجموعات، حقيقية أو وهمية، يزعم أنها تسعى للسيطرة على شؤون العالم وبناء نظام عالمي جديد.

وتستمر الأدلة على هذا المنوال. أدلة تنبني في معظمها على الفرضيات الأربعة الآتية:

- لا شيء يحدث بالصدفة.
- كل ما يحدث هو نتيجة مخططات سرية.
- لا شيء هو في الحقيقة كما يبدو عليه في الظاهر.
- كل الأحداث مترابطة بطريقة غامضة.



الأشخاص المُولَعون بنظريات المؤامرة مُعرّضُون للوقوع بسهولة في فخ "وهم التَّكَتُّل"، حيث يدفعهم اعتقادهم المُسبق لرؤية أنماط ذات معنى داخل بيانات عشوائية، واستنباط تفسيرات وروابط غريبة من معطيات تحتمل تفسيرات أقل غرابة.

بالتأكيد ليست كل المؤامرات شطحات خيال، فاغتيال "أبراهام لنكولن "او الهجوم على قاعدة "بِيرل هاربر "مثلا هي مؤامرات حقيقية.

لماذا يؤمن الكثير من الناس بمؤامرات يبدو احتمال وقوعها ضئيلا للغاية؟

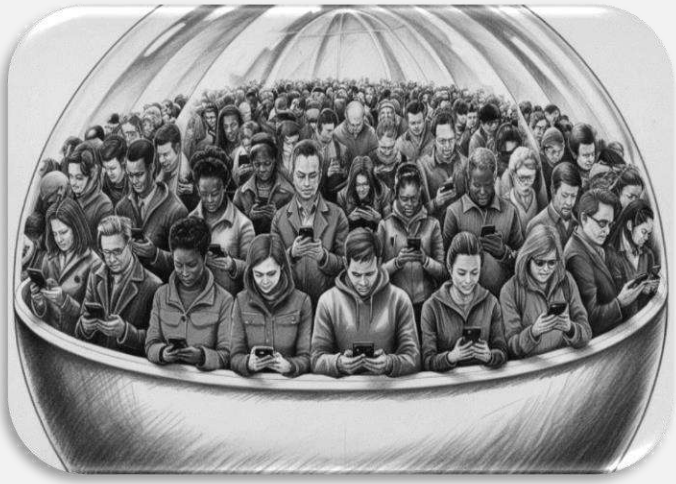
الاعتقاد المُسبق، الانحياز التأكيدي ووهم التَّكَتُّل، هذه تفسيرات مطروحة في علم النفس الاجتماعي. الشخص المولع بنظريات المؤامرة لا يتحدث من فراغ. إنه شخص مُطّلع يعتمد على الكثير من المعطيات والوقائع الحقيقية. ولأن فكرة المؤامرة تستحوذ على تفكيره، فإنه لا يرى من حوله إلا البيانات التي تؤيدها، ولو كانت واهية، بينما يغفل أو يقلل من قيمة البيانات التي تكذبها، ولو كانت قوية. هذا الاعتقاد المسبق سيجعله يرى روابط بين وقائع لا مبرر للربط بينها، ويرى معاني غريبة في معطيات ورموز تحتمل معاني أقل غرابة، تماما مثل الشخص الذي يشاهد السحب ذات الأشكال عديمة المعنى، فيرى بعين خياله وجوها بشرية وأجسادا حيوانية!

شيء من الانفتاح

انضمّ فريد إلى جماعة تدعُو نفسها "أنصار الأرض المُسطّحة". أخيرا انكشفت الحقيقة أمام عينيه. كان سعيدا جدا بالتعرف على أشخاص يُشاطرونه نفس الاعتقاد، وكانوا يستغربون جدا كيف أن معظم الناس أغبياء في تصديق كذبة الأرض الكروية. لم تَعُد قضية فريد وجماعته مجرد مسألة علمية تتعلق بشكل الأرض، بل تجاوزتها إلى فضح مؤامرات خبيثة وأهداف شيطانية تُخفيها المؤسسات العلمية والمحطات الفضائية وحكومات الدول الكبرى. صارت القضية الأساسية لفريد هي التبشير بفكرة الأرض المسطحة. كان نشيطا جدا على مواقع التواصل الاجتماعي الخاصة بالمجموعة، وحريصا على متابعة الفيديوهات والتدوينات والكُتيبات التي تشرح بِلُغة بسيطة لماذا يجب أن تَكُون الأرض مسطحة. لم يعُد يُحس بالحاجة ولا بالرغبة للاطلاع على المزيد من الحُجج المُعاكسة لاعتقاده، فقد عرف ما يكفي، وهو الآن يمتلك الحقيقة المطلقة.



حالة فريد ليست فريدة من نوعها. مئات الآلاف من الأفراد حول العالم يؤمنون بفكرة الأرض المسطحة، رغم أن كل الأدلة التي يُقدمها العلم تقول العكس.



في وسائل الإعلام الإخبارية ومواقع التواصل الاجتماعي، يشير مصطلح "غرفة الصدى"[139] (أو القبائلية الجديدة) إلى كل نظام مغلق ومعزول عن الآراء المعارضة، بحيث يتعرض الأفراد في داخله لمعتقدات تُعزز آراءهم المسبقة، فتصبح أصواتهم صدى لنفس الصوت المتكرر. تأثير غرفة الصدى يُقلل من الانفتاح على وجهات نظر متنوعة، ويُعزز السرديات والأيديولوجيات المسبقة. خوارزميات مواقع البحث والتواصل الاجتماعي تشتغل للأسف بطريقة تجعلها تدعم تأثير غرفة الصدى، حيث تقترح عليك ما تعوّدتَ مشاهدته سابقا. هكذا يسهل عليك أن تلتقي على الإنترنت بمن يشبهونك في الاهتمام والتفكير، فتصبح سجين فقاعة من الأخبار والمعلومات التي تنسجم مع آرائك وتُعزز انحيازك التأكيدي.

هذه الظاهرة تُعرف باسم "فُقاعة المُرَشِّح"[140].

[139] Echo Chamber
[140] Filter Bubble



يقوم الانحياز التأكيدي على تجاهل الوقائع التي تتعارض مع معتقداتنا، والتركيز فقط على تلك التي تتوافق معها. ولكن هيهات! فالحقائق لا تختفي من عالمنا لمجرد أننا نتجاهلها، إنها تظل تلاحقنا بحضورها مهما لعبنا لعبة النعامة وأخفينا رؤوسنا تحت التراب.

هل يوجد حل للتخلص من هذه المعضلة؟

المشكلة مع الانحياز التأكيدي هي أنه، بالإضافة إلى كونه خطأ في التفكير العقلاني، فهو حالة نفسية تجري معظم الأحيان على مستوى اللاوعي. هذا ما يجعل منه داءَ يستحيل استئصاله تماما.

الروائي العالمي "باولو كويلو" رفع الراية البيضاء حين أعلن يائسا: "لا تُضِع وقتك في الشروحات. الناس يستمعون فقط إلى ما يريدون سماعه!"

لا أحد يستطيع الادّعاء بأنه تخلص بشكل مطلق من الانحياز التأكيدي. لا يوجد دواء ناجع مائة في المائة لهذا الداء الفكري المزمن. حتى نكون واقعيين، لِنَقُل إن ما لا يُؤخذ كلُّه لا يُترك بعضه. هل من سبيل إذن للمساعدة على الأقل في التخفيف من الانحياز التأكيدي؟

النقطة الجوهرية هي أن الآراء المعارضة تُزعجنا مادامت تُزعزع ما نحن مطمئنون إليه. هذا ما يدفعنا غالبا إلى تجاهلها أو التقليل من أهميتها. وفي النهاية، تتكوّن لدينا معرفة سطحية بهذه الآراء تزيد من فجوة سوء الفهم والأحكام المسبقة.

ولأن معظم الآراء لها نقاط قوة ونقاط ضعف، فإن ما يجذبنا عادة في أفكار خصومنا هي الجوانب الضعيفة، فنتصوّر أن تدمير إحدى تلك الجوانب الضعيفة يُشكل تدميرا للفكرة كلها بجوانبها القوية.

أكثر من هذا، قد نجد أنفسنا أمام إغراء الانتصار على خصومنا مدفوعين لتشويه أفكارهم الحقيقية من خلال نَسْب حُجّة هشّة سهلة المنال إليهم كي يتسنّى لنا بعدها تدميرها بسهولة تامة. هذا الهجوم غير المُنصف يُسمى مغالطة "رجل القشّ"[141]، حيث تتم مبارزة دمية مملوءة بالقش على أساس أنها الخصم الحقيقي.

أول خطوة إذن في الاتجاه الصحيح هي محاولة اكتشاف حقيقي لآراء خصومنا والانفتاح عليها. من المُهم أن يكون اطّلاعنا على آرائهم من خلال كتاباتهم وليس فقط من منظور الكتابات الموافقة لآرائنا وأهوائنا.

إذا كانت الأفكار المعارضة لآرائنا تبدو لنا صادمة، فَلنتذكّر أن الاكتشافات والإصلاحات الكبرى في تاريخ البشرية لم تكُن سِوى سلسلة من الصدمات لعقول الناس في وقتها.

---

[141] Straw man fallacy



إذا كانت هذه الآراء الشاذة تُثير غضبنا، فلنتذكّر كيف ننظر بدورنا إلى شخص سريع الغضب عندما نعترض على رأيه. ألا يبدو لنا مُتحيزا، لاعقلانيا، ومثيرا للشفقة؟

لا حرج على الشخص الذي لديه اعتقاد معين وتعوّد على ثقافة معينة أن يكتشف عقائد الآخرين وثقافاتهم، وإلا بأي حق سيَمكنه أن يطلب منهم الانفتاح على عقيدته وثقافته؟

لا يَضُر الشخص المحافظ أن يَطَّلع على كتابات حداثية، كما لا يضر الحداثي أن يطَّلع على كتابات محافظة. يُقال إن الإنسان الذي يقرأ من كتاب واحد فقط يَصير عبدا له!

الشّخص الذي يَنزعج كثيرا مِن سَماع حُجَج المُخالفين لِرأيه الأرجَح أنّه لا يَملِك من الأساس حُجَجا يُدافع بِها عن رأيه.

الشخص الذي يقف تجاه ما يعتبره فكرا هدّاما موقف الدعوة لقمعه ومحاربته إنما يُعبر عن إفلاس فكري. إذا كان هذا الشخص عاجزا عن مناقشة أو تفنيد الآراء المعاكسة، فلن يكون لديه أيّ أساس منطقي لتفضيل رأيه على تلك الآراء.

إذا لم يُفكر في مَكامِن ضعف آرائه، فإن غيره سيُفكر فيها، وربما يُذكِّره بها.

يوجد مبدأ رائع جاء به "كارل بُوبر" يدعى "مبدأ الإحسان"[142]. هذا المبدأ يقضي بأن تواجه فكرة خصمك من جوانبها القوية بدلا من الضعيفة. بل إنك تحاول ما أمكن تقوية فكرته قبل أن تهاجمها. هذه المهمة الشائقة تضمن لك نسبة كبيرة من الحياد ونسبة قليلة من الانحياز التأكيدي، وربما أظهرت لك بعض الثغرات في آرائك الخاصة.

في النهاية، إذا نجحت في تفنيد حجج خصمك، فستكون واثقا أنك هاجمت خصما حقيقيا... وليس دمية قش!



[142] Principle of charity

باختصار

1) نقع في الانحياز التأكيدي عندما ننتقي وقائع ودلائل تؤيد ما نعتقده مسبقا، مقابل إغفال كل الوقائع والدلائل المعارضة. إنه البحث عن المبررات التي تُقنعنا بالبقاء على ما كنا نُؤمن به منذ البداية. لهذا، نحتاج إلى حالة وعي شديدة لطرح السؤال الآتي: "حسنا، هذه بعض الوقائع المؤيِّدة. هل من وقائع مكذِّبة؟"

2) إذا سعينا لإثبات قاعدة معينة من خلال البحث عن الأمثلة التي تؤيدها، فإننا في الحقيقة لن نثبت شيئا. العثور على بعض الأمثلة التي تُؤيد القاعدة لا يعني أن القاعدة هي بالضرورة صحيحة. في المقابل، إذا عثرنا على مثال واحد يعارض القاعدة (مثال مضاد)، فهذا كاف لتكذيب القاعدة ونسفها تماما.

3) عندما نذكر الإيجابيات دون السلبيات، أو نُظهر بعض الحقائق ونُخفي بعضها الآخر رغم أهميتها، فإننا نُقدم أنصاف حقائق. نصف الحقيقة قد يتحول إلى كذبة كبرى. وإذا كان جرد كل الحقائق صعبا أو مستحيلا، فإنه من اللازم على الأقل عدم إخفاء الحقائق المهمة جدا، والتي بإخفائها تتغير النتائج تماما.

4) الاطلاع على الأفكار المخالفة لآرائنا والانفتاح عليها خطوة أساسية للتقليل من الانحياز التأكيدي. إذا كنا نرفض مناقشتها أو نعجز عن تفنيدها، فلن يكون لدينا أي أساس منطقي لتفضيل آرائنا الخاصة عليها.


مُلحق
المغالطات المنطقية
والانحيازات المعرفية

مغالطات صورية



1. التناقض Inconsistency

الأخذ بفكرة ونقيضها في آن واحد.

◈ يَجِبُ أن نَمنع كلَّ أشكال المَنع.

أليست العبارة في ذاتها دعوة للمنع؟

◈ في تقاليدنا، مَسموحٌ للفتيان أن يَخرجوا مع الفتيات. أما الفتيات فَغَيْر مَسموح لَهُنَّ بِالخروج مع الفتيان.

مبدأ غير قابل للتطبيق. كيف يُمكن للفتى أن يَخرج مع الفتاة إذا لم تَخرج هي معه أيضا؟

◈ لم يعد أحد يذهب في ذلك الطريق، فهو مزدحم للغاية!

◈ كان عَلينا تَدْمير كل القرية لِإِنْقاذها.

بدون تعليق.

الفكرة التي تتضمَّن تناقضا لا تحتاج لِحُجة من الخارج لِدَحضِها، فهي لِوحدها تَنسِف نفسها بنفسها!

التناقض يُمكنه أن يصل بك إلى كل ما تُريد، لذلك فالتناقض هو العدوّ الأول للتفكير المنطقي.

2. إثبات التالي Affirming the consequent

المقدمة: "أ" صحيحة إذن "ب" صحيحة.

النتيجة: "ب" صحيحة إذن "أ" صحيحة.

◈ المجرم يُسبب الألم للآخرين. وما دام علاج الأسنان يُسبب ألما كبيرا، فطبيب الأسنان شخص مجرم.

◈ من دون حُب، لن يكون الزواج سعيدا. وإذن كلما وجدتَ زواجا غير سعيد، فاعلم أنه غير قائم على الحب.

◈ كل طعام شهي لابد أن يكون فيه شيء من الملح، وبالتالي كلما أضفنا قليلا من الملح كان الطعام شهيا.

لا تَخلط بين الشرط اللَّازم والشرط الكافي. إذا كان الملح شرطا لازما لإعداد طبق شهي، فهو يبقى شرطا غير كاف. إعداد الطبق الشهي لا يَتمّ فقط بالملح.

3. إنكار المقدمة Denying the antecedent

المقدمة: "أ" صحيحة إذن "ب" صحيحة.

النتيجة: "أ" خاطئة إذن "ب" خاطئة.

◈ عندما يَسقط المطر يوجد السحاب، وبالتالي عندما لا يسقط المطر لا يوجد السحاب.

نتيجة خاطئة لأن السحاب قد يوجد رغم عدم *سقوط المطر*.

◈ الشخص الذي يمارس اليوغا يحصل على السلام الداخلي. نستنتج إذن أن الشخص الذي لا يمارس اليوغا لا يحصل على السلام الداخلي.

◈ إذا حصلت على شهادة عُليا، فسيكون مستقبلك زاهرا. لهذا، احذر ألا تكون لديك شهادة، فلن يكون لك مستقبل!

تصحيح هذه المغالطة يَتِمّ من خلال ما يُسمى بقاعدة "الاستلزام المُضاد للعكس"[143] :

المقدمة: "أ" صحيحة إذن "ب" صحيحة.

النتيجة: "ب" خاطئة إذن "أ" خاطئة.

عندما يَسقط المطر يوجد السحاب، وبالتالي عندما لا يوجد السحاب لا يسقط المطر.

4. مغالطة المغالطة The fallacy fallacy

توجد مغالطة منطقية في الحجة، وإذن فالنتيجة هي بالضرورة خاطئة.

◈ - الأرض كروية لأن معظم الناس يعتقدون أنها كروية.

- لقد ارتكبتَ مغالطة الاحتكام إلى عامة الناس، وبالتالي فكلامك باطل، والأرض ليست كروية!

الخطأ في الدفاع عن الرسالة لا يعني أن الرسالة ذاتها خاطئة. وكما قد تَخسر القضيةُ العادلة بِسبب ضُعف دفاع أحد المُحامين، كذلك قد تتحول الفكرة الجيدة إلى سخيفة بسبب ضُعف حُجج أحد المدافعين.
ما بُني على باطل ليس بالضرورة باطلا، فالرأي الصائب قد يُبنى على حُجة باطلة.

[143] Contraposition

5. مغالطة المغالطة العكسية Inverse fallacy fallacy

إذا كانت النتيجة صحيحة، فالحُجة التي تدعمها صحيحة.

◈ – فريد : مبرهنة فيثاغورس صحيحة لأن معظم الناس يعتقدون أنها صحيحة.

- سارة : مادامت مبرهنة فيثاغورس صحيحة، فحُجتك صحيحة.

المبرهنة ليست صحيحة لأن معظم الناس يعتقدون أنها كذلك، بل لأنه يوجد برهان يُثبتها. النتيجة صحيحة (مبرهنة فيثاغورس)، ولكن الحُجة التي تدعمها خاطئة (الاحتكام إلى عامة الناس).

صواب الرسالة لا يعني أن الدفاع عنها كان صائبا.

حيل ماكرة في الحوار



6. التماس الاستثناء Special pleading

ينطلق الشخص من قاعدة عامة، وحين يُواجه اعتراضًا حقيقيا على تلك القاعدة، يقوم بإضافة استثناءات خاصة لحماية موقفه وتجنّب سقوط القاعدة.

◈ يقول أحدهم: «جميع الناس أنانيون». فتُستغرب منه العبارة، فيسارع للتصحيح: «أقصد جميع الناس أنانيون... إذا ضاقت بهم الظروف... إلا مَن تربّى تربية حسنة».

◈ يصرّ أحدهم: «كلّ السياسيين فاسدون». فيَحرَج من اعتراض السامعين الذين يعرفون شرفاء في المجال، فيُضيف: «إلا القلّة النادرة... الذين لا يملكون نفوذًا واسعًا... أو الذين لم تُتح لهم بعد الفرصة للفساد!».

◈ أعرف أن الكذب شيء سيئ، ولا يجوز لأي شخص أن يكذب. ولكني معذور، فقد كذبتُ كي لا يفتضح أمري.

تحاول المغالطة حماية تعميم هشّ من الانهيار أمام النقد، فتهرب من بُرهان الحقيقة إلى غموض الشرط. في النهاية، تفقد القاعدة موضوعيتها لأن الاستثناءات تُضاف بلا معيار واضح، مما يجعل القاعدة غير قابلة للتكذيب.

7. تجاهل المطلوب Missing the point

بدلا من إثبات النتيجة المطلوبة، يتم إثبات نتيجة أخرى مختلفة.

◈ - ما الذي يجعل برنامجكم لإصلاح التعليم جيدا؟

- البرنامج الذي قدمناه لإصلاح التعليم ممتاز، لأن التعليم هو أساس كل تقدم وبدون تعليم سنظل دائما نتخبط في مستنقع التخلف!

لم يُفسر المتكلم لماذا برنامجه الإصلاحي ممتاز وفعال.

8. تحويل عبء الإثبات Shifting the burden of proof

تقديم ادعاء يحتاج إلى تبرير، ثم مطالبة الخصم بإثبات العكس.

◈ الرجل : كم عدد نُجوم السماء ؟

جحا : عددها مثل عدد شعر حماري هذا .. وإن لم تُصدقني فعُدَّها ثم عُدَّ شَعْر حماري.

◈ أنت تحدثت عني بالسوء، ومادمتَ تُنكر أثبت لي أنك لم تفعل.

◈ الأشباح موجودة، وكل من يقول العكس فليَثبت لي أنها غير موجودة.

إذا راودتك الشكوك في كلام أحدهم وطَلب منك إثبات العكس، لا تقع في الفخ! عبء الإثبات يقع على عاتقه، والبينة على من ادَّعى.

9. مغالطة رجل القش Strawman fallacy

إعطاء الانطباع بدحض حجة الخصم، في حين أن ما تم دحضه هو حجة مُحرَفة لها.

◈ - أظن أنه ينبغي السماح بالإجهاض في بعض الحالات كأن تكون حياة الأم معرضة للخطر.

- أراك تسعى لنشر الرذيلة والفاحشة في مجتمعنا! هل هذا ما تريده؟

قام الطرف الثاني بتحريف رأي الطرف الأول (السماح بالإجهاض في حالات الخطر) إلى موقف مختلف (نشر الرذيلة)، ليسهل مهاجمته بدل مناقشته.

◈ شخص يقترح: "يجب تحديث المناهج بإضافة مواد عن التفكير النقدي"، فيرد أحدهم" :أنت تريد حذف موادنا الأساسية وإلغاء هويتنا الثقافية!"

10. الرنجة الحمراء Red herring fallacy

طريقة مضللة تعتمد على تحويل الانتباه عن الموضوع الرئيسي إلى موضوع آخر.

◈ - أظن أن الحيوانات الأليفة يجب معاملتها بلطف ودون تعنيف.

- تتحدث عن حقوق الحيوانات؟ وماذا عن حقوق البشر؟ ماذا عن آلاف البؤساء الذين يموتون بسبب الجوع والحروب والأمراض؟

◈ سؤال الصحفي: "كيف ستواجهون أزمة البطالة؟"

السياسي: "أود أن أذكركم بأن بلادنا تمتلك حضارة عظيمة عمرها آلاف السنين".

11. مغالطة الإسكتلندي غير الحقيقي No true Scotsman (appeal to purity)

يواجه الشخص مثالا مضادا يَدحض ادعاءه. وبدلاً من الاعتراف بالخطأ، يقول إن المثال المضاد مُستبعد بحكم تعريف جديد أضيق.

◈ - لا يضع أي رجل إسكتلندي السكر على طبق العصيدة الخاص به.

- لكن عمي رجل إسكتلندي ويضع السكر على طبق العصيدة.
- الإسكتلندي الحقيقي لا يضع السكر على طبق العصيدة.

◈ - المؤمن المسيحي لا يكذب.

- ولكن جاري المسيحي ثبت عليه الكذب أكثر من مرة.
- هذا ليس مسيحيا حقيقيا، لأن المسيحي الحقيقي لا يكذب!

12. تحريك أعمدة المرمى Moving the Goalposts

تغيير الشروط أو المعايير بعد أن يتم تحقيقها،
لجعل الطرف الآخر يبدو وكأنه لم ينجح بعد،
حتى لو استوفى الشروط الأصلية المُتفق عليها.

◈ مدير يقول لموظفه :"إذا أنجزت المشروع قبل الموعد، ستحصل على ترقية." وبعد إنجاز المشروع مبكراً، يغيّر الشرط ويقول" :لكن كان عليك أيضاً أن تزيد المبيعات بنسبة مهمة جدا."

◈ مشجع يقول: "إذا فاز فريقك هذا الموسم، سأعترف أنه الأفضل ."بعد فوزه، يقول : "لكن عليه أن يفوز بالموسم القادم أيضاً."

احتكامات باطلة



13. الاحتكام إلى عامة الناس Appeal to polularity, Banwagon effect

الكثير من الناس يصدقون هذه الفكرة، وبالتالي فهي صحيحة.

◈ ملايين الناس يؤمنون بقراءة الأبراج. هل يُعقل أن يكونوا جميعا على خطأ؟

◈ ثمانية من بين عشرة أشخاص يستخدمون هذا النوع من معجون الأسنان. بالتأكيد هو الأفضل!

◈ يوجد أكثر من مليار بوذي وهندوسي على هذه الأرض. هؤلاء لا يمكن أن يكونوا جميعاً على خطأ!

قد تُخطئ الأغلبية ويكون الصواب حليف فرد واحد. لهذا لا تستهن بوجهات نظر الأفراد والأقليات.

"ليس كونهم كثرة في اعتقاد خاطئ هو ما سيجعلهم على صواب!"

كُولُوش

14. السلطة المجهولة Anonymous Authority

استخدام مصدر مجهول كدليل على الادعاء.

◈ أكد باحثون وعلماء أن غرغرة الماء الدافئ المالح بالحنجرة يمنع تسلل فيروس كورونا.

◈ قال خبراء إن نهاية العالم قريبة بسبب عدد هائل من النيازك الضخمة المتجهة نحو الأرض.

احذر من الأخبار والمعلومات التي تبدأ بعبارات من قبيل " قال خبراء"، "أثبت العلماء"، "أكد الباحثون".

15. الاحتكام إلى السلطة Appeal to authority

توجد سلطة تؤكد هذا الرأي، إذن فالرأي صائب

(المقصود بالسّلطة كل شخص تكون لآرائه مكانة خاصة في حياتنا)

◈ هذا المنتج التجميلي مفيد جدا للبشرة، هذا ما قالته الممثلة الشهيرة على قناة التلفزة.

غياب الخبرة : الممثلة ليست خبيرة في القضية المطروحة للنقاش.

◈ الإنجازات الحكومية خلال السنوات الأخيرة كانت متميزة وعظيمة. لستُ أنا من يقول هذا الكلام. إنه رئيس الحكومة في تصريح صحفي.

سلطة متحيِّزة (مصالح شخصية، اعتقادات مسبقة): الأمر شبيه بالاستشهاد بكلام بائع البطّيخ لإثبات جودة البطّيخ.

◈ إذا كان الرجل من برج الثور والمرأة من برج الحمل، فهذا مؤشر جيد على إمكانية توافقهما. هذا ما أكده خبير الفلك والأبراج في صفحته الأسبوعية.

خبرة زائفة: الخبرة في علم زائف (قراءة الأبراج) لا يجوز اعتبارها خبرة من الأساس.

لا تُفوِّض من يَنُوبون عنك في التفكير. مطلوب منك أن تتعامل مع أصحاب الفكر كمُفكِّر أيضا، وإلا تحوَّل الأمر إلى ثِقة عمياء وغسيل دماغ!

استثناء :الاحتكام إلى السلطة لا يكون دائما مُغالطا، خصوصا إذا تم الاحتكام إلى خبير مؤهل في موضوع النقاش. بالتأكيد، حتى الخبير مُعرض للخطأ، ولكن احتمال صوابه في موضوع تخصّصه هو أكبر من احتمال صواب أي شخص آخر غير مُتخصص في ذات الموضوع.

"إنّي أحبّ أفلاطون، لكن حُبّي للحقيقة أعظم!"

أرسطو (تلميذ أفلاطون)

16. الاحتكام إلى القديم Appeal to antiquity

كل فكرة قديمة هي فكرة صائبة.

◈ الطب الشعبي قديم من مئات السنين، وما كان ليستمر طوال هذه المدة لو لم يكن فعّالا.

◈ المرأة يجب أن تلزم بيتها لتعتني بزوجها وتربي أطفالها. هذه عادة آبائنا وأجدادنا!

احترام الأجداد لا يعني بالضرورة قبول أفكارهم وعاداتهم، وإلا صار الاحترام مرادفا للتبعية.

"الماضي هو منارة وليس ميناءا." مثل روسي

17. الاحتِكَام إلى القُوّة Might makes right

مَادَامَت القُوّة مَعَه، فالحقّ أيضاً مَعَه.

◈ لقد كان الإسكندر الأكبر صاحب قضية عادلة ومُحقًّا في حروبه وفُتوحاته، والدليل هو أنه قاد أكبر حملة عسكرية في زمانه ولم يُهزَم في أية مَعركة خاضَها على الإطلاق!

◈ الدول التي تمتلك القوة العسكرية والاقتصادية هي الأجدر بالقيادة وبِنَشر قِيَمها في العالم أجمع.

شَتَّان بين الانصِيَاع والاقتنَاع! بِإمكان الإنسان أن يُخفي قناعاته ويَكذب ويُنافق حفاظا على سلامته، ولكن ليس في مَقدُوره، حتّى لو أراد، أن يُغيّر قناعاته الداخلية استجابةً لِأوامر شخص آخر!

"القوة لا تَصنع الحقّ، وإن كانت تَصنع التاريخ."

جِيم فِيبِيخ

18. الاحتِكَام إلى الخَوف Appeal to fear

يُؤخَذ الخوف الناتج عن فكرة ما كدليل على صواب تلك الفكرة، دون تقديم دلائل تُثبت أن هذه المخاوف حقيقية.

◈ إذا لم تَقبل بوضع الثّوم في عُنقك قبل النوم، فإن "دراكُولَا" سيأتي إليك ليلاً لِيمتصّ دَمَك.

◈ إذا أخبرتَ تلميذاً مُتكاسلا بضرورة الاجتهاد لأنه مُهدّد بالرّسوب، فإن ما قلتَه لا يُعتبر مُغالطة مادام الكَسل يرفع بشكل حقيقي من احتمال الرّسوب.

لاختبار جِدّية المخَاوف، من المُهم طرح السّؤالين التّاليين:

- هل تُوجد دلائل تُثبت أن هذه المخاوف حقيقية؟
- إذا كانت المَخاوف لها مُبررات حقيقية، فهل احتمال وقُوعها قويّ بما يَكفي لأخذ الحَذَر اللازم، أم أنه احتمال ضعيف جدّا لِدرجة لا تبعثُ على القلق؟

19. الاحتكام إلى الشّفَقة Appeal to pity

محاولة إقناع الآخرين بفكرة أو موقف معيّن من خلال إثارة مشاعر الشفقة، بدلًا من تقديم أدلة لها علاقة منطقية بالموضوع.

◈ من فضلك أيها الشرطي لا تُسجِّل المُخالفة! أعرف أن السياقة في حالة سُكْر خطأ فادح، ولكنّي أبٌ مسكين ولديّ مصاريف عائلية كثيرة. فَكِّر في أطفالي!

◈ أرجوك شَغِّلني معك في الشركة ولا تُخيِّب مَسعاي. أمّي مريضة وعليّ ديون كثيرة.

20. الاحتكام إلى النتائج Appeal to consequences

استخدام النتائج المترتبة على اعتقاد ما، كانت مرغوبة أو مكروهة، كدليل على صدق أو بطلان هذا الاعتقاد.

◈ لقد عشنا لحظات جميلة مع بابا نويل. إن مجرد التفكير في عدم وجوده يزعج ويعطي شعورا لا يطاق. بالتأكيد بابا نويل شخص حقيقي.

◈ بعد أن صار بوذيا، تغيرت حياته بالكامل وحصل أخيرا على السلام الداخلي الذي افتقده من زمان. هذا يؤكد أن البوذية عقيدة صحيحة.

حقائق العالم لا تخضع لأهوائنا. ليس ما يروقنا صحيحا بالضرورة، ولا ما يزعجنا باطلا بالضرورة.

الاحتكام الى النتائج يكون مغالطة منطقية عندما يتعلق الأمر بحقائق ووقائع علمية لا علاقة لها برغباتنا، ولكنه يظل عادة مقبولا في الحكم على الاختيارات والممارسات التي تمس حياتنا اليومية العملية.

"إنَّنا على استعداد طبيعي للتَّصديق البسيط لكل ما نَأمله، بينما لا نُصدِّق إلا بِصعوبة ما نَخشاه." سبينوزا

21. الاحتكام إلى النخبوية Snob Appeal

محاولة إقناع الشخص بفكرة أو سلوك معيّن من خلال الإيحاء بأن ذلك سيجعله جزءًا من فئة نخبوية خاصة.

◈ اشترِ هذا الهاتف، فهو مخصّص للأشخاص المُمَيزين الذين يعرفون قيمة الفخامة الحقيقَية.

◈ لا تكن غبياً لدرجة تصديق الصور الزائفة للأرض الكروية. نحن أعضاء جماعة الأرض المسطحة لدينا من الذكاء ما يجعلنا لا ننخدع للمؤامرة العالمية التي تتولى وكالات الفضاء خدمتها عبر الترويج لصور مفبركة.

22. الاحتكام إلى الطبيعي Appeal to nature

اعتبار أن الشيء جيّد لمجرد أنه طبيعي.

◈ العلاج الطبيعي بالأعشاب هو الأفضل. لا تُسمِّم جسمك بالأدوية المليئة بالمواد الكيماوية!

بين الأعشاب الطبيعية سنجد العديد من الأعشاب السامة التي كان يستعملها القدماء كسُمّ طبيعي للتخلص من الأعداء. أمر آخر مهم للغاية. إذا لم يتم تحديد الجرعات بدقة، قد تتحول العشبة المفيدة إلى عشبة سامة.
الكيميائيون يُعبرون عن هذه الحقيقة في مقولتهم المشهورة: "كل شيء مَسموم ولا شيء مسموم. الأمر كله متعلق بالجرعة".

◈ لا داعي للقلق! السجائر التي تُنتجها شركتنا مصنوعة من نباتات طبيعية. إنها سجائر طبيعية مائة في المائة!

ليس هناك مبرر علمي أو منطقي لاعتبار الأشياء جيدة فقط لأنها تبدو لنا طبيعية. ومادامت أدمغتنا قد تعوّدت الرّبط بين ما هو طبيعي وما هو جيد، فإننا في حاجة إلى بذل جهد فكري لإعادة الفصل بين هذين المَفهومين.

تحديد النسل، تلقيح الأطفال، بَسترة الحليب، استخدام النظارة أو حتى قصّ شعر اللحية، كلها أمور كانت ذات يوم غير طبيعية وشاذّة إلى أن صارت مع التعوّد تُعتبر طبيعية جدا.

23. مغالطة المنشأ Genetic fallacy

الحكم على فكرة ما بكونها جيدة أو سيئة

اعتمادا على أصلها أو مصدرها أو دوافعها.

◈ حقوق الإنسان ثقافة دخيلة جاءتنا من الغرب ولا ينبغي أن نقبلها!

◈ عن أية ديمقراطية تتحدث؟ ألم تنشأ الديمقراطية في أثينا في نظام كان يعتبر أن العبيد والنساء هم مواطنون من الدرجة الثانية لا حقَّ لهم في المشاركة السياسية؟

النموذج الديمقراطي الأثيني الذي ظهر في اليونان في القرن السادس قبل الميلاد لا يُمثّل بأي حال من الأحوال المفهوم الحديث للديمقراطية كما نعرفها اليوم.

◈ علم الاحتمالات هو علم تافه! ألم ينشأ من الاشتغال على ألعاب القمار؟

💡 خُذ الحِكمة ولا يهُمَّك من أيِّ وِعاء خَرجت.

💡 أصل الفكرة شيء، والفكرة ذاتها شيء آخر. وكما تنشأ الفراشة الزاهية الألوان من دودة مقززة، وتنمو ورود ساحرة في مستنقعات آسنة، وتُستخرج أدوية ناجعة مِن سُمّ الثّعبان، يمكن لأفكار عظيمة أن تنشأ من أصول نراها حقيرة أو مَشبوهة.

"مثل الماس، كل شيء هو في البدء كربون ثم نور."

خوسي مارتي

مغالطات الدليل المفقود



24. الاحتكام إلى الجهل Appeal to ignorance

الشكل الأول: لا يوجد دليل على خطأ الفكرة، إذن فهي صحيحة.

الشكل الثاني: لا يوجد دليل على صحة الفكرة، إذن فهي خاطئة.

◈ مادام لا يوجد أي دليل ملموس على وجود مخلوقات فضائية، فهي بالتأكيد محض خيال لا أساس له من الصحة!

إذا صدقنا أن الكائنات الفضائية غير موجودة بسبب غياب أدلة على وجودها، فعلينا بنفس المنطق أن نصدق أنها موجودة بسبب غياب أدلة على عدم وجودها. الاحتكام إلى الجهل يَصل بنا إلى نتائج متناقضة، عبر إثبات الفكرة ونقيضها.

◈ إنهم يخبئون في المنطقة 51 بصحراء نيفادا كائنات فضائية. لا أحد استطاع تكذيب هذا الأمر بالأدلة القاطعة.

غياب الدليل ليس بدليل! وإذا كان لغياب الدليل أن يدل على شيء، فسيدل على شيء واحد هو الإقرار بالجهل. الحجج المنطقية السليمة تُبنى على حضور الأدلة وليس على غيابها.

"لا يمكنك أن تكون عالما إذا كنتَ مُنزعجا من الجهل،

لأننا نعيش على الحدود بين ما هو معروف وما هو مجهول في الكون."

الفلكي نيل ديجراس تايسون

25. الحجة من الصمت Argument from silence, argumentum ex silentio

استنتاج أن بعض الوقائع التاريخية خاطئة، ليس بسبب وجود بيانات في الوثائق، ولكن بسبب غياب تلك البيانات.

◈ الرحالة الإيطالي "ماركو بولو " لم يزُر الصين أبدا، والدليل أن كتاب رحلاته لم يذكر شيئا بخصوص سور الصين العظيم.

26. عدم القابلية للتكذيب Unfalsifiability

التسليم بصحة ادعاء غير قابل للتكذيب

(ادعاء لا يقبل من حيث المبدأ إمكانية إجراء تجربة تُظهر خطأه).

◈ صَدِّق أو لا تُصدق. يوجد حصان أحادي القرن وغير مرئي يرافقك أينما ذهبت، من يوم ولادتك وحتى هذه اللحظة.

هذه الفرضية غير قابلة للاختبار وبالتالي غير قابلة للتكذيب.

◈ "هذا العالم هو أفضل العوالم الممكنة، وكل الأشياء تسير نحو الأفضل."

ادعاء جاء على لسان "بانجلوس" في رواية فولتير الفلسفية "كانديد". ورغم أن "بانجلوس" عانى الويلات كما تحكي أحداث الرواية، إلا أنه كان دائما يجد مبررا لأسباب وغايات حدوثها، مِمَّا يجعل اعتقاده المتفائل جدا غير قابل للتكذيب.

اعتبر الفيلسوف "كارل بُوبر "أن قابلية التكذيب هي شرط أساسي ينبغي توفُّره في كل فرضية علمية، وبالتالي فكل فرضية يستحيل مبدئيا تكذيبها هي غير علمية.

أُفضّل أن تَكون لديّ أسئلة لا تَقبل أجوبة، على أجوبة لا تَقبل المُساءلة. (ريتشارد فينمَان)

27. السلطة المجهولة Anonymous authority

تأييد الفكرة اعتمادا على مصدر أو خبير مجهول.

◈ أكد الباحثون والخبراء أن الغرغرة بالماء الدافئ المالح تقي الرئة من الإصابة بفيروس كورونا.

◈ أكد عالم ألماني أن نيزكا عملاقا سيَضرب الأرض قريبا مِما سيُؤدي إلى زوال مُدُن بأكملها من الخريطة!

◈ من المعلوم أن شكل الخضر والفواكه له علاقة بصحة الإنسان. فالجوز مفيد للدماغ لأنه يشبهه شكلا، كما أن التين مفيد للشفتين لأنه يشبهما.

مغالطات التعميم والاستثناء



28. التعميم المتسرع Hasty generalization

ما ينطبق على بعض الحالات الخاصة ينطبق على كل الحالات.

◈ أقرب أصدقائي خانوا ثقتي فيهم. لن أثق في أي شخص بعد اليوم!

◈ تعرفت على بعض الأشخاص الألمانيين، وكان تعاملهم معي جافا جدا. الشعب الألماني غير مهذب وعنصري إلى أبعد الحدود.

التعميم المتسرع مصدر أساسي للأحكام العنصرية ضد عرق أو جنس أوشعب أو قبيلة أو طبقة اجتماعية أو طائفة دينية. إنه تنميط لجماعة من البشر المختلفين على أساس أنهم كلهم متشابهون.

التعميم المقبول علميا يَعتمد على دراسات إحصائية تتناول عيِّنة كبيرة ومتنوعة. انتبه جيدا قبل استخدام كلمات تفيد التعميم الشامل من قبيل "كل"، "دائما"، "أبدا"، واستبدلها ما أمكن بكلمات أقل شمولية: "جل"، "بعض"، "غالبا"، "أحيانا".

29. مغالطة العينة المنحازة Biased Sample Fallacy

استخلاص نتيجة عامة عن مجموعة كبيرة بالاعتماد على عينة منحازة

(عينة لا تعكس التنوّع الحقيقي الذي نريد دراسته، بسبب خلل في طريقة الاختيار)

◈ أغلب الناس يرفضون التطعيم، والدليل هو أن جُلّ من أعرفهم يرفضونه.

الأشخاص الذين تعرفهم قد يكونون من بيئة أو شريحة اجتماعية لها مواقف خاصة، ولا يعكسون بالضرورة الرأي العام.

الفرق بين مغالطة العينة المنحازة ومغالطة التعميم المتسرع هو أن الأولى تعتمد على عينة غير ممثّلة لكل المجموعة، حتى لو كان عدد العناصر في العينة كبيراً، بينما التعميم المتسرع يعتمد على عدد قليل جداً من العناصر.

30. الاستدلال بالمتاح The Anecdotal Fallacy

محاولة إثبات قضية عامة بناء على تجربة شخصية أو مثال فردي واحد.

◈ منذ أن سمعتُ قصة ذلك المتسول الذي افتضح أمره بعد أن اتضح أنه كان مليونيرا، أدركت حقيقة المتسولين وتوقفت عن مساعدتهم.

◈ جدّي يُدخن 20 سيجارة في اليوم، ومع ذلك فقد جاوز سِنُّهُ التسعين. لا تُصدّق هذا الهُراء عن أضرار التدخين!

هذه المغالطة تُقنع بالعاطفة وجاذبية القصة. مغالطة الخبرة الشخصية هي حالة خاصة من التعميم المتسرّع، الفرق هو أن الأولى ترتكز على قصة فردية، بينما الثانية يمكن أن تستند إلى أية مجموعة صغيرة من البيانات.

31. الملاحظة الانتقائية Cherry Picking, selective observation

عرض جزء من البيانات بشكل انتقائي لدعم موقف معين،
مع تجاهل أو إخفاء البيانات المخالفة.

◈ توجد دراسة تقول إن القهوة تحتوي على مضادات أكسدة مفيدة، إذن القهوة مفيدة للصحة، مع تجاهُل الدراسات التي تشير إلى أضرار الإفراط في شرب القهوة.

◈ جامعتنا لها مستوى عالمي ممتاز، فقد حصل ثلاثة طلاب على جوائز عالمية، مع تجاهُل أن أغلب طلاب الجامعة يُعانون من تدني الأداء الأكاديمي.

عندما نذكر الإيجابيات دون السلبيات، أو نُظهر بعض الحقائق ونُخفي بعضها الآخر رغم أهميتها، فإننا نُقدم أنصاف حقائق. نصف الحقيقة قد يتحول إلى كذبة كبرى.

32. مغالطة قنّاص تكساس Texas sharpshooter fallacy

انتقاء بعض البيانات التي تخدم وجهة نظر معينة،

أو تجاهل الاختلافات في البيانات، مع التركيز على التشابهات.

◈ تحدث"نوستراداموس" عن مرضٌ عظيم سيجتاح الأرض، فيفرّ الناس من المدن.

كيف استطاع أن يتنبأ بوباء كورونا قبل وقوعه بخمس قرون؟

هذه النبوءة ألصقت بالطاعون قديمًا، ثم بالإنفلونزا الإسبانية، ثم بكوفيد-19. لا تستغرب كثيرا، فقد قدَّم "نوستراداموس" أكثر من ألف نبوءة، معظمها غامض جدا ويحتمل تأويلات لا حصر لها . ونظرًا لكثرة التنبؤات، فمن الوارد جدا تشابه واحدة منها على الأقل مع حدث حقيقي.

◈ كل الناجحين الذين أعرفهم يستيقظون مبكرًا، إذن الاستيقاظ المبكر هو سرّ النجاح.

تم التركيز على تشابه واحد (الاستيقاظ المبكر) وتجاهل اختلافات جوهرية: التعليم، الفرص، الحظ، الظروف الاجتماعية. بل تم تجاهل ناجحين لا يستيقظون مبكرًا.

تسمية المغالطة جاءت من نكتة عن رجل من تكساس كان يُطلق أعيرة نارية بشكل عشوائي على جانب حظيرته، ثم يرسم دائرة على المنطقة التي تضُم أكبر عدد من الطّلقات، ويَدَّعي بذلك أنه قنّاص محترف. مغالطة قنّاص تكساس تقول لك: وسط فوضى البيانات، لا تبحث عن الحقيقة، ابحث فقط عن تلك البيانات التي تدعم رأيك، ثم ارسم دائرة حولها وابتسم بثقة!

33. إغفال المُقيّدات Ignoring qualifications - Fallacy of accident

المطالبة بتطبيق قاعدة على استثناء مشروع

(إما أن تُطبق القاعدة على كل الحالات، أو لا تُطبق أبدا!)

◈ الحرية حق للجميع، وبالتالي يجب أن تكون لدى المراهقين حرية القيادة.

الحريات ليست مطلقة، بل تُحددها القوانين.

◈ إذا سمحنا لبعض المرضى بتناول أحد المخدرات كعلاج، فيجب أن نسمح لجميع الناس بتناولها.

◈ لِنَتفق يا عزيزتي أن الشخص المسؤول مُلزم بالوفاء بوعوده. في يوم زواجك، وعدتِ زوجكِ بالبقاء معه مدى الحياة. لذا، عليك البقاء معه الآن، حتى لو صار مُدمنا على المخدرات وعنيفا معك.

احذر من الإطلاق حيث ينبغي القيد !

34. افتراض قابلية التوسع Assumed Scalability Fallacy

الاعتقاد بأن الحل أو النظام أو العملية التي تعمل بشكل جيد على نطاق صغير، ستعمل بنفس الكفاءة أو أفضل عند توسيع نطاقها، دون الأخذ بعين الاعتبار التعقيدات أو التحديات الجديدة التي تظهر عند التوسع.

◈ أعرف أن مجموع زوايا مثلث يساوي 180 درجة، فكيف تقول إن هذه القاعدة غير صالحة على سطح كرة؟

مجموع زوايا مثلث يساوي 180 درجة على سطح مستو. أما إذا كان السطح غير مستو، فهذه القاعدة لا تعود صالحة.

◈ إ ذا كان الحليب هو الغذاء الأساسي للأطفال الرّضع، فلماذا لا يكون غذاءَ أساسيا لكل الناس من كل الأعمار؟

◈ قبل ابتكار النقود، كان أجدادنا يتاجرون من خلال نظام مبادلة السلع. كان نظاما ناجحا. لماذا لا نعود إليه في أيامنا هذه؟

◈ البرنامج يعمل جيدًا على جهازي المحمول، يمكنه أن يعمل بنفس الكفاءة مع مئات المستخدمين في الشركة.

مغالطات الشخصنة



35. الشخصنة Ad hominem

إذا هاجمتَ شخص خصمك (شكله، شخصيته، ظروفه، دوافعه، ...)
فقد طعنتَ في رأيه.

◈ كيف تريدني أن أوافق رجلا لا يعرف حتى كيف يعتني بملابسه؟!

◈ هذا رأي لا يستحق النقاش، فصاحبه جاهل لا يفقه شيئا!

💡 الفكرة لا تُدحَض بسيرة صاحبها، ولا تُثبَت بسمعته.

من خلال الشخصنة، تستطيع أن تطعن في كل الأفكار والآراء التي جاء بها البشر عبر التاريخ! كيف؟ يكفي أن تَنْبَش في الحياة الخاصة لأصحاب تلك الآراء وستعثُر بالتأكيد على بعض العيوب. في النهاية، لا أحد يَخلو من العيوب.. أليس كذلك؟

كيف تردّ بطريقة نقدية صحيحة؟

بدل الشخصنة، يمكن أن تقول مثلا: "الحُجّة ضعيفة لأن"، "الدليل غير كافٍ لأن"، ...

36. مغالطة الهُجوم على الشخص Ad hominem abusive

يُؤْخَذ عيبٌ في الشخص كَدليل على خطأ رأيه،
رغم انعدام أية صلة مُسبقة بين الرأي والعيب المذكور.

◈ كيف نقبل رأي شخص جاهل يرتكب أخطاءً في النحو ولا يُجِيد حتى أبسط قواعد اللغة؟

أخطاء اللغة والنحو لا علاقة لها بصواب الرأي أو خطئه. تستطيع أن تُعبّر عن رأي سخيف بعبارات سليمة بليغة وبأبيات شعرية موزُونة ومُقَفَّاة، كما تستطيع أن تُعبّر عن رأي سليم بعبارات ركيكة ومُفعمة بالأخطاء اللغوية!

37. مغالطة "أنتَ أيضا" Tu quoque

يَعتبر المُغَالِط أن عدم تطبيق خَصمه لِما يقوله دليل على خطأ قوله.

- أنتَ تدخن، لهذا فكلامك عن مخاطر التدخين لا قيمة له!
- أنت آخر شخص يُمكنه أن ينصحني بإكمال الدراسة، فأنت نفسك لم تكمل دراستك.
- حقوق الإنسان كلام فارغ، فحتى الدول التي تُروّج لها لم تلتزم بها.

يجب التمييز بين التنظير والتطبيق، فالتطبيق السيِّء لا يعني أن التنظير هو أيضا سيئ.

38. مغالطة "الظُّروف الشَّخصية" Ad hominem circumstantial

الظروف الشخصية أو المصالح الخاصة لصاحب منتوج، فكري أو مادي، هي دليل على فساد ذلك المنتوج.

- ذلك البرلماني يدعو إلى خفض فوائد القروض على الفلاحين لأنه يَملك مزرعة كبيرة. إنها فكرة سيئة، فهؤلاء السياسيون لا يخدمون إلا مصالحهم!

قد يكون هذا القرار جيدا ومفيدا للفلاحين البسطاء، وبالتالي لن يكون من الحكمة ضرب مصلحة فئة عريضة من الناس تجنبا لشبهة خدمة مصلحة فرد واحد.

39. التَّجريم بالتَّبَعِية (رفض التشبُّه) Guilt by association

رفض رأي أو سلوك مُعين لمجرد أن أشخاصا تَبغضُهم يَقبلونه

◈ أنت نباتي. هل تعرف أن هتلر أيضا كان نباتيا؟ هل تريد أن تكون مثله؟

تستمدُّ المغالطة قوّتها من الانفعال العاطفي والمَيل الفطري لدى الإنسان لرفض كل أشكال الاقتران بمن لا يُحبّهم. لهذا فهي شائعة في الخطابات السياسية والدينية والوطنية والعرقية، ويسهل على الجماهير ابتلاعها والتحمّس لها. المشكلة هي أنك لا يُمكن أن تكون مختلفا في كل الأمور مع مَن لا تُحبّهم، سَتجِد دائما نُقط اتفاق كثيرة.

تذكَّر أن الحق لا يَصير باطلا إن قَالَهُ أَلَدُّ أعدائك، والباطل لا يَصير حقّا إن قالَهُ أَعَزُّ أحبابك.

40. البَلفَرِية Bulverism

اعتبار أن الطعن في دوافع صاحب الفكرة (اجتماعية، نفسية، اقتصادية، ...) هو طعن في الفكرة ذاتها.

◈ الاقتصاد الحر مبدأ لاإنساني، وأنت تؤيده لأنك غني ولا تهتم بالفقراء.

لم تتم مناقشة فكرة الاقتصاد الحر، بل فقط الطعن في الدافع المحتمل لقائلها.

خطورة المغالطة أنها تجعل من السهل العثور على دوافع مشبوهة لكل القضايا ولو كانت عادلة. كل ما يلزم هو النّبش بعض الشيء في الظروف الشخصية للمدافعين عن تلك القضايا.

تذكر جيدا : يوجد فرق بين الأسباب التي تدفع الناس لاعتقاد فكرة ما، وبين الأسباب التي تجعل تلك الفكرة صحيحة أو خاطئة.

مغالطات عدم الارتباط



41. الاستنتاج البعيد Non sequitur

عندما تكون النتيجة غير قابلة للاستنتاج من المقدمات.

◈ الأدوية التي تباع في الصيدلية فيها مواد كيماوية تؤدي الى أضرار جانبية. وإذن فالعلاج الطبيعي هو الحل.

كَون الأدوية فيها بعض الضرر لا يعني أن العلاج الطبيعي حل أفضل.

◈ إذا كنتَ تُحبني، فيتوجب عليك أن تفعل كل ما أطلبه منك.

◈ هو من برج الثور وهي من برج العذراء. بالتأكيد سيَشكلان زوجا رائعا.

42. خطآن يصنعان صوابا Two wrongs make a right

يوجد من يرتكب هذا الخطأ، وإذن لا مشكلة إن ارتكبناه نحن أيضا.

◈ لماذا كل هذه الضوضاء بشأن الفساد في بلادنا، أليس الفساد موجودا في أرقى دول العالم؟

◈ - يجب ألا تختلس المال من صاحب العمل، هذا أمر مخالف للقانون.

- أين المشكل؟ صاحب العمل يختلس المال ولا يدفع ضرائبه، هذا مخالف أيضاً للقانون!

ما يفعله الناس ليس محددا لما ينبغي فعله. تبرير قبول الظلم والغش والكذب والسرقة، بسبب أن هناك من الناس من يقومون بذلك، ليس فقط مغالطة منطقية، بل هو ضربة قوية للضمير الإنساني وترخيص لكل الشرور!

43. المنحدر الزلق Slippery slope

لرفض فكرة ما، يتم الادعاء بأن قبول تطبيقها
سيؤدي إلى سلسلة من العواقب غير المبررة تنتهي بكارثة.

◈ إذا بدأتَ في تَعلُّم الموسيقى، لن تجد وقتا لمراجعة دروسك، فتَسُوء نتائجك وتجد نفسك راسبا في نهاية السنة.

◈ إذا لم تحصل على شهادة جامعية، ستصبح عاطلا عن العمل، سيَدَمّر مستقبلك وتنتهي حياتك مشردا في الشارع!

◈ إذا سمحنا بحرية الاعتقاد، ستكثُر المِلل والمذاهب، وتَعُمّ الفوضى، لتقوم بعدها حرب طائفية تنتهي بنا في مستنقع من الدماء!

تتغذّى المغالطة من مشاعر الخوف لدى الناس، لتعمل على إقناعهم بأن أمرا بسيطا سينتهي بهم حتماً في أحضان الجحيم. لو كانت كل الانتقالات من حدث إلى آخر يقينية، كما هو الحال مع قطع الدومينو، لما كانت الحجة مغالطة من الأصل. هي مغالطة لأنها تصرف الانتباه عن احتمالات أخرى وتُوجّه المستمع عبر مُنحَدَر زَلِق ينتهي بنتيجة كارثية.

الكثير من الخطابات السياسية والمواعظ الأخلاقية وحتى النصائح الطبية تسقط في هذا النوع من الحُجج المُفعمَة بالتّعسّف والمبالغة.

44. المظهر فوق الجوهر Style over substance

إعطاء أهمية بالغة للمظهر والأسلوب الذي تم به عرض الحُجة،
على حساب الجوهر والمضمون.

◈ لقد خسر صاحبنا الجدال من دون أدنى شك. انظر إليه كيف يصرخ ويتصبّب عرقا، بينما خصمه بلباسه الأنيق ظل محافظا على هدوئه وفصاحة لسانه.

المتكلم الجذاب الأنيق قد ينطق أمورا مُجانبة للصواب، والكلام البليغ المُقَفَّى قد يُخفي أفكارا سخيفة[144].

◈ لقد قدم الطالب عرضا جميلا غنياً بالصور والمؤثرات البصرية. إنه يستحق تقديرا عاليا من اللجنة العلمية.

💡 المظاهر خدَّاعة. احذر مِن أن تَحكُم على الكتاب من غلافه.

45. الانتقال من الكائن إلى الواجب Is/Ought Fallacy

استنتاج ما ينبغي أن يكون (واجب) من مجرد ما هو كائن (واقع).

أي الانتقال من وصف الواقع إلى إصدار حكم معياري أو أخلاقي، دون تقديم مبررات إضافية.

◈ الفقر موجود منذ القدم، إذن لا مشكلة في استمراره.

◈ في الطبيعة، الحيوانات الأقوى تهيمن على الأضعف، إذن يجب أن نقبل في المجتمع سيطرة الأقوياء على الضعفاء.

💡 هذه المغالطة نبه إليها الفيلسوف "دفيد هيوم"، الذي ميّز بين العبارات الوصفية (is) والعبارات المعيارية (ought).

ليس كَون الشيء وضعا قائما مُبررا لاعتبار أنه يجب أن يكون ويظلّ كذلك.

---

144 تأثير القافية Rhyme-as-reason effect هو تحيز معرفي يقوم على النظر إلى الأقوال أو الأمثال على أنها أكثر صدقًا بسبب تناغم قافيتها.

46. المغالطة الأخلاقية Moralistic Fallacy

ينبغي أن يكون هكذا، إذن هو بالفعل كذلك.

بعبارة أخرى، ما يجب أن يكون صحيحًا من الناحية الأخلاقية أو المثالية، هو بالضرورة صحيح من الناحية الواقعية أو العلمية.

◈ ا لعنف أمر سيئ وغير أخلاقي، وبالتالي لا يمكن أن يكون جزءًا من الطبيعة البشرية.

◈ يجب أن يعيش جميع الناس في سلام، لهذا عاجلا أو آجلا ستتوقف كل الحروب بين البشر.

المغالطة الأخلاقية هي عكس مغالطة "الانتقال من الكائن إلى الواجب "، إذ بدل الانتقال من الواقع إلى المعيار، يتم الانتقال من المعيار (أخلاق أو رغبة) إلى افتراض أن الواقع لابد أن يتطابق مع ذلك المعيار.

بين الواقع والمثاليات القائمة في أذهاننا، توجد فجوة كبرى.

47. التفكير بالأماني Wishful thinking

أتمنى أن يكون هذا الأمر صحيحا، إذن فهو بالتأكيد صحيح.

◈ كلُّ مذنب لابدّ أن ينال الجزاء الذي يستحقه. لهذا لا داعي لإخبار الشرطة، فعاجلاً أو آجلاً سَيقع المجرم بين يدي العدالة!

في الواقع، العديد من المجرمين يتجوّلون بحرية خارج السجون لعدم وجود أدلة تُدينهم، بينما بعض الأبرياء مُلقى بِهم في السجن بِسبب ذنب لم يَقترفوه.

◈ أتمنى أن أفوز باليانصيب.. أشعر أن هذا سيحصل.. بالتأكيد سوف يحصل!

◈ إذا رغبتَ في هدف ما، قَدِّمْ طلبك للكون بثقة وتصرّف كما لو أنك حصلت على ما تريد. حينها، سيعمل قانون الجذب على تحقيق أمانيك.

◈ لا يمكن أن تكون الأرض هي التي تدور حول الشمس، وإلا لكانت الأرض التي يسكنها الإنسان جُرما صغيرا تافها في هذا الكون اللامتناهي!

أن نَفهم العالم كما هو، وليس كما نتمنّاه أن يكون،

هذا هو بداية الطريق نحو الحكمة.

بِرتراند رَسل

48. وفرة الزّيف (لا يمكن أن تكون كلها زائفة) Countless Counterfeits

يُنظر إلى وجود عدد لا يحصى من المعطيات، وإن كان الكثير منها زائفا، كدليل على أن بعضها لابد أن يكون صحيحا.

◈ أعلم أن بعض القصص عن اختطاف بشر من قِبل كائنات فضائية هي زائفة، ولكن الشهادات حول هذا الموضوع لا تُعد ولا تُحصى. بالتأكيد، لا يمكن أن تكون كلها زائفة.

يمكن تقديم مثل هذا الحجة لإثبات أي شيء تقريبا تكون الشهادات حوله كثيرة مهما كانت غرابته (التنبؤ بالمستقبل، رؤية عرائس البحر، تذكُّر حياة سابقة، السفر عبر الزمن، التزاوج بين البشر والأشباح، ...).

أغلب الخرافات الرائجة بين الناس ستجدها مدعومة بعدد لا يُحصى من القصص والشهادات. الأخبار الزائفة تبقى زائفة، وإن كانت بالآلاف.

49. الخلط بين الصدق والصواب

مادام الشخص صادقا (يقول بما يعتقده صوابا)، فهو إذن على صواب.

◈ مريض بالبارانويا : إن أقربائي وأصدقائي جميعهم يتآمرون ضدي. أقولها بصدق، هذه هي الحقيقة!

◈ صَدِّقني! كنتُ نائما عندما أحسستُ بروحي تُفارق جسدي وتُحلق بعيدا في السماء!

الصّدق والصواب أمران مختلفان تماما. الصدق يعني تَطابُق ما تقوله مع ما تعتقده، لهذا فالقول الصادق هو حقيقة نسبية مرتبطة بما تعتقده أنت صوابا. أما الصواب فهو تَطابُق ما تقوله مع الحقيقة، لهذا فالصواب هو حقيقة موضوعية لا تتعلق بك أو بِحُسن نواياك.

50. الاحتكام إلى الإمكانية (Appeal to Possibility)

مادام الأمر ممكنا، فهو إذن أكيد.

◈ من الممكن أن يهجموا علينا. يجب أن نهجم عليهم، فبالتأكيد سيهاجموننا إن نحن تأخرنا في الهجوم.

◈ قد يكون جاري هو السارق لأنه كان قريباً من مكان الحادث، بالتأكيد هو المذنب.

51. مغالطة المقامر (Gambler's Fallacy)

بِما أن حدثا مُنتظرا لم يَحصل حتى الآن، فإن احتمال حدوثه سيكون أكبر خلال القريب العاجل.

◈ مثال حقيقي: في سنة 1913 بكازينو "مونتي كارلو" بموناكو، سقطت كرة الروليت على اللون الأسود 26 مرة متتالية. فبدأ الحاضرون يراهنون بشدة على اللون الأحمر معتقدين أنه "حان دوره." إلا أن الكرة استمرت في السقوط على اللون الأسود، وخسر الناس الملايين.

◈ منذ خمس سنين وأنا أشتري أوراق اليانصيب من دون ان أربح. حان الوقت لكي أربح الآن.

◈ الأسهم في البورصة تنخفض منذ أيام، بالتأكيد سترتفع الأسبوع القادم.

◈ تلك السيدة لها خمس بنات. لقد حان الوقت لِتَلِد هذه المرة طفلا ذكرا.

لا يوجد أي مبرر منطقي للاعتقاد بأن "الحظ سيتوازن".

52. مغالطة المؤرخ Historian's fallacy

الحُكم على قرار في ضوء معلومات جديدة
لم تكُن متوفرة في الوقت الذي أُخذ فيه القرار.

◈ أنت المسؤول. لو سمعت كلامي وسلكت طريقك مشيا على الأقدام، بدلًا من ركوب السيارة، ما كانت سيارتك لِتَتَعرض للحادثة.

◈ مدرسة الفنون الجميلة في فيينا هي المسؤولة عن وقوع الحرب العالمية الثانية وسقوط ملايين الضحايا، لأنها لو قبلت طلب هتلر بالدراسة فيها، ما وقع الذي وقع!

من العدل ألا تحكم على قرار في الماضي بناءً على نتائجه اللاحقة، بل بناءً على المعلومات التي كانت متوفرة في الوقت الذي أُخذ فيه القرار.

53. حُجة الكسول The Lazy Argument

ما دامت نتائج الفعل غير مضمونة (أو مُحددة مُسبقا بحتمية قدرية)، فلا داعي للقيام بأي جهد.

◈ لماذا سأتناول الدواء؟ لا توجد أية ضمانة بأني سأشفى!

الدواء قد لا يضمن الشفاء، لكنه يزيد احتمال التحسن.

◈ لماذا أراجع الدروس وأستعد للامتحان؟ مهما فعلتُ، ما سيحدث لابد أن يحدث. وإذا كان لابد أن أرسب، سأرسب.

من نافلة القول التذكير بأن عدم الاستعداد للامتحان يزيد من احتمال الرسوب، بينما الاستعداد الجيد له يزيد من فرص النجاح.

◈ لا داعي لإرهاق نفسك في اختيار شريك حياتك، في النهاية قد تختار الشخص غير المناسب.

غياب اليقين ليس مبررا للاعتقاد بغياب الجدوى .معظم الأمور التي تقوم بها ليست مضمونة النتائج، ومع ذلك فسعيك المتواصل يزيد بالتأكيد من احتمال وصولك للنتائج المرجوة. تذكر أنه لا يوجد إنجاز يخلو من بعض المخاطرة، وأن غياب الضمان لا يعني غياب الأمل.

يا راجي الأمر لم يطلب له سببا كيف الرماية من قوس بلا وتر

(معروف الرصافي)

مغالطات الافتراضات غير المبررة



54. المصادرة على المطلوب (Begging the Question - Petitio Principii)

أن تفترض من البداية صحة النتيجة المطلوب إثباتها.

- أنا أفكر إذن أنا موجود.

  تم *افتراض الوجود من البداية، وإلا فماذا يكون هذا "الأنا" الذي يفكر؟*

- الأشباح موجودة بدليل أنه توجد بيوت مسكونة بالأشباح.

- الكلام المذكور في هذا الكتاب صحيح. لأنه مكتوب فيه أن كل كلامه صحيح.

- الرئيس قائد جيد لأنه يُحسن القيادة.

- هو صادق لأنه لا يكذب.

أحيانا تكون النتيجة موجودة في المقدمات بشكل واضح، وأحيانا تكون مُتخفِّية. في كلتا الحالتين، نحن أمام تفكير دائري وتحصيل حاصل، أيْ عبارة تأخذ شكل "أ يؤدي إلى أ". ورغم أن هذه العبارة هي منطقيا صحيحة، إلا أنها جوفاء لا تُثبت شيئا، والمغالطة هي في الاعتقاد بأنها تُثبت شيئا ما.

55. مغالطة التركيب Composition

ما يَصدُق على عناصر فئة ما يَصدق على الفئة باعتبارها وحدةً واحدة.

- ما دامت الكلمات جميلة واللحن جميلا، فلا بد أن تكون الأغنية جميلة.

  ليس بالضرورة، فربما لا يتناسب اللحن مع الكلمات.

- أ عرف أنك تُحب الموز كما تُحب الطماطم. لابد إذن أن تُحب الموز بالطماطم.

56. مغالطة التقسيم Division

ما يَصدُق على الفئة يَصدق على كل عنصر من عناصرها.

◈ ما دام الدماغ يُفكر، فكل خلية وكل ذرة فيه تُفكر أيضا.

◈ ابني مستواه التعليمي ممتاز. هذا أكيد مادام يدرس في فصل مستواه التعليمي ممتاز.

◈ معروف أن النساء يَعِشْنَ عموما أكثر من الرجال. إذن يا عزيزتي، ستعيشين بالتأكيد أكثر مني.

57. الثنائية الزائفة False dilemma, black and white fallacy

تقديم خيارين فقط بينما في الحقيقة توجد خيارات أخرى.

◈ هل أنت معي أو ضدي؟

إلغاء إمكانية الحياد: لستُ معك ولستُ ضدك.

◈ هل فهمتم الدرس كله أم لم تفهموا شيئا؟

احتمالات أخرى ممكنة: البعض فهموا والبعض لا، هناك من فهم بعض الأمور ولكن ليس كلها.

◈ إما أن تفرض سلطتك على زوجتك، أو ستتسلَّط هي عليك!

بين الابيض والأسود يوجد طيف واسع من الألوان.

58. حجة الوسطية Argument to moderation

اعتبار أن موقفا ما هو صحيح أو جيد لمجرد أنه موقف وسط بين رأيين متعارضين.

◈ بعض الشعوب ترفع السن الأدنى للزواج إلى 18 سنة، وبعضها تخفضه إلى 6 سنوات. أظن أن الحل الوسط 12 سنة هو الأفضل.

◈ دعك من أحزاب اليسار ومن أحزاب اليمين. حزبنا هو حزب الوسطية والاعتدال.

◈ يجب ألا نكون متشددين في حظر جميع الأسلحة على الناس ومنعهم من الدفاع عن أنفسهم، ولا أن نذهب إلى الحد المتطرف الآخر الذي يسمح للجميع باستخدام أسلحة خطيرة كالمدافع والرشاشات. الاعتدال مطلوب، نسمح لهم فقط باستعمال المسدسات.

قد يكون الموقف المعتدل جيدا لأسباب أخرى، ولكنه ليس جيدا لمجرد أنه معتدل.

من خلال حجة الوسطية، يمكنك الدفاع عن أي موقف تريده. يكفي أن تختار الأطراف المناسبة.

59. الحتمية الارتجاعية Retrospective Determinism

افتراض أن ما حدث كان لا بد أن يحدث،
مع تجاهل أن الأمور كان يمكن أن تسير بطرق مختلفة.

◈ انهيار الشركة كان حتمياً، فقد كانت خسائرها كبيرة.

هذا يغفل إمكانية أن استراتيجيات أو قرارات أكثر حكمة ربما كانت ستنقذها.

◈ بعد مباراة كرة قدم: "كان واضحاً أن فريقي المفضل سيفوز، كان هذا واضحا من الشوط الأول حين سجّل هدفه الأول."

60. مغالطة الاتصال Continuum fallacy

الاعتقاد بأنّه لا يمكن التمييز بين شيئين لأن الفارق بينهما غير واضح أو لأنّ الانتقال بينهما يتمّ على نحوٍ تدريجي.

◈ لا يوجد يوم معين يتحوّل فيه الطفل إلى بالغ، لذلك لا يمكن التمييز بين الطفل والبالغ.

رغم كون التحوّل تدريجيًا، إلا أن المجتمعات اتفقت على حدود قانونية (مثل سن 18)، وذلك لأغراض عملية.

◈ الفرق بين 99.9% و100% لا يُذكر، فكيف يرسب الطالب الأول وينجح الثاني؟

لا بدّ من وضع حدود فاصلة، حتى لو كانت دقيقة، لضمان الوضوح في معايير النجاح.

◈ إذا نُزِعت شعرة واحدة من رأس شخص، فلن يصبح أصلعًا. وإذا نُزِعت شعرة أخرى، سيظل غير أصلع، وهكذا. إذن، لا يمكن أبدًا أن يصبح أصلعًا مهما نزعت من شعره.

💡 في غرفة مُضاءة بشمعة واحدة، نجد أن بعض الأماكن مُضاءة بشكل واضح، وأخرى غارقة في الظلام، حتى وإن لم نتمكن من تحديد الحد الفاصل بدقة بين النور والظلمة.

61. مغالطة البرُوكرستية Procrusteanism Fallacy

فرض قالب جاهز على جميع الحالات، حتى لو كان ذلك يُشوِّه واقع الأشياء.

بدلًا من أن تتكيّف الفكرة مع الواقع،
يتم تشويه الواقع قسرًا ليلائم الفكرة المسبقة.

◈ التأويل المُتعسف لنص ديني ولَيّ عنقه بحيث يتلاءم مع فكرة مُسبقة لدى من يُفسره.

◈ بدلًا من الاعتراف بتنوّع القدرات وأنماط التعلم، اعتبار أنّ جميع الطلاب يجب أن يتعلموا بالطريقة نفسها، ومن لا يتوافق مع هذا الإيقاع يُرمى في سلّة الفاشلين.

◈ اعتبار أنّ كل الظواهر يجب أن تُفسّر ضمن إطار نظرية واحدة، حتى لو اضطُر الباحث إلى ليّ الحقائق أو تجاهل الشواهد التي لا تتوافق مع تلك النظرية.

مغالطة البروكرستية تُسمّى بهذا الاسم نسبةً إلى "برَوكرَست" (Procrustes) في الأساطير اليونانية، وهو رجل كان يفرض على ضيوفه النوم على سريرٍ واحدٍ ثابت الحجم: إذا كان الضيف أطول من السرير، بترَ ساقيه ليَلائم طول السرير؛ وإذا كان أقصر، مدّه بالقوة حتى يساوي طول السرير.

إنهم يُحرّفونها ويشوّهونها لتنسجم مع أوهامهم المسبقة.

فرانسيس بيكون (الأورجانون الجديد)

62. السؤال المشحون Loaded question

سؤال يحتوي على افتراض غير مبرر.

◈ هل توقفت عن ضرب زوجتك؟

علما أن السؤال مُوجه لشخص غير متزوج من الأصل.

◈ استفتاء عام 2009 حول العقوبات البدنية في نيوزيلندا: "هل ينبغي أن يُعتَبَر الضرب، كجزء من التأديب الوالدي الجيد، جريمة جنائية؟"

يفترض السؤال مسبقًا أنَّ ضرب الوالدين لأطفالهما هو تأديب جيد.

◈ لماذا تتعمد إغضابي دائمًا؟

يفترض السؤال أن الشخص يتعمد إغضاب زميله.

احذر من الأسئلة الملغومة بافتراضات غير مثبتة.

63. مغالطة النسبية (Relativist Fallacy)

التشكيك في حقيقة موضوعية مُثبتة بالأدلة بناءً على ادعاء أن صحتها مسألة نسبية (تطبيق النسبية على مجالات موضوعية).

الشكل الثاني للمغالطة:

افتراض أن لا أحد على خطأ، لأن ما هو صحيح بالنسبة لشخص ما قد يكون خاطئا بالنسبة لشخص آخر.

◈ 2 + 2 = 4 صحيحة بالنسبة لك وخاطئة بالنسبة لي. أين المشكلة؟

◈ إننا لا نعرف شكل الأرض، فالبعض يعتقد أنها كروية فيما يرى البعض الآخر أنها مسطحة.

صحيح أن بعض الأفكار نسبية، فعبارة "الأخضر هو أفضل الألوان" قد تبدو صحيحة بالنسبة لي وخاطئة بالنسبة لك. ولكن ادعاء النسبية في الأمور التي ليست نسبية بطبيعتها (مثل الحقائق العلمية الثابتة) يقع بنا في مغالطة النسبية.

مغالطات التفسير والسببية



64. مغالطة السبب الوحيد Fallacy of the single cause (ovesrsimplification)

افتراض وجود سبب واحد لنتيجة ما، بينما الأسباب في الواقع متعددة.

◈ رجل تشاجر مع زوجته، ثم ذهب الى حانة لنسيان همومه. في طريق العودة لمنزله، قاد سيارته في ليلة عاصفة بسرعة جنونية وهو في حالة سُكْر، قبل أن يرتكب حادثة سير. وعندما سُئِل عن سبب الحادثة، أجاب: إنها زوجتي !

◈ سبب عزوف الشباب عن الزواج في أيامنا هو النزعة الفردية التي تسعى لتحقيق الذات والاستقلال بدلا من الاستقرار الأسري.

توجد بالتأكيد أسباب أخرى يتفاوت تأثيرها منن مجتمع لآخر، مثل عدم الاستقرار المهني، ارتفاع تكاليف المعيشة، الخوف من الفشل، وغيرها.

65. المغالطة البَعدية Posteriori fallacy - Post hoc ergo propter hoc

بعد الحدث "أ" وقع "ب". إذن "أ" سبب "ب".

◈ في كل صباح، يصيح الديك ثم تُشرق الشمس. أَلَمْ أقُل لك إن صياح الديك هو سبب شروق الشمس؟

◈ قبل اجتياز الامتحان رأيتُ قطًا أسود. الآن أعرف لماذا حصلتُ على نقطة سيئة في الامتحان.

◈ في نفس اليوم الذي وضعت فيه ذلك العقد حول عنقي، حصلت لي مفاجأة سعيدة. منذ ذلك اليوم وأنا أتفاءل بهذا العقد.

66. عكس السبب والنتيجة (الاتجاه الخطأ) Reversing cause and Effect

الادعاء بأن "أ" هو سبب "ب"، بينما تشير الأدلة إلى أن "ب" هو سبب "أ".

◈ كلما زادت سرعة دوران طواحين الهواء، كلما زادت سرعة الرياح المرصودة. هذا يعني أن الرياح تنشأ نتيجة دوران طواحين الهواء.

◈ لُوحظ أن انتشار الثقافة الجنسية تزامن مع انتشار مرض فقدان المناعة المكتسبة. واضح أن انتشار الثقافة الجنسية كان سببا في زيادة انتشار هذا المرض.

الأرجح هو العكس، فخوف الناس من انتشار المرض دفعهم لتطوير ثقافتهم الجنسية.

67. الخلط بين العلاقة والسببية The Correlation-Causation Fallacy

توجد علاقة بين حدثين، وبالتالي فأحدهما هو سبب للآخر.

◈ منذ خمسينيات القرن العشرين، ارتفعت مستويات ثاني أكسيد الكربون في الغلاف الجوي ومستويات السمنة بشكل حاد. ومن ثمّ فإن غاز ثاني أوكسيد الكربون يُسبب زيادة السمنة.

◈ بعد انتشار اللقاحات زادت حالات التوحّد، إذن اللقاحات هي السبب.

وجود تزامن بين انتشار اللقاحات وازدياد حالات التوحّد لا يعني بالضرورة أنّ أحدهما سببٌ للآخر. قد يكون ازدياد تسجيل حالات التوحّد راجعا إلى تحسّن أدوات التشخيص.

وجود ارتباطٍ بين حدثين لا يعني بالضرورة أنّ أحدهما سببٌ للآخر.

قد يكون الارتباط محض مصادفة، أو كلاهما ناتج عن عامل ثالث خفي (انظر إلى المغالطة التالية).

68. إغفال سبب مشترك (العامل الثالث) Neglecting a Common Cause

الاعتقاد بأن حَدثاً ما هو سبب لِحدث آخر،
بينما الواقع أنَّهُما معا نتيجة لسَبب ثالث.

◈ مع زيادة مبيعات المُثلجات، يرتفع معدل الوفيات غرقًا بشكل حاد. لذلك فإن تناول المُثلجات يسبب الغرق.

تمّ إغفال عامل ثالث هو موسم الصيف الحار، حيث ترتفع مبيعات المُثلجات، وترتفع أيضا حالات الغرق بسبب زيادة ممارسة الناس للسباحة.

69. الخلط بين السببية والمسؤولية (Confusing Causation and Responsibility Fallacy)

كل من كان سببا في وقوع حدث ما هو مسؤول عن هذا الحدث.

◈ لو سمعتَ كلامي ولم تخرج ليلا للأكل في المطعم، لما تعرضت للسرقة والاعتداء. أنت المسؤول عمّا حصل لك.

◈ لقد دهس ابنك شخصا بسيارته. أنت من علَّمتَ ابنك السياقة. أنت المسؤول عن هذا الحادث المتهور.

انتبه قبل أن تلوم شخصا كان سببا في حدث ما. مجرد كونه جزءاَ من سلسلة سببية لا يعني بالضرورة أنه مسؤول أخلاقيَا أو قانونياَ عن النتائج. الحوادث المؤسفة لا تصيب فقط مَن يؤدون ثمن أخطائهم، بل أيضا من يؤدون ثمن أخطاء الآخرين.

70. التفسير القسري Forced hypothesis

تقديم تفسير معقد أو بعيد الاحتمال لحدث ما،
في الوقت الذي يمكن أن نجد فيه تفسيرات أخرى أبسط أو أكثر احتمالا.

◈ البارحة رأيت جارنا يتخبط على الأرض كالمجنون. لابد أن روحا شريرة قد تَقمّصته.

هذه الظاهرة لها تفسير طبي معروف بنوبات الصرع. الرحمة بالمريض تبدأ بفهم حالته، لا بإلصاق تفسيرات تخيفه وتؤذيه. هذا التفسير القسري يتجاهل التفسيرات العلمية المتاحة ليفرض تفسيراً غير قابل للاختبار.

◈ بناء الأهرام لغز مُحيّر. لابد أن كائنات فضائية ساعدت البشر في بنائها.

💡 حَدّ أوكام (مبدأ البساطة) Occam's razor

هناك مقولة شهيرة تُدرس لطلاب الطب: "عندما تسمع صوت حوافر، فكّر في الخيول لا الحمار الوحشي" .وهذا يعني أن الأعراض الشائعة غالباً ما تشير إلى مرض شائع، وليس إلى مرض نادر جداً وغريب. اقترح الفيلسوف " ويليم أوكام" (1287م-1347م) مبدأ يمكن اختصاره كالآتي: "عندما توجد عدة تفسيرات لظاهرة ما، فإن التفسير الأبسط هو الأرجح غالباً". المقصود بـ "الأبسط" ذلك التفسير الذي يتطلب أقل عدد من الافتراضات. إلا أن التفسير الأبسط ليس دائما هو الصحيح. "لهذا فحدّ أوكام ليس قانوناً عاما، بل هو "أداة إرشادية". أحياناً يكون التفسير المعقد هو الصحيح، لكننا نبدأ بالأبسط كقاعدة عمل.

71. التفسير بالتسمية Explaining by Naming

اعتقاد الشخص أنه قد فسّر ظاهرة لمجرد أنه أطلق عليها اسمًا أو وصفًا، بينما التسمية لا تُقدم أي فهم حقيقي للأسباب للآليات التي أدت إلى الظاهرة.

◈ سؤال: "لماذا يرقص النحل بهذه الطريقة؟ "جواب: "إنها الغريزة".

◈ سؤال: "لماذا يغضب صاحبك بسرعة؟ "جواب: "لأنه عصبي المزاج".

72. الخلط بين التفسير والتبرير Confusing an Explanation for an Excuse

افتراض أن تقديم تفسيرٍ لِسلوكٍ ما يعني تبريره أو قبوله أخلاقيًا.

◈ هو سرق لأنه فقير، كيف نَلُومه؟

الفقر قد يكون تفسيرا لسبب السرقة، لكنه ليس تبريرًا يجعل السرقة مقبولة أخلاقيًا أو قانونيًا.

◈ محامي يقول: "موكلي ضرب جاره لأنه كان غاضبًا بشدة بعد إهانته".

الغضب يفسر السلوك، لكنه لا يبرره أمام القانون.

◈ باحث يقول: "الحرب العالمية الثانية اندلعت نتيجة عوامل اقتصادية وسياسية".

أحد المستمعين يرد: "أنت تدافع عن الحروب"!

الباحث قدّم تحليلًا لأسباب الحرب، وليس تبريرًا لشرعيتها.

التفسير يجيب عن سؤال: "لماذا حدث هذا؟"، بينما التبرير يجيب عن سؤال: "هل كان من المقبول أن يحدث هذا؟"
التفسير يصف لماذا حدث السلوك، أما التبرير فيسعى لإضفاء الشرعية. التفسير يصف لماذا حدث الفعل، بينما التبرير يحاول إظهاره كأمر مشروع أو مقبول.

مغالطات الغموض



73. مغالطة الغموض Ambiguity Fallacy

استخدام كلمة أو عبارة غامضة أو متعددة المعاني في سياق الحجة، دون توضيح معناها بدقة، مما يؤدي إلى استنتاج غير منطقي أو مضلل.

◈ يُمنع منعاً تامّا ممارسة كل ما من شأنه أن يثير البلبلة والفتنة ويهدد تماسك المجتمع.

عبارة "كل ما من شأنه" مطاطة جدا، ويمكن توظيفها لِقَمع حريات الناس في التفكير والتعبير وإخراس الأصوات التي قد تدعو للدفاع عن قضايا عادلة.

◈ هذا المنتوج طبيعي وستُحسّ معه بالاختلاف.

ما المقصود بالمنتوج الطبيعي؟ كلمة "طبيعي" من التعبيرات المطّاطة التي يصعب تحديد معناها. ثُم عن أي اختلاف نتحدث بالضبط؟ ربما يكون اختلافا في الاتجاه الأسوأ، أو اختلافا طفيفا لا يستحق كُلفة هذا المنتوج؟

◈ الطبيب: "يجب ألا تُكثر من أكل اللحوم."

هل المقصود ألا يتجاوز الاستهلاك الأسبوعي من اللحوم 100 غرام؟ 500 غرام؟ 1000 غرام؟ التقليل، الإكثار أو الاعتدال، هذه تعبيرات غامضة. غموض مصدره عدم تحديد المقدار العددي، ولو بشكل تقريبي.

💡 من أهم شروط الادعاء أن يكون واضح المعنى، فالعبارات الغامضة جدا لا يمكن الحكم بصحتها أو خطئها، وبالتالي لا يمكن اعتبارها ادعاءات من الأساس.

الغموض تجارة مربحة، سواء في الإعلانات التجارية، الخطب السياسية أو تنبؤات العرّافين.

74. الاشتراك Equivocation

استخدام نفس الكلمة بمعان مختلفة في الحجة نفسها.

◈ الرجال لا يخافون. ذلك الجبان ليس برجل. (استُخدمت كلمة "رجل" بمعنيين مختلفين : الشهامة والذكورة)

◈ كل العلوم تساعد على فهم العالم بشكل أفضل، بما فيها علوم السحر والتنجيم.

استخدام عبارة "علوم السحر" لا يجعل من السحر علما خاضعا للمناهج العلمية المتعارف عليها.

لو كان لكل كلمة معنى واحد متفق عليه، لكان الكلام والتواصل أكثر وضوحا. المشكل هو أنك عندما تبحث في القاموس عن معنى كلمة معينة، فالأرجح أن تجد لها أكثر من معنى.

75. التشابه Amphiboly

تركيب العبارة يجعلها تحمل أكثر من تفسير.

◈ أنا ضد الزواج الذي يأتي بالأطفال.

هل يَقصد المتحدث أنه ضد الزواج بشكل عام، أم أنه فقط ضد الزواج الذي ينتج عنه أطفال؟

◈ رأيتُ السيدة بالنظارات.

من يحمل النظارات: السيدة أم الشخص الذي رآها؟

76. النَّبر Accent

تفسير المعنى بشكل مختلف بسبب تغيير طريقة نطق الكلمات (نَبر).

◈ - ضابط الشرطة: "متى أطلقت النار على الضحية؟"

- المتهم (مصدومًا): أطلقتُ النار على الضحية؟ (النبر على كلمة "أطلقتُ" في صيغة الاستفهام لِنفي الاتهام)

لاحقًا، قرأ ضابط الشرطة إفادة المتهم على أنها اعتراف في المحكمة حين قال: "أطلقتُ النار على الضحية."

77. السؤال عديم المعنى Meaningless Question

طرح سؤال فارغ المعنى من الناحية المنطقية،

وبالتالي لا يمكن الإجابة عنه بأي شكل منطقي.

◈ ما الذي يقع شمال القطب الشمالي؟

القطب الشمالي هو أقصى نقطة شمالية على سطح الأرض تتقاطع فيها كل خطوط الطول. إذا تحركت من القطب الشمالي في أي اتجاه، فأنت تتحرك نحو الجنوب، مهما كان اتجاهك.

◈ ما الذي حدث قبل بداية الزمن؟

مصطلح "قبل" مرتبط بالزمان. وبدون الزمان، لا معنى لهذا المفهوم.

◈ ما العدد الأكبر من اللانهاية؟

السؤال يفترض أن اللانهاية عدد يمكن مقارنته بأعداد أخرى، وهذا افتراض غير صحيح.

78. الفشل في التوضيح Failure to Elucidate (obscurum per obscurius)

تقديم شرح يزيد الأمور غموضا وتعقيدا.

◈ - ماذا تقصد بالهالة المحيطة بالشخص؟

- إنها طاقة خفية باطنية، مجال ملون ينبثق ويحيط بجسم الإنسان أو الحيوان.

◈ - إذا كانت الأرض مسطحة كما تقول، فكيف تُفسر أنه خلال خسوف القمر يكون ظل الأرض على القمر دائري الشكل؟

- لا يا صديقي. هذا ليس ظل الأرض، بل هو ظل جُرم غامض يمُرّ أمام القمر.

79. العمق الزائف Pseudo-Profundity

استخدام عبارات تبدو في الظاهر عميقة، فلسفية، أو ذات معنى عميق، لكنها في الحقيقة غامضة، فضفاضة، وخالية من أي مضمون حقيقي.

◈ لتجد ذاتك، يجب أن تفقد نفسك داخل نفسك.

◈ كل الإجابات تكمن داخل السؤال.

◈ اشرب هذا الماء... لتحصل على الطاقة الجوهرية للكون.

إذا كان من الصعب إعادة صياغة العبارة بلغة واضحة، فهي غالبًا عمق زائف، لا عمق حقيقي.

80. البريق اللفظي Glittering Generality

استخدام كلمات أو عبارات ذات وقع إيجابي قوي لكنها غامضة وغير محددة المعنى، بهدف إثارة مشاعر الجمهور بدل تقديم حجة منطقية أو تفاصيل عملية.

◈ مرشح يقول: "سأعمل من أجل العدالة والمساواة لكل المواطنين ومن أجل مستقبل أفضل."

العدالة والمساواة والمستقبل الأفضل كلمات براقة ومطاطة لم يتم تحديد ما تعنيه بالضبط ولا كيف ستتحقق.

◈ لكل مواطن الحق في الشغل.

هل المقصود هو أن الدولة ملزمة بتوفير الشغل لجميع المواطنين، أم أن المقصود هو أن كل من يريد أن يشتغل فله الحق في ذلك، ولن تقف الدولة في طريقه؟

💡 الكلمات البراقة ليست سيئة في حد ذاتها، لكنها تصبح مغالطة عندما تُستخدم لإخفاء غياب المعنى أو التفاصيل، أو لاستمالة الجمهور عاطفياً دون حجة عقلية واضحة. كلما كانت الكلمة أو العبارة أكثر تجريدا (المساواة بين الناس، العدالة الاجتماعية، زعزعة النظام العام)، كلما زاد احتمال غموضها وعرضتها لتأويلات.

مغالطات لغوية



81. التشيئ Reification

التعامل مع مفاهيم مجردة كما لو كانت كيانات حقيقية.

- الزمان غدار لا يرحم والتاريخ سيحكم علينا بقسوة.
- ينبغي احترام كل الآراء.

الرأي ليس شخصا كي يُحترم. الرأي نتفق معه أو نختلف، أو نلتزم منه موقف الحياد.

- نموت جميعا ويحيا الوطن !

ماذا يكون الوطن من دون المواطنين؟

التشيئ يضفي جمالية شعرية وأدبية على العبارة. المشكلة هي عندما يتم التعامل معه كما لو أن تلك الصيغ المجازية حقيقية.

82. الخطأ المقولي Category mistake

أن تَقرن أشياء من تصنيفات مختلفة لا يجوز عقلًا أن تجتمع، أو تَنسب لشيء ما خاصية لا يمكن أن تخص هذا الشيء.

- أيهما أكبر: المتر أم اللتر؟
- ما هي رائحة اللون البنفسجي؟
- أين ال 2,4 طفل الذين هم معدل المواليد؟

العدد المذكور يدخل في صنف معدلات المواليد، ولا يجوز أن يُقارن بعدد حقيقي للمواليد.

83. الكلمات المشحونة Loaded words

استخدام ألفاظ مشحونة عاطفيا كبديل عن الحجة.

◈ كل عاقل يعرف جيدا أن الكلام الذي نطقتُ به هو عين الصواب.

كلمة "عاقل" افترضت صواب الكلام المطروح للنقاش من دون تقديم أي إثبات.

◈ ادَّعى صاحبنا أنه جَنى أمواله بطرق شرعية.

كلمة "ادَّعى" تُخفي شبهة بأن الشخص يكذب.

الكلمة	الكلمة المشحونة
انتقد	هاجم - تطاوَل
قال	ادَّعَى
مُتشبِّث برأيه	عنيد
مُقتصد	بخيل
عموم الناس	الغوغاء
التعددية	الفتنة
تشغيل اليد العاملة	استغلال اليد العاملة
ممارسة حميمية	ممارسة بهيمية
بساطة	سذاجة
تخطيط	مؤامرة

بدلا من استخدام لغة محايدة تكتفي برصد الحالة الموضوعية وإيصال المعنى الصريح المباشر[145] ، يتم اللجوء إلى كلمات مشحونة تُوصل معنى ضمنيا[146]إضافيا يؤدي وظيفة الحُكم والإدانة، ومن دون تقديم أية دلائل تُثبت ذلك المعنى الضمني.

"تمويه أكثر النظريات سخافة في كلمات مختارة بعناية غالباً ما يكون كافياً لقبولها." غوستاف لُوبُون

84. الاقتباس خارج السياق Quoting Out of Context

تحريف للمعنى الأصلي لكلام شخص أو نص عن طريق اقتطاع جزء منه وإهمال ما قبله أو بعده،

◈ الخبر المُقتَطَع: «الحكومة تعلن عن رفع الضرائب".
التصريح الحكومي: «ستضطر الحكومة لرفع الضرائب إذا لم تجد مصادر دخل بديلة".

حذف الشرط غيّر المعنى من احتمال مشروط إلى وعد أكيد.

◈ الخبر المُقتَطَع: "أخيرا.. دواء لعلاج السرطان".

النتيجة كما نُشرت في الورقة البحثية: "العلاج أظهر نتائج إيجابية في أغلب حالات سرطان الجلد التي تم اكتشافها في مرحلة مبكرة، لكنه يحتاج إلى مزيد من الدراسات".

حذف تفاصيل الدراسة العلمية يعطي انطباعًا مضللًا.

[145] Denotation
[146] Connotation

85. أَنْسَنَة (أنثروبومورفيزم) Anthropomorphism

إضفاء صبغة بشرية على ما ليس بشريًا.

◈ الطبيعة تكره الفراغ.

◈ الهواء الساخن تكون لدية الرغبة في أن يصعد إلى الأعلى.

◈ إذا سعيت بكل جهدك لتحقيق هدفك، فإن الحياة ستمد يدها لتقدم لك ما تريد.

مغالطات التعريف



تعريف"الشوفان" حسب قاموس اللغة الإنجليزية للكاتب الإنجليزي صامويل جونسون (1709-1784).

86. التعريف غير المناسب Incongruous Definition

تقديم تعريف واسع جدا أو ضيق جدا.

◈ المربع هو شكل بأربعة أضلاع متساوية الطول.

تعريف واسع، لأن شكل المُعين يُحقق نفس الشرط.

◈ المستطيل هو شكل بأربعة أضلاع متعامدة متساوية الطول.

تعريف غير مناسب لأنه ضيق جدًا، إذ يصف المربعات فقط ويستبعد جميع أنواع المستطيلات الأخرى.

87. التعريف الدائري Circular Definition

يتم تعريف مصطلح ما باستخدام المصطلح نفسه أو مرادفاته، دون تقديم أي معلومات جديدة أو مفيدة.

◈ الذكاء هو القدرة على أن تكون ذكيًا.

◈ العدالة هي أن يتحقق العدل.

◈ الروح هي ما يجعل الإنسان روحانيًا.

88. المغالطة التعريفية The Definist Fallacy

تعريف مصطلح بشكل غير صحيح لتسهيل الدفاع عن موقف معين.

◈ لنتفق في البداية أن الضرائب ما هي إلا وسيلة الحكومة لسرقة أموال الشعب.

باستخدام كلمة "سرقة "بدلًا من "أخذ "أو "جمع"، يُخفي هذا التعريف موقفا سلبيا شديدا تجاه مفهوم الضرائب.

89. التأثيل Etymological fallacy

وجوب أن يشابه المعنى الحالي للكلمة معناها الأصلي التاريخي.

◈ لا ينبغي أن يكون التعليم إلزامياً، لأن أصل كلمة "تعليم" مشتقة من الكلمة اللاتينية educere التي تعني الملاطفة والانجذاب.

◈ لماذا تُبالغ في مدح صديقك عند الغناء وتصفه بأنه فنّان؟ ألا تعرف أن كلمة فنّان في أصلها العربي تعني الحمار الوحشي؟

◈ لا يوجد شيء اسمه "أدب شفوي"، فكلمة literature (أدب) مشتقة من الكلمة اللاتينية litera، ومعناها "الحرف الأبجدي المكتوب".

اللغة كائن يتطور، ومعنى الكلمة في أيامنا لا يتطابق بالضرورة مع معناها كما كان سائدا في الماضي القديم.

مغالطات التشبيه والمقارنة



90. التكافؤ الزائف False Equivalence

تقديم أمرين على أنهما متكافئان (أخلاقيا أو عمليا)،

رغم وجود اختلافات كبيرة بينهما.

◈ أنت تقود سيارة، إذن مسؤوليتك عن تغير المناخ لا تقِلُّ عن مسؤولية شركات النفط الكبرى.

الخيارات الفردية لها تأثير محدود جدا مقارنة بالمؤسسات الكبرى.

◈ يجب أن تكون الاستعانة بالمراجع أمرا مسموحا به للتلاميذ خلال الامتحانات، مادام نفس الأمر مسموحا به للأطباء والمحامين والمهندسين خلال عملهم.

الموقفان غير متكافئين. الامتحان يهدف إلى اختبار ما تلقنه التلميذ وفهمه، هذا الهدف يغيب في العالم المهني.

◈ خلال تغطية مباشرة لاحتجاج سلمي، علّق أحد المراسلين قائلاً: "أثناء تغطيتي للاحتجاجات، ذكّرني هذا الاحتجاج بأعمال الشغب الأخيرة التي اندلعت بعد خسارة فريق مدينتنا في مباراة كرة قدم. إن تأثير هذه الاحتجاجات وأعمال الشغب المُخرّبة على مجتمعاتنا مُقلق للغاية."

يتعامل المراسل مع احتجاج سلمي وشغب رياضي عنيف كما لو كانا متكافئين، فيَعطي انطباعًا مضللًا بأن الاحتجاج لا يقل خطورة عن شغب الملاعب، رغم خلوه من أفعال عنيفة.

٩١. التشبيه الزائف False Analogy

الأمور المتشابهة في وجه من الوجوه لابد أن تكون متشابهة في وجوه أخرى.

◈ الإشاعة صحيحة، فلا دخان من دون نار.

الدخان ينتج عن نيران حقيقية، بينما الإشاعة قد تنتج عن أخبار زائفة.

◈ التاريخ يعيد نفسه تمامًا كما تعود الساعة بعقاربها إلى نقطة البداية.

تشبيه مُضلّل، فالتاريخ معقّد ومفتوح على احتمالات عديدة، بخلاف حركة الساعة الدورية.

◈ العمال أشبه بالمسامير، لا تؤدي عملها ما لم تطرقها على رأسها.

◈ خذ العلم بمقدار. لأن العلم مثل الأكل، إذا أكلت كثيرا ستُصاب بعسر الهضم.

◈ العيش مع شريك واحد مدى الحياة مُمل جدا. جرَب أن تتناول نفس الطعام كل يوم طوال حياتك!

من طلب شَبَهًا عثر عليه، فَبَيّن أي شيئين مهما اختلفا يوجد دائما وجه شبه. الأقوال المأثورة والأمثال الشعبية والأشعار مليئة بالتشبيهات والاستعارات. لهذا، احذر من أن تُؤخَذ بسِحر بلاغتها فتُغفل التدقيق في مضمونها.

تَذكَّر جيدا :التشبيه للتفسير وليس للتبرير.

92. أخطأ من الخطأ Wronger than wrong

التأكيد على أن درجات مختلفة من "الخطأ" هي نفس الشيء.

◈ أن تكذب أو تقتُل فلا فرق، كلاهما خطيئة.

◈ لا فرق بين الطب الشعبي والطب الذي يُمارس في المستشفيات، فكلاهما مُعرض للخطأ.

الأخطاء ليست متساوية. صاغ الكاتب "إسحاق أسيموف" عبارة "أخطأ من الخطأ" في كتابه "نسبية الخطأ"[147] حيث قال: "عندما اعتقد الناس أن الأرض مسطحة، كانوا مخطئين. وعندما اعتقدوا أنها كروية، كانوا مخطئين أيضا (لأنها في الواقع كروية مفلطحة). ولكن إذا كنت تظن أن الاعتقاد بأن الأرض كروية هو خطأ بنفس مستوى خطأ الاعتقاد بأنها مسطحة، فإن وجهة نظرك أخطأ من كليهما معًا".

93. الحرمان النسبي Relative Privation - not as bad as

توجد مشكلة أسوأ من المشكلة المطروحة للنقاش،
إذن المشكلة المطروحة ليست مهمة على الإطلاق.

◈ لماذا ينتقدون غلاء الأسعار؟ يوجد على هذه الأرض من يموتون جوعا!

◈ تقولين إن زوجك مُقامر سِكِّير وغير مسؤول؟ على الأقل لا يضربكِ بعنف مثل بعض الأزواج.

◈ لماذا كل هذا اللَّغط بشأن ما فعله ستالين. على الأقل لم يكن بسوء هتلر!

مهما كان الوضع سيئا، يُمكنك دائما أن تجد وضعا أسوأ منه. وجود الأسوأ لا ينفي وجود السيئ.

147 Isaac Asimov: The Relativity of Wrong (1989)

94. مغالطة النِّيرفَانَا (الحل المثالي) Nirvana fallacy - Perfect solution fallacy

رفض حل واقعي بِحُجة أنه ليس مثاليًا.

◈ لماذا تحتفظ ببقية العلكة في جيبك؟ هل تعتقد أنك بهذه الطريقة ستُنظف كل المدينة وتحُلّ مشكلة التلوث؟

◈ تجنب الأدوية! فجميعها لها آثار جانبية.

الضرر الناجم عن الآثار الجانبية للدواء يبقى في أغلب الحالات أقل من الضرر الناجم عن عدم أخذ الدواء.

الكمال هو عدُوّ الجيد. لا وُجود لِحُلول مثالية، لِكل حَلّ مشكلة. لهذا، لا تَدَع ما لا تستطيع فعله يُثنيك عَمّا تستطيع فعله، ومتى وجدتَ نفسك تنتقد حلًا بِسبب بعض عُيوبه، احذر من أن يَجرفك اندفاعك للدفاع عن حل أكثر سوءا!

"اللهم امنحني السكينة لأقبل الأشياء التي لا أستطيع تغييرها،

والشجاعة لتغيير الأشياء التي أستطيع تغييرها، والحكمة كي أميز بينهما".

دعاء السكينة

انحيازات معرفية



95. الانحياز التأكيدي Confirmation bias

تقديم الأدلة والوقائع التي تُؤيد اعتقادا ما،
مقابل إغفال كل الأدلة والوقائع التي تكذبه.

◈ حلمتُ به، وبعد أيام التقيتُ به. كان الحلم رسالة!

ننسى آلاف الأحلام التي لم تتحقق، ونتذكر جيدا تلك التي تصادف وقوعها.

◈ من تفلسف وتمنطق فقد تزندق! أليست الفلسفة هي التي أوصلت نيتشه وماركس وسارتر إلى الإلحاد؟

أغفل المتكلم، عن قصد أو غير قصد، ذكر أسماء لفلاسفة غير ملحدين مثل ابن رشد وديكارت وباسكال وغيرهم.

◈ باحث يعتقد مسبقًا بفعالية دواء ما، فيولي اهتمامًا أكبر للنتائج الإيجابية ويتغاضى عن السلبية.

إذا سعينا لإثبات قاعدة معينة من خلال البحث عن الأمثلة التي تؤيدها، فإننا في الحقيقة لن نثبت شيئا. العثور على بعض الأمثلة التي تُؤيد القاعدة لا يعني أن القاعدة هي بالضرورة صحيحة. في المقابل، إذا عثرنا على مثال واحد يعارض القاعدة (مثال مضاد)، فهذا كاف لتكذيب القاعدة ونسفها تماما.

الاطلاع على الأفكار المخالفة لآرائنا والانفتاح عليها خطوة أساسية للتقليل من الانحياز التأكيدي. إذا كنا نرفض مناقشتها أو نعجز عن تفنيدها، فلن يكون لدينا أي أساس منطقي لتفضيل آرائنا الخاصة عليها.

نحن لا نُريد لأننا وجدنا أسبابا، بل نجد الأسباب لأننا نريد.

شوبنهاور

96. تحيّز السفينة الناجية Survivorship Bias

التركيز فقط على قصص النجاة أو النجاح مع تجاهل قصص الفشل، مما يقود إلى استنتاجات غير صحيحة.

◈ اتبع حلمك وشغفك وستنجح في حياتك! انظُر إلى "توماس إديسون "و"ستيف جوبز "و"ليونيل ميسي"، كلهم نجحوا لأنهم تبعوا أحلامهم.

تم تجاهل أمثلة كثيرة لأشخاص تبعوا أحلامهم دون أن ينجحوا في ذلك.
أسباب الفشل كثيرة ولا يمكن حصرها في مجرد عدم ملاحقة الشخص لأحلامه.

💡 هذا شكل من الانحياز التأكيدي. الواقع أعقد من اختزاله في وصفة سحرية للنجاح. قصص الفشل قد تصحح بعض اعتقاداتك الخاطئة، وربما تنقذك من قرارات سيئة.

97. وهم التَّكَتُّل Clustering illusion

رؤية أنماط أو تكَتُّلات ذات معنى في أحداث عشوائية، رغم أنها محض صدفة.

◈ كل هذه الأخبار السيئة وقعت في نفس الأسبوع، واضح أن هناك مخطط.

الأحداث العشوائية تميل طبيعيًا إلى التكتُّل أحيانًا دون أي تخطيط.

◈ هذا الصباح رأيتُ شكل وجه بشري في السحاب. إنها معجزة.

هذه ظاهرة نفسية تُعرف باسم "الباريدوليا"[148]، حيث يقوم الدماغ بالبحث عن أشكال أو معاني مألوفة في أشياء عشوائية لا تحتويها فعليًا.

💡 انتبه كي لا يجعلك وهم التكتل ترى معاني خفية في أحداث متصادفة، أو تربط وقائع لا علاقة بينها، فتبني استنتاجات خاطئة!

148 Pareidolia

98. انحياز التصديق Belief Bias

الحُكم على حجة أو فكرة بناءَ على توافقها مع معتقداتنا السابقة، بدلاً من أدلتها.

◈ لن يتغير اعتقادي بأن التغير المناخي مجرد كذبة، حتى ولو قالت كل الدراسات العلمية عكس ذلك.

◈ هذه النتائج العلمية باطلة ولا تعني شيئا مادامت تُخالف ما أؤمن به.

أن نَفهم العالم كما هو، وليس كما نتمنَّاه أن يكون،

هذا هو بداية الطريق نحو الحكمة. (بِرتَراند رَسل)

99. تأثير الهالة Halo Effect

الميل إلى تعميم سمة إيجابية واحدة لشخص ما على جميع سماته الأخرى.

◈ استقبلَنا موظف أنيق ولَبِق. هذا هو نموذج الكفاءات العالية التي نحتاجها في بلدنا.

الأناقة واللباقة كلاهما ليس شرطا كافيا لتحقيق الكفاءة العالية في العمل.

100. انحياز التوقّع Expectation Bias

الميل لرؤية أو تفسير النتائج بما يوافق توقعاتنا المسبقة.

◈ محقق يكوّن قناعة مبكرة بأن المشتبه به هو الجاني، فيفسر أي دليل لصالح هذه الفرضية ويهمل ما قد يثبت براءته.

◈ معلم يفترض ضعف أداء أحد الطلاب، فيصحح إجاباته بصرامة مفرطة ويصنفها على أنها خاطئة أو ناقصة حتى إن كانت مقاربة للصواب.

101. النبوءة المحققة لذاتها Self-fulfilling Prophecy

توقع حول حدث مستقبلي يؤدي، بسبب طريقة تصرفنا بناءً عليه، إلى جعله يتحقق بالفعل.

المغالطة هي في الاعتقاد بأن تحقق النتيجة دليل على صحة التوقع، بينما الحقيقة أن التوقع والسلوك المبني عليه هو الذي صنع النتيجة.

◈ مدير يتوقع مسبقًا أن المشروع لن ينجح، فيقلل من دعمه وتمويله، فينتهي الأمر بفشله فعلًا.

◈ شخص يعتقد أن الطرف الآخر لا يحبه، فيعامله بجفاء وبرود، فيبتعد الآخر، مما يعزز توقعه الأول.

💡 الأمر أشبه بالدائرة: توقُّع النتيجة يؤثر على السلوك، والسلوك يؤدي إلى نتيجة تُوافق التوقع الأول.

102. تأثير الحقيقة الوهمية Illusory Truth Effect - Repetition Fallacy

الميل إلى قبول المعلومة على أنها صحيحة إذا تكررت أمامنا بما يكفي.

◈ مؤثر ومروِّج لنظرية مؤامرة يكرر نفس الادعاء في كل مناسبة: "الحكومة تخفي الحقيقة"، من دون تقديم أي دليل، حتى يجد من يصدقه.

◈ تكرار عبارات مثل: "العدو ضعيف ومهزوم" في نشرات الأخبار، حتى يقتنع الجمهور بها بغض النظر عن الحقائق على الأرض.

مغالطات متنوعة [149]



[149] المغالطات الواردة في هذه الفئة (مغالطات متنوِّعة) هي جديدة، إذ لم أجد لها ذكرًا في المراجع التي بين يدي، فرأيت أن أصُوغها وأقترح لها أسماءَ.

103. مغالطة الحلّ الأسوأ The Worse Solution Fallacy

تقديم اقتراح ما يبدو فعّالًا لحلّ مشكلة ما، لكنه في الحقيقة يخلق مشكلة أكبر من أصل المشكلة، فيغدو الدواء أخطر من الداء.

◈ رفع الضرائب بشكل مبالغ فيه "لزيادة ميزانية الدولة"، مع إغفال أنّ ذلك يُنهك الاقتصاد ويشجع على التهرب الضريبي.

◈ منع حرية التعبير بحجّة "تفادي الفوضى"، فإذا بالمجتمع ينفجر في فوضى أعظم!

◈ رشّ المبيدات بلا حساب "للقضاء على حشرة ضارة"، لكن النتيجة تدمير النظام البيئي كله.

الحلّ الأسوأ أشبه بإطفاء النار بالبنزين. انتبه كي لا تُزيل الشرارة الصغيرة وتُشعل حريقًا أكبر. الطريق إلى الجحيم مفروش بالنوايا الحسنة.

104. مغالطة السيناريو الوحيد The single scenario fallacy

افتراض أنّ نتيجة معيّنة لم تكن لتتحقق إلا عبر مسار واحد أو سبب واحد بعينه، متجاهلةً أنّ التاريخ والواقع مليئان بمسارات وبدائل أخرى ممكنة.

◈ لولا أديسون ما كانت منازلنا لتُضاء اليوم.

هذا الادعاء يتجاهل أنّ آخرين كانوا يعملون في المجال نفسه، وأن المصباح الكهربائي كان سيصل إلينا بطرق أخرى، حتى ولو لم يتوصل إليه أديسون.

◈ لو لم يقم كريستوف كولومبوس برحلته عبر المحيط الأطلسي، ما كنا لنعرف قارة اسمها أمريكا.

◈ لولا الخوارزمي لما عرفت البشرية شيئا اسمه الخوارزميات، ولا كُنا سنعرف شيئا اسمه الحاسوب.

هذه المغالطة[150] تختزل شبكة معقدة من العوامل في سيناريو وحيد، وكأنّ العالم لم يكن ليكون كما هو الآن إلّا من خلال هذا السيناريو.

105. اختزال القيمة في الضرورة Reducing Value to Necessity

إذا لم يكن الشيء ضرورياً، فهذا يعني أنه بلا قيمة أو لا حاجة له.

- الموسيقى ليست ضرورية مثل الطعام والشراب، فما حاجتك بها؟

وكأن الإنسان خُلق ليكون معدةً تمضغ فقط. القيم الجمالية والنفسية للموسيقى تمنح للحياة رونقًا يتجاوز مجرد البقاء.

- لماذا تقرأ الكتب وتُوليها كل هذه الأهمية؟ هل ستَمُوت من دونها؟

- هل من الضروري أن تسافر في كل عطلة؟

هذه المغالطة تقوم على الخلط بين الضرورة والقيمة، وتُوهم أن ما يتجاوز حدود الضرورة لا قيمة له، وكأن حياة الإنسان لا تحتمل إلا ما يُبقيه حيًا فحسب. بينما الواقع أن أعظم ما يثري الوجود الإنساني ليس من باب الضرورات، بل من فضاءات الهوايات والمُتع والفنون والمعارف.

[150] رغم التشابه الظاهري مع مغالطة السبب الوحيد، إلا أن هناك فارقا دقيقا بين المغالطتين. مغالطة السبب الوحيد تحصر تفسير نتيجة معينة في عامل سببي واحد وتتجاهل بقية العوامل، بينما تحصر مغالطة السيناريو الوحيد مسار التاريخ أو الواقع في حبكة واحدة لا بديل لها.

106. الطّوبَاوية المُضلّلة Misleading Utopianism Fallacy

تقديم فكرة طوباوية، غير قابلة للتحقيق على أرض الواقع، إما باعتبارها حَلًا لمشكلة أو تفسيرًا لظاهرة.[151]

◈ التضامن هو الحل. لو أن كل الأُسر تضامنت لاحتضان المُسنِّين لما ظل هؤلاء عُرضة للعُزلة والتشرد وما احتجنا لِدُور العجزة.

تم تقديم فكرة طوباوية (تضامن كل الأُسر) باعتبارها حَلًا لمشكلة حقيقية (عُزلة وتشرد المُسنِّين). الواقع هو أن الكثير من المُسنِّين لا يَجدون من يحتضنهم. في وضع كهذا، تبقى دور العجزة أحفظ لكرامتهم من حياة الإهمال أو التشرد. المجتمعات لا تُدار على افتراض أن الجميع ملائكة، بل على أساس أن البشر يخطِؤون. المطالبة بتطبيق حلٍّ مثاليَ مستحيل، هو في الواقع ليس سعيا نحو الإصلاح بل هروب منه.

◈ الفقر في مجتمعاتنا سببه هو فساد أخلاقنا. لو كُنَّا جميعا رحماء وفُضلاء لما وُجد فقير بيننا.

أن يتحلى جميع أفراد المجتمع بالرحمة والأخلاق الفاضلة هي فكرة طوباوية، ولا يجوز استخدامها كتفسير لظاهرة واقعية (الفقر).

◈ الاختلاف هو سبب التخلف الذي وصلنا إليه. لو كان كل الناس في بلادنا مُتفقين على رأي واحد وعقيدة واحدة وحزب واحد ما وصلنا إلى هذا الخراب والهوان.

اتفاق كل الناس على رأي واحد فكرة طوباوية غير واقعية لا ينبغي اعتمادها كتفسير لظاهرة واقعية (التخلف).

---

[151] يوجد فرق بين مغالطة الحل المثالي (رقم 94) وبين مغالطة الطّوبَاوية المُضلِّلة. الأولى ترفض حلًا واقعيًا لأنه غير مثالي، بينما تدافع الثانية عن حل مثالي مستحيل بوصفه تفسيرًا أو حَلًا ممكنا لواقع مُعاش. الأولى تُقصي الواقع باسم الكمال، والثانية تفرض الكمال المستحيل ضد الواقع.

107. مغالطة المقارنة المائلة[152] The Tilted Comparison Fallacy

انتقاء عنصر " قوي"من مجموعة ومقارنته بعنصر "ضعيف " من مجموعة أخرى، لاستخلاص تفوّق غير منصف للمجموعة الأولى.

◈ خلال نقاش في مقهى حول كرة القدم وفريقَي "الأسود" و"النمور"، يصرخ أحد مشجعي فريق الأسود: "قارن بين وليد وفريد، وستعرف أي الفريقين أقوى!"

علما أن وليد من أضعف الاعبين في فريق النمور، وفريد من أفضل الاعبين في فريق الأسود.

◈ أفضل الأدباء هم القدامى. قارن التفاهات التي يشاركها بعض أشباه الأدباء على مواقع التواصل الاجتماعي هذه الأيام، مع ما أبدعه المتنبي والجاحظ وابن المقفع وغيرهم.

◈ اختيار هاتف رخيص من الشركة (س)، ومقارنته بهاتف فاخر من الشركة (ص)، لاستنتاج تفوق الشركة (ص) على (س).

108. مغالطة التضاد القسري The Forced Opposition Fallacy

الإيهام بأن فكرتين هما متعارضتان لا يمكن الجمع بينهما، مع أن الجمع بينهما ممكن واقعيا ومنطقيا.

إنه اختزال الواقع في تضادٍ قسري لا وجود له إلا في الوهم[153].

---

152 تم اختيار اسم "المقارنة المائلة" لأنه يبرز اختلال التوازن منذ لحظة الانتقاء.

153 تختلف هذه المغالطة عن مغالطة الثنائية الزائفة بوجهٍ خاص: فالثنائية الزائفة تحصر الموقف في خيارين وتتجاهل البدائل الأخرى ؛ أمّا مغالطة التضاد القسري فتقوم على إنكار إمكان الجمع بين خيارين كان في وسعهما أن يجتمعا.

◈ إما أن تكون مُيولك علمية أو أدبية، لا تقل لي أحبّهما معا!

مع أن الاهتمام العلمي والأدبي يمكن أن يجتمعا معًا لدى نفس الشخص.

◈ لا يمكنك أن تنجح في عملك وتحافظ في نفس الوقت على حياتك الأسرية.

كثير من الناس يوفِّقُون بين الاثنين بدرجات متفاوتة.

المراجع

المراجع العربية والمترجمة

- **ألك فشر**، التفكير الناقد، ترجمة ياسر العيتي، دار السيد للنشر، الرياض 2009.
- **بروس إن. والر**، التفكير الناقد: ادرس الحكم، ترجمة لميس فؤاد اليحيى، الأهلية للنشر والتوزيع، الأردن، 2008.
- **جوليان باجيني**، حجج فاسدة تجعلنا نبدو أغبياء، ترجمة عماد صبحى، المركز القومي للترجمة، العدد 1614، مصر، 2010.
- **ديفيد ماكريني**، أنت لست ذكيا إلى هذا الحد، مكتبة جرير، 2014.
- **روبرت هـ. ثاولس**، التفكير المستقيم والتفكير الأعوج، ترجمة حسن سعيد الكرمي، عالم المعرفة، العدد 20، 1979.
- **ريتشارد إل. ابستين**، دليل الجيب للتفكير الانتقادي، مكتبة جرير، 2014.
- **عادل مصطفى**، المغالطات المنطقية: طبيعتنا الثانية وخبزنا اليومي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2007.
- **عزيز إفزارن**، المغالطات المنطقية وسبل إدراجها في البرامج التعليمية، المجلة المغربية لنشر الأبحاث العلمية. العدد الحادي عشر – نونبر 2025.
- **عزيز إفزارن**، سلسلة مقالات حول المغالطات المنطقية نُشرت بمجلة "الإنسان الجديد"، 2005-2006.
- **فؤاد زكريا**، التفكير العلمي، عالم المعرفة، العدد 3، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1978.
- **م. نيل براون و ستيوارت م. كيلي**، التفكير الناقد، طرح الأسئلة المناسبة، ترجمة نجيب الحصادي ومحمد أحمد السيد. المركز القومي للترجمة، العدد 1390، مصر، 2010.
- **نجيب الحصادي**، كتاب الأغاليط، رؤية للنشر والتوزيع، مصر، 2021.

المراجع الأجنبية

- **Bo Bennett**, Logically Fallacious: The Ultimate Collection of over 300 Logical Fallacies, Academic Ed. 2012.
- **Damer, T. Edward**, Attacking Faulty Reasoning: A Practical Guide to Fallacy-free Arguments, Wadsworth. 2009.
- **Gula, Robert J.**, Nonsense : Red Herrings, Straw Men and Sacred Cows: How We Abuse Logic in Our Everyday Language. Axios Press. 2002.
- **Hamblin, C.L**, Fallacies. London : Methuen & Co., 1970.
- **Hughes, William & Lavery, Jonathan**, Critical Thinking: An Introduction to the Basic Skills, Broadview, 2004.
- **John McPeck**, Critical Thinking and Education, Canadian Journal of Education, Vol. 7, No. 4. 1982.
- **Johnson, Ralph H. & Blair, J. Anthony**, Logical Self-Defense, International Debate Education Association, 1994.
- **Mclnerny, D.Q**, Being Logical: A Guide to Good Thinking. New York: Random House, 2005.
- **Michael Withey**, Mastering Logical Fallacies: The Definitive Guide to Flawless Rhetoric and Bulletproof Logic Paperback, Zephyros Press, 2016.
- **Moore Brooke Noel & Richard Parker**, Critical Thinking. Eighth Edition. New York : McGraw-Hill, 2007.
- **Nathaniel Bluedorn & Hans Bluedorn**, The Fallacy Detective: Thirty-Eight Lessons on How to Recognize Bad Reasoning, Workbook Print Edition, 2015.

- **Paul, Richard & Elder, Linda,** Thinker's Guide to Fallacies: The Art of Mental Trickery. Foundation for Critical Thinking. 2006.
- **Pirie, Madsen,** How to Win Every Argument : The Use and Abuse of Logic. Continuum International Publishing, 2006.
- **Robert H. Ennis,** Critical Thinking, Facsimile. 1995.
- **Sinnott-Armstrong, Walter & Fogelin, Robert,** Understanding Arguments : An Introduction to Informal Logic. Wadsworth Cengage Learning. 2010.
- **Tindale, Christopher W.,** Fallacies and Argument Appraisal. Critical Reasoning and Argumentation. Cambridge University Press. 2007.
- **Van Vleet, Jacob E.,** Informal Logical Fallacies: A Brief Guide. Berkeley : Independent Scholar's Press, 2009.
- **Walton, Douglas H.,** Informal Logic : A Handbook for Critical Argumentation. Cambridge : Cambridge University Press, 1989.
- **Walton, Douglas,** Informal Logic : A Pragmatic Approach, Cambridge University Press. 2008.
- **Warburton, Nigel,** Thinking from A to Z. London : Routledge, 2007.

نبذة عن المؤلف



د. عزيز إفزارن

- أستاذ باحث في الرياضيات، الموسيقى والتفكير النقدي.
- كاتب وملحن.
- حاصل على دكتوراه في الرياضيات وشهادة دراسات عليا في هندسة الإعلاميات.
- صدرت له كتب وأبحاث بمجلّات علمية متخصصة.
- مُعدّ برامج في التفكير النقدي وتبسيط العلوم.
- مؤطر ورشات في التفكير النقدي.

كتب أخرى للمؤلف







الخطايا العشر
للتفكير اللاّعقلاني

المغالطات المنطقية تُحيط بك من كل مكان. ستجدُها تتسلّلُ إليك من عناوينِ الأخبار والإعلاناتِ التجاريةِ، وتمُدُّ لك يدها من عالمِ المعتقداتِ الشعبية، وتجلسُ بثقةٍ في مقاهي النقاشاتِ القانونيةِ والأخلاقيةِ والاقتصاديةِ والسياسية والاجتماعية والعلمية، لتضعَ بصمتَها على قراراتِك الصغيرةِ قبل الكبيرة، من اختيارِ معجون أسنانك إلى اختيار شريك حياتك.

يستعرض هذا الكتاب عشر مغالطات كبرى تتفرّع عنها أخرى كثيرة. هو كتاب لِعموم الناس، فقد تم تقديمه بأسلوب مبسّط لا يُفقده عُمقه، مع أمثلة وحكايات ورسوم كاريكاتورية تُلطّف جفاف المنطق. ويُختَتم بملحق يضم أكثر من 100 مغالطة مع أمثلة تكشف الخلل، ليكون زادًا عمليًا للقارئ في رحلته نحو التفكير الرشيد.

هذا الكتاب لن يساعدك على الاسترخاء، بل على الأرجح سيستفزّ عقلك. وربما لن يضيف إلى رصيدك المعرفي، بل ينقص منه، بعد أن يُنقّي بعض ما علق به من شوائب وأوهام. فإن خرجتَ منه بأفكار أقلّ، لكنها أوضح وأمتن، فقد ربحنا الرهان.

IFZARNE PRESSE